

البرق المميرة

فوزي

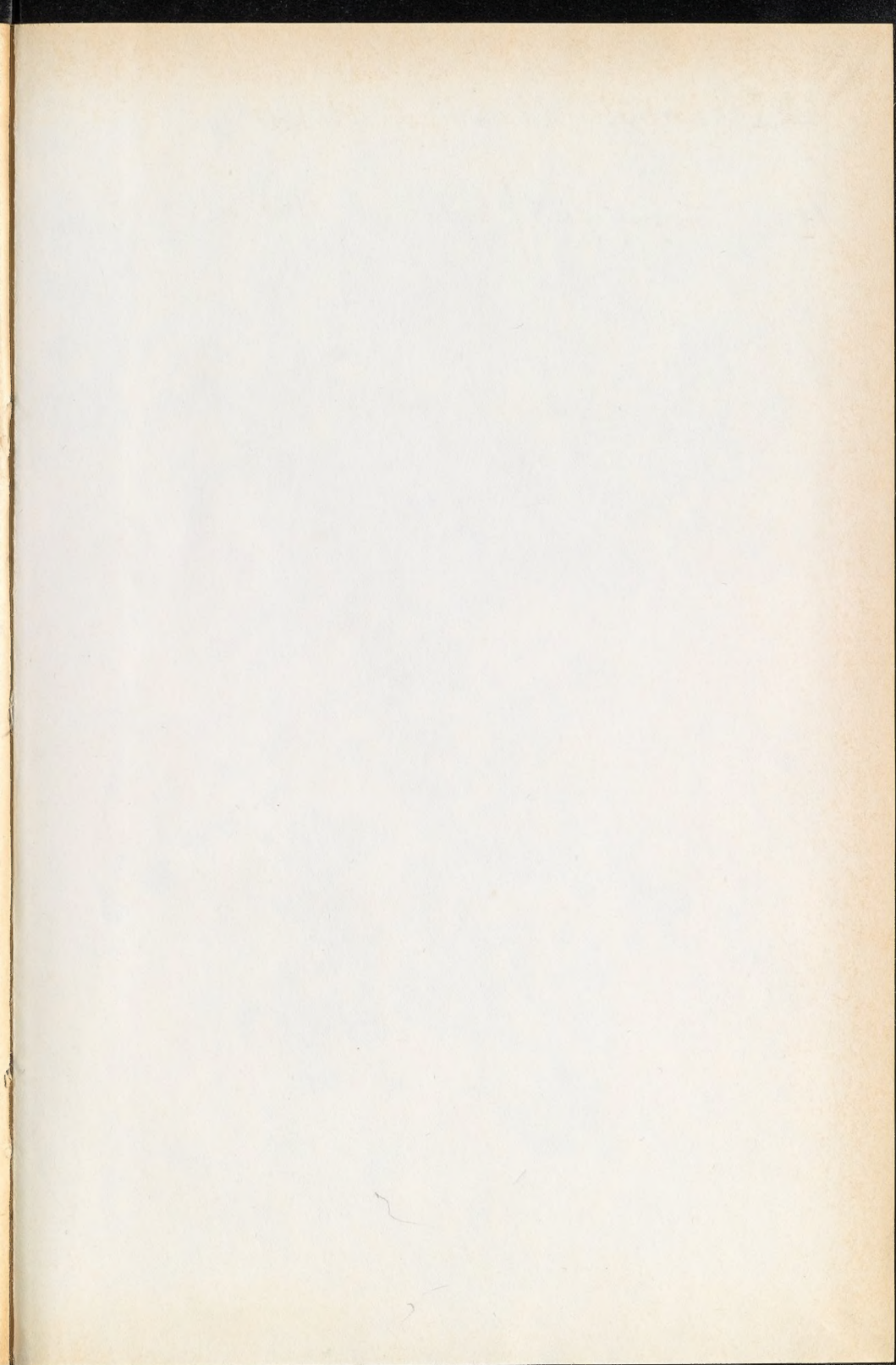
بطل
الاصلاح
الديني





**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**



al-Istānbūlī, Maḥmūd Maḥdī

/Ibn Taymīyah/ batal al-islāh al-dīnī

ابن تيمية

بطل الاصلاح الديني

عرض وتقديم

محمود مهدي الاستانبولي

منشورات
دار الحياة
للطباعة والنشر
دمشق، هاتف: ٢٥٠٧١

N. Y. U. LIBRARIES

Near East

BP

160

I 3

I 7

C. 1

والله ما يغض ابن تيمية إلا جاهل

أو صاحب هوى !!»

قاضي قضاة الاسلام

عبد البر السبكي

بين يدي الكتاب

من العسير على الاكثية الساحقة من علماء الدنيا أن يجابهوا الناس بانكار ما ألفوه من البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة التي يظنونها من الاسلام ويشقون في سبيلها ، والاسلام بريء منها ويحاربها بشدة !
ان أمثال هؤلاء الجبناء ، ليسوا علماء باعقادي ، وان حشدوا أدمعتهم بكلمات هائلة من الكتب والرسائل .
ان العلماء هم الذين وصفهم الله - سبحانه - بقوله : « وانما يخشى الله من عباده العلماء ! »

أما الذين يخشون الناس ، فهم خثالات بشرية وأدعياء ومسرحيون ، همهم حطام الدنيا ، وليس لهم في الآخرة من نصيب !
انهم دوائر معارف سيارة ، تصلح للبيع والشراء ، وليس للهدم والبناء !!
انهم حريصون على عواطف العوام ، راغبون في تأييدهم من أجل منصب نالوه أو معركة انتخابية سيخوضونها او قبلات للأيدي سيحرمون منها !
انهم مستعدون لاختفاء تعاليم الاسلام وتضليل العامة والتعمية عليهم بسبب هذا التملق الذي لانهاية له ، وهذا الاسترضاء البغيض لا يجتمع مع الايمان الصحيح في قلب مؤمن !

انهم حريصون على ثناء الناس ، واذا تقدروهم حرموا هذا الثناء !
وما علموا أن من أثنى عليه الناس جميعاً فهو منافق !
وان المؤمن لا يكمل ايمانه حتى يستوي عنده المدح والذم في سبيل الحق !
ولا يكون العالم عالماً حقاً حتى يبين للناس منازل الهم .
لم يأخذ الله - تعالى - الموائيق من العلماء أن يبينوا الحقيقة ؟.

يا أيها الناس !

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . »

في الصفحات التالية آراء حرة وأفكار صريحة وحقائق واضحة تكشف للناس عن أذاليل حسبوها عبادة ، ووثنيات ظنوها ولاية ! فاجأتهم بها مفاجأة ، غير حاسب لرضام او بغضهم حساباً ولا وزناً ، كل ذلك من أجل نصرة الحق ، وتحقيق سعادة المسلمين ، فإنه ليس اخطر على الناس من الدين المشوب بالاوهام والاساطير والبدع ، لذا يسارع الدعاة الى الاصلاح الديني من اجل تطهير الاسلام ، مما لحق به من هذه الاوهام والبدع والاساطير لتعود له نقاوته وترجع له قوته لينطلق بأتباعه كما انطلق من قبل ، في ميادين العظمة والمجد والخلود !

حقاً اننا نعالج أمراً - كما قال بعض المصلحين - لا يعين عليه إلا الله ، قد فني فيه الكبير وشاب عليه الصغير ، وهاجر الاعرابي ، يحسبونه دينه لا يرون الحق غيره ! لذا كانت مهمتنا شاقة صعبة ، واصلاحاتنا خطيرة غريبة ، سائلين الله سبحانه أن يحقق فينا في هذا الكتاب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء . الذين يصلحون ما أفسد الناس من سني من بعدي» ولا بد في خاتمة هذه الكلمة الصريحة من الاعلان بانني لم آت أمراً مبتكراً ، انما كنت ناقلاً ، ومتبنياً ما نقلت ، واذا قسوت في بعض تقدي ، فذلك لاني وجدت حقيقة يغطي الخرافيون وجهها الماضي ، وضلالاً ايراد فرضه على الاسلام العظيم ، فتملكني أحياناً بعض سورة الغضب المشوب بالالم ، فاخرجتني عن جادة الاعتدال ، غيرة على ديني من الذين يزعمون انهم حجتهم وأوليائهم ، «وما كانوا اولياءه ان أولياءه الا المتقون» العالمون . ومما كان من أمر هذه القسوة ، فاني لست مغرضاً فيها .

انني في طريقي الى العقد السادس في السن التي يؤمن الكافر ويتوب الفاجر ، فكيف أغش وكيف أجادل في الباطل ، والله - سبحانه - يطلع على بواطن الافئدة وما تخفي الصدور .؟

والولى - تعالى - أسأل أن يشرح صدور الناس لما في هذه الصفحات من الحق المتعاون معاً في سبيل تحقيق دعوة الاسلام الصحيحة التي يتوقف عليها بناء نهضتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . كما أسأله - جل شأنه - أن يلهم الغيورين من المصلحين الى نقد ما كتبت نقداً علمياً يعتمد على الحق وحده .

« ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » ..

محمود مهدي استانبولي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الى الجيل الجديد
الى طلاب الحقيقة
الى رجال الاصلاح الديني

اقدم
هذه الصورة العظيمة للمصلح الكبير
شيخ الاسلام ابن تيمية
فانهم واجدون فيها:
شعلة لا تنطفئ
وقوة لا تلين
ودرسا لا يمحو
وخلقاً عظيماً
وجهاداً جباراً

1844

1845

1846

1847

1848

1849

1850

1851

1852

1853

1854

1855

ان العالم الديني الحق - خلافاً لكثير من العلماء - لا يعيش بين الكتب ، مكتفياً بالنسخ والتأليف فحسب ، ناظراً الى الناس من بوجه العاجي ، غير مهتم في خوض معركة الاصلاح الديني ، ومحاربة من يعبت بالدين ، او يضيف اليه البدع والاهوام !

ان العالم الديني الحق لا يتهرب من ميدان النضال الفكري في سبيل الدفاع عن الحقيقة الجريئة والحرية المهددة ، بل يتولى مكان القيادة ويكون من رواد النهضة والثورة على الباطل !

ان العالم الديني الحق لا يعيش في المسجد فقط ، بل يلي داع الجهاد ، فيكون في الطليعة على الدوام ، ولو قاده ذلك الى العذاب والسجن والموت .
ان العالم الديني الحق لا يعرف الغزلة ، ولا يصرفه حب الوظيفة والمال عن القيام في وجه الظلم والظالمين ، مغمضاً عينيه ومغلقاً اذنيه عن نداء الواجب !

ان العالم الديني الحق بعيد النظر دائم التفكير ، يتحسس بمبلغ خسارة الامة من ابتعادها عن اسلامها ، وانصرافها عنه الى البدع والاهوام التي تجلب الويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والعقلية ، فتذلل نفوس المسلمين وتضعف شخصياتهم ، ويصبحون عرضة للاهانة ، فيطمع فيهم العدو المتربص ويغدون نهياً مقسماً !

ان العالم الديني الحق قل ان يحود بمثله الزمان ، يبعثه الله - تعالى - من حين الى آخر ليحدد الامة أمر دينها ويعيدها الى اسلامها الصحيح فيكون مثله مثل النجم الهادي في الليالي الخالكات .

وقد من الله - سبحانه - على هذه الامة في القرن السابع الهجري بمثل هذا العالم الحق ، فكان كالطود الاشم في وجه الاعاصير ، وكالشمس المضيئة في وجه الظلام الداجي .

جاء هذا العالم في وقت عم فيه الجهل المركب ، وهو العلم بالشيء على خلاف الحقيقة ، انتشر هذا الجهل الخطير ، وخدع الاغرار ، وكثيراً من رجال الحكم ، وشرذ الفكر ، ومد اخطبوطه في اعناق المصلحين ودعاة التجديد يحاول خنق أنفاسهم .

وحملة هذا الجهل المركب وصفهم الله - عز وجل - في الآية الكريمة فقال : « قل هل انبئكم بالآخرين اعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ۝۱۱ »

لقد تلوث ضمائرهم ، فليس فيها للحق والاخلاص مكان ، وهم لا يتقاعسون عن تزوير الحوادث ونسج الوشائات وقلب الحقائق في سبيل الوصول الى قهر رجال الاصلاح الديني الذين يكشفون عن جهلهم ويفضحون انتهازياتهم ، ويميطون اللثام عن جرائمهم !

والمصلحون لا يحتاجون الى جهد كبير من اجل دحض مزاعم هؤلاء الخفافيش الذين يؤذيهم نور الحقيقة ، فهم سرعان ما يتساقطون كما تتساقط الفراشات على ضوء المصباح ، لولا انهم يحتمون بالغوغاء والبسطاء من بعض رجال الحكم والعامّة الذين سمعهم بخرافاتهم وغرروهم بعمائمهم الشبيهة بالابراج ، وأكمامهم الشبيهة بالاعراج !

في هذا الجو الخالك المكفر ، نزل ابن تيمية - موضوع كتابنا - وحده الى الميدان ، وسرى في الصفحات التالية صورة للمعركة بين العلم الصحيح ، وبين الجهل المركب ، ولحمة عن الصراع بين الحق والباطل ، كما نرى صورة للعالم المتسامح والبطل المجاهد الذي يترك محراب العلم اذا دعا داعي الله ، ليلتحق بميدان الحروب ويحقق الظفر لأمته .

كان المسلمون قبل عهد الامام ابن تيمية تأثي العقيدة قد ضاعوا

بين آراء المعتزلة وآراء الاشاعرة - كما سنرى - وقد اقتبسوا اغلب أفكارهم من فلسفات اليونان والهند وفارس وأسسوا ما سموه بعلم الكلام واطلقوا عليه اسم التوحيد ، وفيه كل شيء الا التوحيد ! وقد نهى عن دراسته جميع أئمة المذاهب واعتبروه سبيلا للكفر والتضليل !!

فجاء الامام ابن تيمية ووضع شعلة القرآن ونور السنة على طريق المساهين ، وهداهم الى التوحيد الصحيح ، والايمان بصفاته تعالى دون تأويل ولا تشبيه حسب عقيدة السلف وهم وحدهم - ومن تبعهم باحسان - الفرقة الناجية التي تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة ، ثنتان وسبعون في النار ! وواحدة في الجنة ، وهي : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم واصحابي (١) » .

وهكذا انقذ شيخ الاسلام ابن تيمية المساهين من الضلال والزيغان كما أنقذهم من الذل والاستعمار - كما سنرى - وقد كافأه الجامدون والمبتدعة والمتصوفة مكافأة ستمار ، فاضطهدوه واتهموه بضعف في الدين ومروق من الاسلام ، وهم - في الحقيقة - الضعفاء في الدين والمارقين من الاسلام لو كانوا يعاونون ، ووشوا به الى الحكام ونسجوا حوله الافتراءات حتى سجن في كثير من ايام حياته ، ومات سجيناً في قلعة دمشق . كما هو مذكور مفصلاً في صفحات هذا الكتاب .

ولواصفى هؤلاء الحكام لكلامهم لكان مصيره التشريد والقتل شأن الجناة والسفاكين ! وما نقم منه هؤلاء الشيوخ الا انه دعاهم لما يحميمهم : عاهم الى الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه ونبد الخلافات المذهبية الطرود الصوفية والفرق الضالة .

(١) رواه ابوا داود والترمذي والنسائي وابن ماجة بسند صحيح عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه .

اظهار ما قد ضيعوه من اليد
 ليكافئوه على وفاق المرشد
 ومشوا على منهاج قوم حسد
 هم يعملون به ومنهم يتدي
 بدخول جنات وحوار حرد
 بل إنه يرجو بها لموحد
 ينهي عن الانداد للمتفرد
 لكن اعمى القلب ليس يمتد
 ماضره قول العداة الحسد
 ذا ساحر ذا كاهن ذا معتد
 بالكفر قلنا ليس ذا بمؤكد
 ونهى قصد فذاك كالمتهود
 وهو النصيح بكل وجه يتدي
 وذروا عبادة ماسوى المتفرد
 تنتطعوا بزيادة وتردد
 بعثت به الرسل الكرام لمن هدي
 ترى الى عهد النبي محمد
 والتابعون وكل حبر مهتد
 من كان مستنأ بهم فليقتد
 علم الحديث مسلسلاً في المسند
 خطر على من قال فليتشهد
 بأن الشيخ غير مجدد

رأى المحب محمداً لمحمد
 للحب في نص الكتاب الاجميد
 الحق شمس البصير المستدي
 حسب يقربنا له بتودد
 لذوي البصائر فاهتدت من مهتدي
 شك ورب واختلاف يتدي
 تجدوه حقاً ظاهراً للمقتدي

لو انصفوا رأوا له فضلاً على
 ودعوا له بالخير بعد ممانته
 لكنهم قد عاندوا وتكبروا
 ورموه بالبهتان والافك الذي
 كمالهم هو للتابع قاطع
 حاشاؤكلا ليس هذا شأنه
 قالوا له اشقى الورى مع كونه
 وهو يرون الشمس ظاهرة لهم
 قالوا له يا كافر يا فاجر
 قالت قريش قبلهم للمصطفى
 قالوا يعم المسلمين جميعهم
 بل كل من جعل العديل لربه
 قالوا له غشاش امة احمد
 هل قال إلا وحدها رب السما
 وتسمكوا بالسنة البيضاء ولا
 هذا الذي جعلوه غشاً وهو قد
 من عهد آدم ثم نوح هكذا
 وكذلك الخلفاء بعد نبيهم
 منها جهم هذا عليه تسمكوا
 عجباً لمن يتلو الكتاب ويدعي
 ويقول للتوحيد غشاً ان ذا
 ويحدد الاسلام والايمان معترفاً

عجباً لهم لو كان فيهم منصف
 من حيث إن الاتباع موافق
 قالوا صبا تم نحوه قلنا لهم
 ما بيننا نسب نيل به ولا
 لكنهما شمس الظهيرة قد بدت
 فان اعتراكم في الذي قد قاله
 فزنوا بينان الشريعة قوله

ولئن وجدتم جافياً أو فاسقاً
قد زل يوماً أو هفاً لاتنسوا
فالآل والاصحاب ماذا ضرهم
من بعد ذلك الاجتماع على الهدى
ماذا يضر السحب نبج الكلب أم
ثم الصلاة على النبي محمد
والآل والاصحاب جمعاً كلهم
أو جاهلاً في العلم كالمتردد
هفواته لجناب ذاك المرشد
من بعدم تكدير صافي المورد
ظهروا ذوو فرق وأهل تبدد
ماذا يضر السحب سب الملحد
ازكى الوري أصلاً وأطيب محد
قد ذنب عن ذا الدين كل موحد

والغريب جداً ان الكترة الساحقة من علماء المسلمين لم تعرف لشيخ
الاسلام حقه ، فهي لاتزال تضممر له العداوة والخصومة ، وهي لو انصفت
لاضمرت العداوة والخصومة لنفسها الامارة بالسوء!! واذا كان الادعياء
والمحترفون من العلماء قديماً قد ابغضوا الامام ابن تيمية عن علمهم الناقص ، فان
الادعياء والمحترفين اليوم قد ابغضوه عن جهل مركب وبتأثير التقليد
الاعمى ! ولايزالون يضمرون له ولا يتابعه من اهل القرآن والحديث
(المسمون بالسلفيين) العداوة ، وهم لوعقلوا لقدروهم حق قدرهم !

أن اهل القرآن والحديث - رحم الله موتاهم وبارك الله في احيائهم
وامدهم بقوته وتوفيقه - هم مصاييح الهدى ، والدعاة الى الرشاد والتقى ،
من عاداهم هلك ومن تركهم ضل ، وهم المنصورون على خصومهم بشرهم
بذلك النبي ﷺ فقال «لاتزال طائفة (١) من امتي ظاهرين على الحق
لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس !»

وانني قبل ختام هذه المقدمة اسجل بمداد من نور شكر العالم
الاسلامي للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية
على احيائه ذكرى شيخ الاسلام الامام ابن تيمية بدمشق ، في وقت تفظ

(١) وقد ذكر الامام احمد بن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري وغيرهم من كبار العلماء
بأن هذه الطائفة هم اهل الحديث. فاسع يا اخي المسلم ان تكون منهم لتكون من الفائزين.

فيه الجامعة الازهرية وكليات الشريعة في العالم العربي والاسلامي في نوم
عميق عن التراث الضخم لهذا المصلح والمجدد الذي املأ الدنيا وشغل الناس.
انه لمن نكران الجيل والتعصب الممقوت والجهل المذري ان يبقى
الامام ابن تيمية نسياً منسياً في كهوف المكتبات العربية والاسلامية، بينما
تتهافت جامعاتنا على دراسة المذاهب الفلسفية القديمة والحديثة وما فيها من
ضلالات وكفريات كانت من اهم اسباب اضطراب الجيل الجديد .

موضوع هذا الكتاب بطل عظيم من ابطال التاريخ لم يشهد العالم
له مثيلاً في عبوريته واخلاصه وشجاعته منذ قرون طويلة .

بطل في ميدان العلم ...

بطل في ساحات الحروب ...

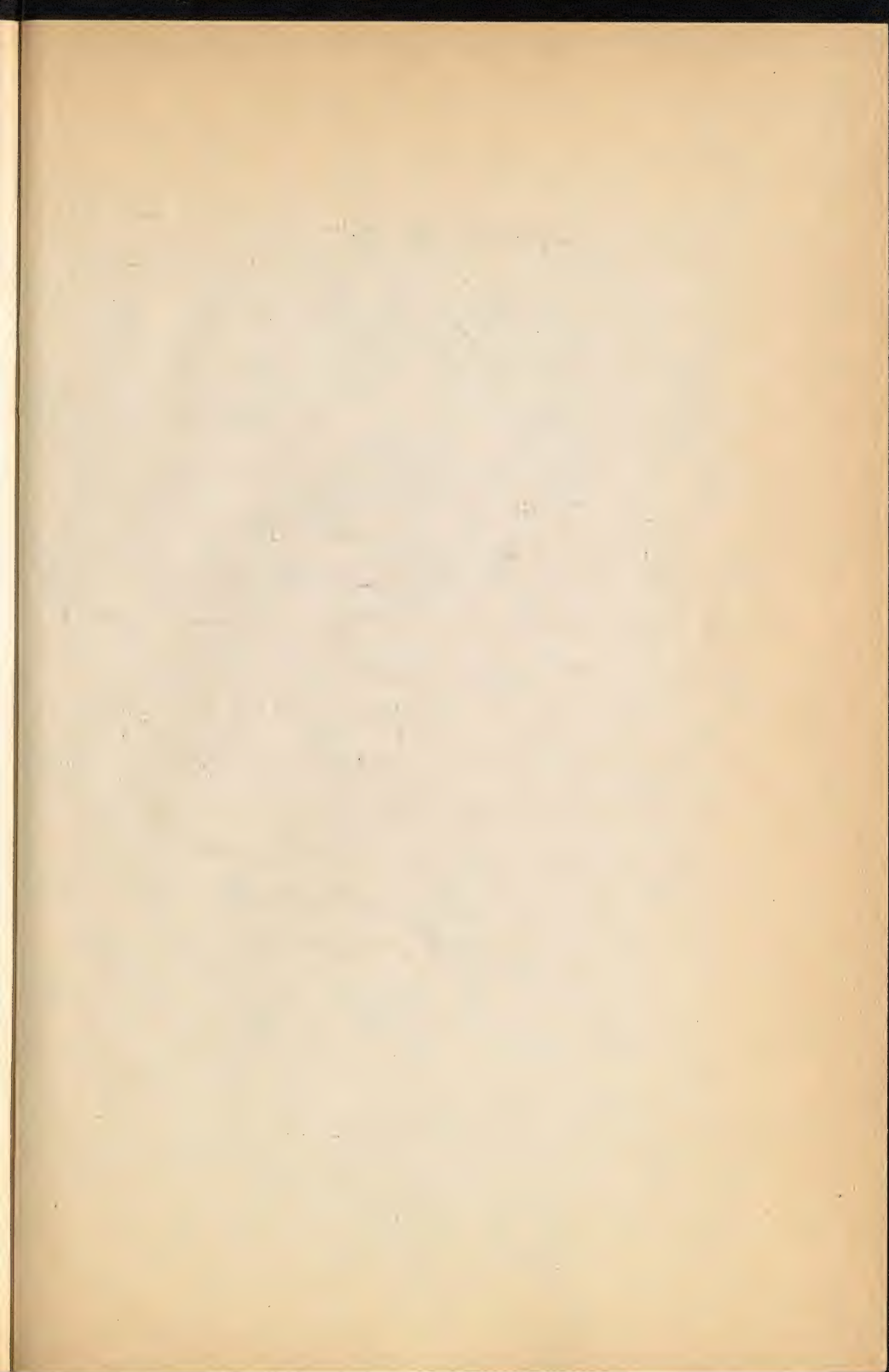
بطل في معارك السياسة ...

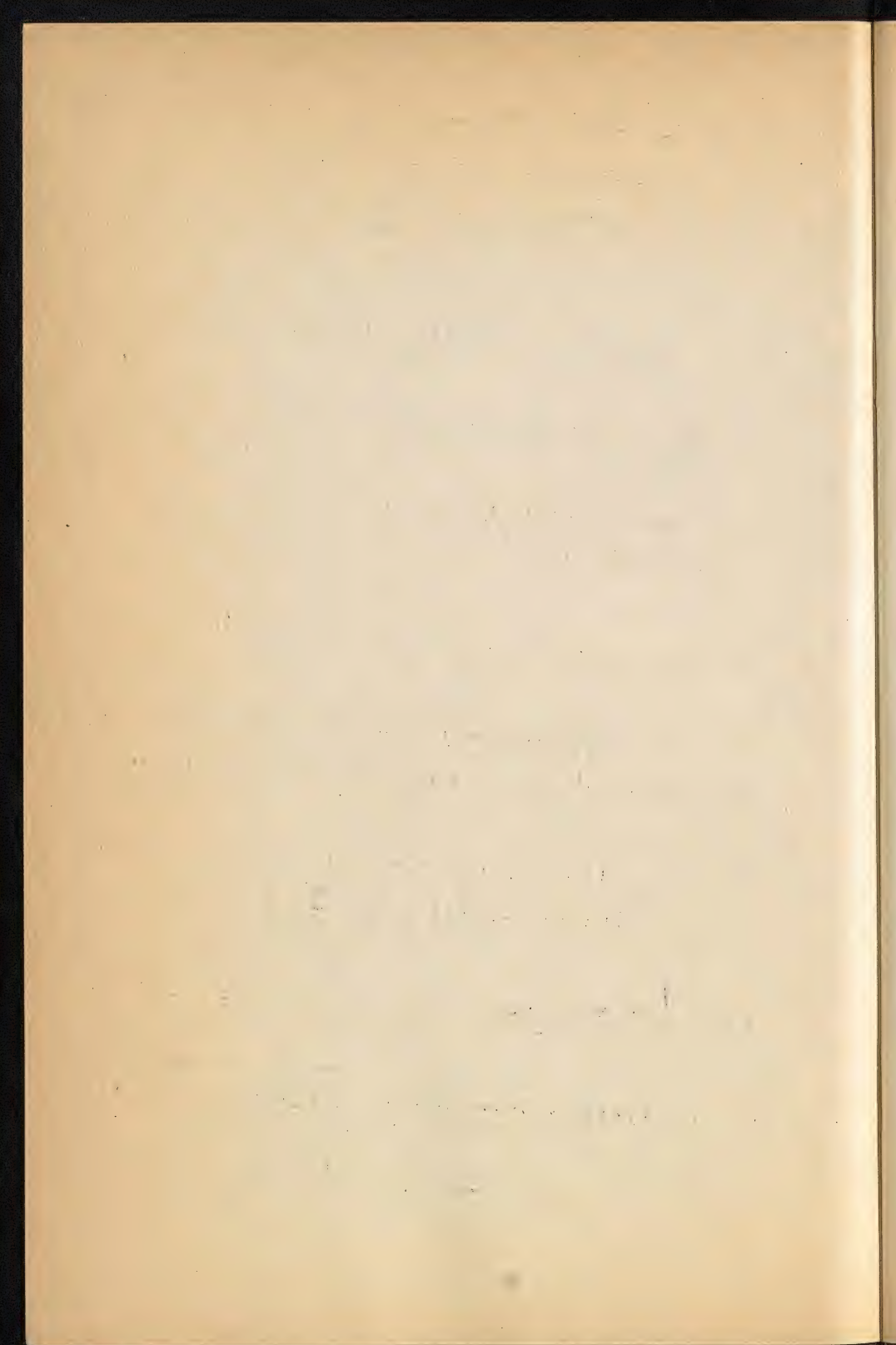
هذا البطل ملأ الدنيا وشغل الناس منذ شب بين العلماء حتى يومنا
هذا ، فلا يكاد يذكر اسمه في الاوساط الاسلامية حتى تسمع دويّاً عظيماً
ويثار النقاش حوله ، فمن منصف معجب يذكره بتعظيم واحترام ، ومن
مكابر مقلد يأكل الحسد والحقن قلبه ! .

كان مجزاً في العلوم ، فارساً في اللغة ، ترجمانا للقرآن ، اماماً
للزاهدين ، قهر الملاحدين ، وقمع المبتدعين وترك العالم الاسلامي في دوي
« كأنما تداول سمع المرء اغله العشر »

فمن هو هذا البطل العظيم ؟

انه تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية ..





اشكال ما أشكل ، وقدأكون إذ ذاك في السوق ، أو المسجد . أو
المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار الى أن انال مطلوبي ! »
واستمر ابن تيمية على هذا الدأب والجد حتى أصبح من كبار
الفقهاء وانتهت اليه الامامة في العلم والعمل .

ثناء العلماء عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه « الكواكب
الدراري » (١) الذي ألفه في مناقب الامام ابن تيمية : قدأكثرأئمةالاسلام
من الثناء على هذا الامام ، كالحافظ المزي وابن دقيق العبد ، وابي حيان
النحوي ، والحافظ ابن سيد الناس ، والحافظ الزملكاني ، والحافظ الذهبي ،
وغيرهم من أئمة العلماء .

وقال الحافظ المزي : مارأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه . وما
رأيت احداً اعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لها منه .
وقال القاضي ابو الفتح بن دقيق العبد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت
رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له ما كنت
اظن ان يخلق مثلك !

وقال الشيخ ابراهيم الرقي : ان تقى الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم ،
فان طال عمره ملاً الارض علماً وهو على الحق ، ولا بد من أن يعاديه الناس
لانه وارث علم النبوة .

وقال القاضي ابن الحريري : ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام
فمن هو ؟ !

(١) من « مجموع : الرد الوافر » ومامعه من الرسائل طبع مصر سنة ١٢٤٩ هـ

وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به : مارأت عيناى مثله .
ثم مدحه أبو حيان على البدية في المجلس وقال :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا	داع الى الله فردا ماله وزر
على حياه من سيم الألى صجبوا	خير البوية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهرنا حبراً	بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا	مقام سيد تيم اذ عصت مضر
وأظهر الحق اذ آثاره درست	وأخذ الشر اذ طارت له شرر
كما تحدث عن حبر يحيى فيها	أنت الامام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزمكاني : لقد اعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن
التصنيف . وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتعيين . وقد ألان الله
له العلوم كما ألان لداود الحديد . كان اذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي
والسامع انه لا يعرف غير ذلك الفن . وحكم ان احداً لا يعرفه مثله
(الى ان قال) :

ماذا يقول الواصفون له	وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة الله قاهرة	هو بيننا اعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة	أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الواسطي عنه : انموزج
الخلفاء الراشدين والائمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت
الامة حذوهم وسبيلهم ، فكان في دارس نهجهم سالكا ، ولأعنة قواعدهم مالكا .
وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب « القول الجلي في ترجمة
الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي » : ومما وجد في كتاب كتبه القاضي
ابو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ماصورته : واما
قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بجره ، وتوسعه .

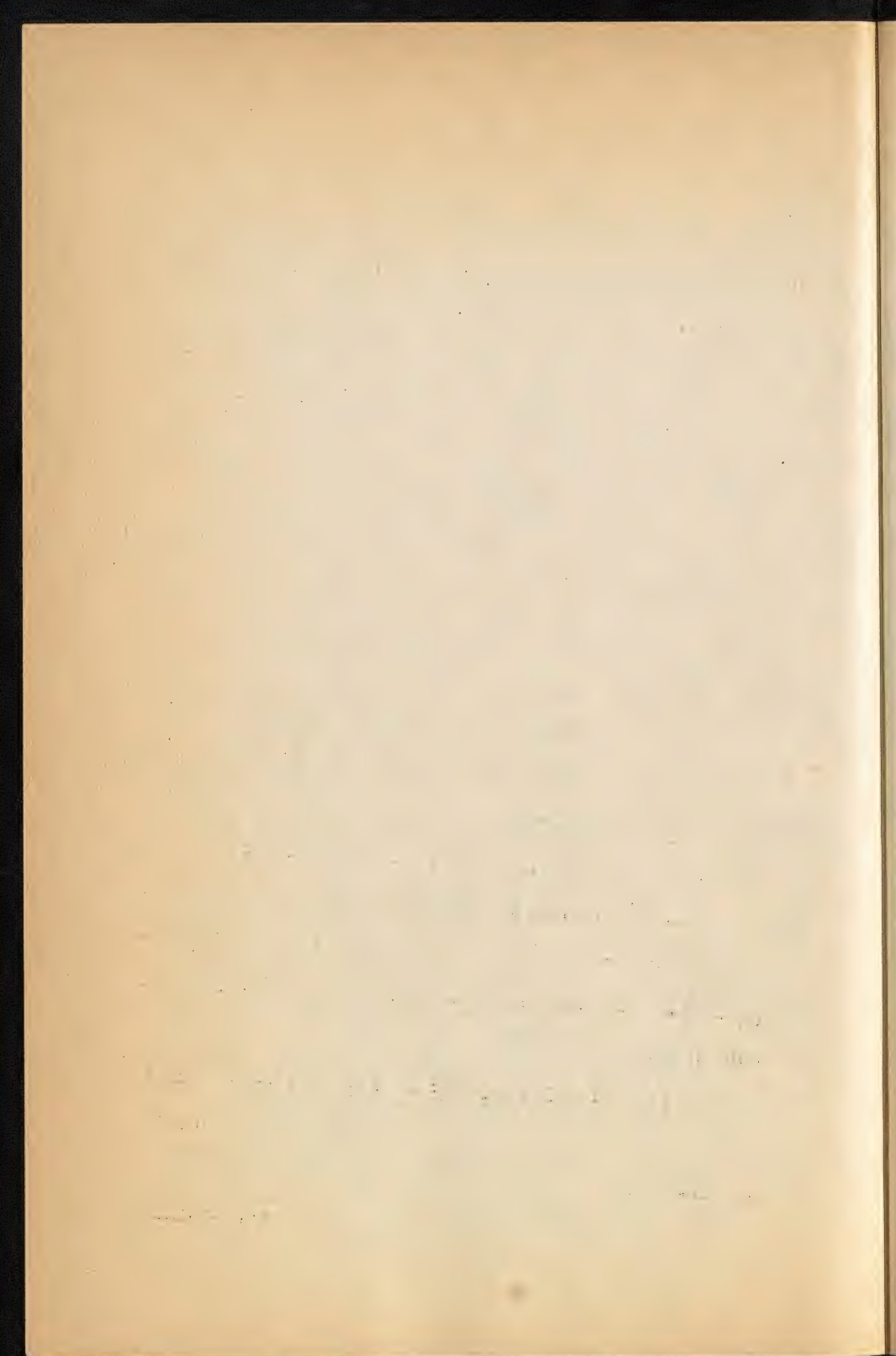
1871
The first of the year
was a very dry one
and the crops were
very poor.

The second of the year
was a very wet one
and the crops were
very good.

The third of the year
was a very dry one
and the crops were
very poor.

The fourth of the year
was a very wet one
and the crops were
very good.

The fifth of the year
was a very dry one
and the crops were
very poor.



استاذ دار السلطان ، يتضمن ذكر عقيدة 'محرقة' . ولم أعلم بحقيقته .
لكن علمت ان هذا مكذوب . وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني
مسائل في الاعتقاد أو غيره ، فاجبه بالكتاب والسنة . وما كان عليه
سلف الامة .

فقال : نريد ان تكتب لنا عقيدتك .

فقلت : اكتبوا .

فأمر الشيخ كمال الدين ان يكتب .

وكتبت له جمل الاعتقاد في ابواب الصفات ، والقدر ، ومسائل
الايمان ، والوعيد ، والامامة ، والتفضيل .

وهو ان اعتقاد اهل السنة والجماعة : الايمان بما وصف الله به نفسه ،
وبما وصفه به رسوله . من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا
تمثيل . وان القرآن كلام الله ، غير مخلوق . منه بدا واليه يعود . والايمان
بان الله خلق كل شيء من افعال العباد وغيرها . وانه ما شاء الله كان ،
وما لم يشأ لم يكن . وانه أمر بالطاعة ورضيها وأحبها . ونهى عن المعصية
وكرهها . والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله . وان الايمان والدين
قول وعمل يزيد وينقص . وان لا تكفر احداً من أهل القبلة بالذنوب .
ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحداً ، وان الخلفاء بعد رسول الله ﷺ
ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم . وان مرتبتهم في الفضل
كمرتبتهم في الخلافة . ومن قدم علياً على عثمان ، فقد أزرى بالمهاجرين
والأنصار .

وذكرت هذا ونحوه . فاني الآن قد بعد عهدي . ولم أحفظ لفظ
بألميته اذ ذاك .

ثم قلت للامير والحاضرين : أنا أعلم ان اقواما يكذبون عليّ ، كما قد كذبوا عليّ غير مرة . وان أمليت الاعتقاد من حفطي ربما يقولون : كتم بعضه ، أو داهن ودّ أراي . فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين ، قبل مجيء التتر الى الشام .

قلت ، قبل حضورها كلاماً قد بعد عهدي به . وغضبت غضباً شديداً ، لكنني أذكر أنني قلت :

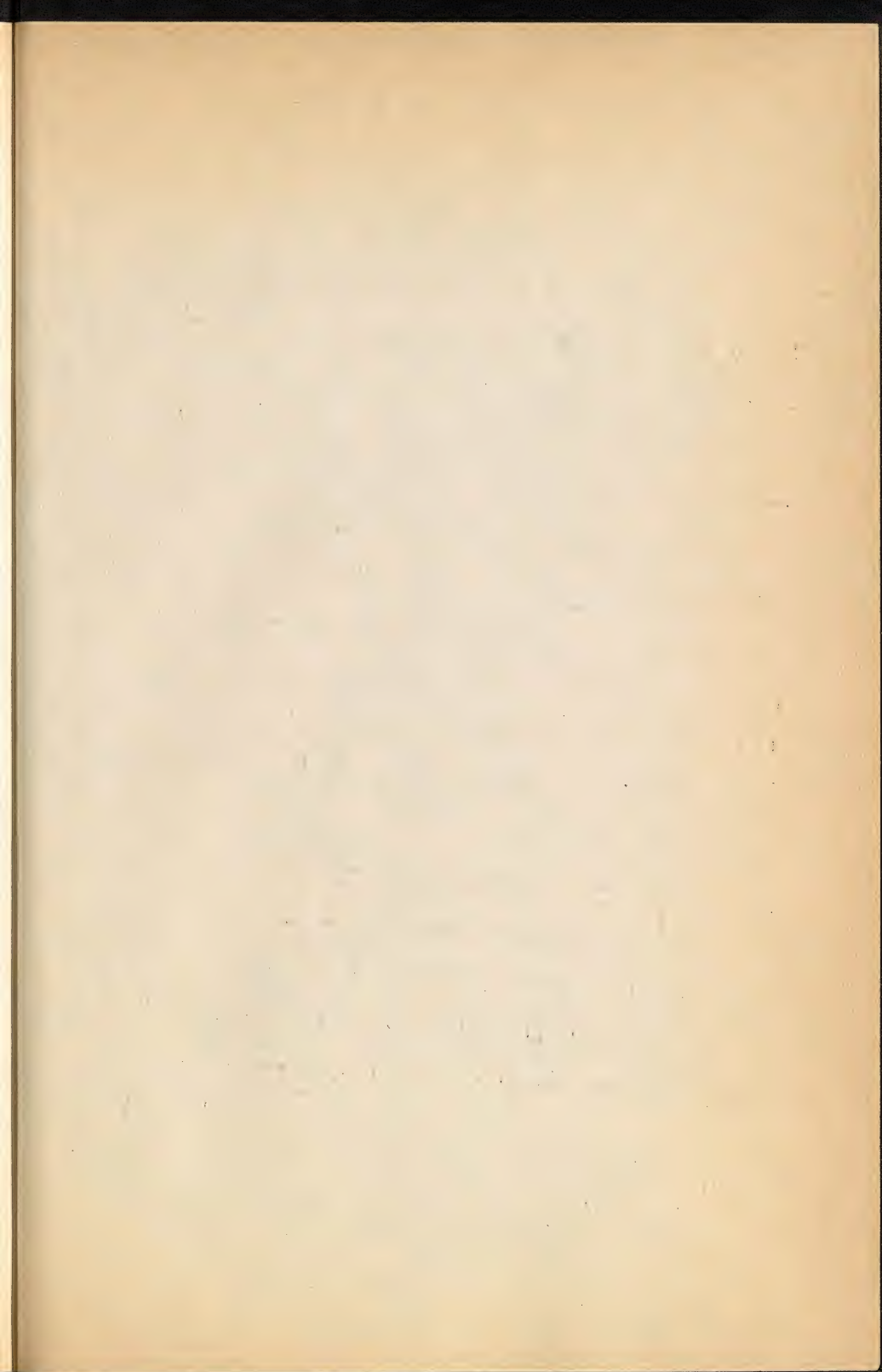
أنا أعلم أن اقواماً كذبوا عليّ . وقالوا للسلطان أشياء . وتكلمت بكلام احتجت اليه . مثل أن قلت :

من قام بالاسلام في أوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي أوضح دلائله ، وبينه ، وجاهد أعداءه ، وأقامه لما مال ، حين تخلّى عنه كل أحد ، فلا أحد ينطق بمجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهرًا لحجته ، بجاهدًا عنه ، مرغبا فيه ؟

فإذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ ، فكيف يصنعون بغيري ؟ ولو أن يهودياً طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه وأنا قد أعفو عن حقي ، وقد لا أعفو . بل قد أطلب الانصاف منه . وان يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليحققوا على افترائهم .

وقلت كلاماً أطول من هذا ، من هذا الجنس . لكن بعد عهدي به .

فأشار الأمير الى كاتب الدّرج : محيي الدين ، ان يكتب ذلك . وقلت أيضاً : كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه . وما أدري ، هل قلت هذا قبل حضورها ، أو بعدها ؟



1860

1861

1862

1863

1864

1865

1866

1867

1868

1869

1870

1871

1872

1873

1874

والفقه ، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من اهل التفسير
والسلف (١). ولان من المعاني التي قد تسمى تأويلا : ما هو صحيح منقول

(١) قال العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق^١ المرسلة في بيان

حقيقة التأويل :

هو تفعيل من آل يؤول الى كذا ، اذا صار اليه ، فالتأويل : التصيير واولته
تأويلا : اذا صيرته اليه . وتأول هو مطاوع اولته . وقال الجوهرى : التأويل : تفسير
ما يؤول اليه الشيء . ثم تسمى العاقبة تأويلا ، لان الامير يصير اليها . قال الله تعالى :
(فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
ذلك خير واحسن تأويلا) ، وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلا . لان الامر ينتهي
اليها . ومنه قوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من
قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) . فجيء تأويله : بحجى نفس ما أخبرت به الرسل من
اليوم الآخر والمعاد والجنة والنار . ويسمى تعبير الرؤيا تأويلها بالاعتبارين . وتسمى
العمة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلا ، لانها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من
الفعل الذي لم يعرف الرائي غرضه منه . ومنه قول الخضر لموسى (سأنبئك بتأويل ما لم
تستطع عليه صبرا) فالتأويل المراد منه في كتاب الله : حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ
اليه ، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج . وتأويل الوعد والوعيد : هو نفس الموعد
والمتوعد به . وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وافعاله : هو نفس ما هو سبحانه موصوف
به من الصفات . وتأويل الامر : هو نفس الافعال المأمور بها . قالت عائشة « كاد
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك
يتأول القرآن » فهذا التأويل هو فعل المأمور به . هذا التأويل في كلام الله ورسوله .
واما في اصطلاح اهل التفسير والسلف من اهل الفقه والحديث : فمرادهم به معنى التفسير
والبيان ومنه قول ابن جرير وغيره : القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا . ومنه
قول الامام احمد في الرد على الجهمية فيما تأولوه من القرآن على غير تأويله . فبطل تلك
التأويلات التي ذكروها . وهو تفسير مرادهم بها ، وهو تأويلها عنده . فهذا التأويل
يرجع الى فهم المؤمن ويحصل في الذهن . والاول يعود الى وقوع حقيقته في الخارج .
واما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل : صرف اللفظ عن ظاهره ←

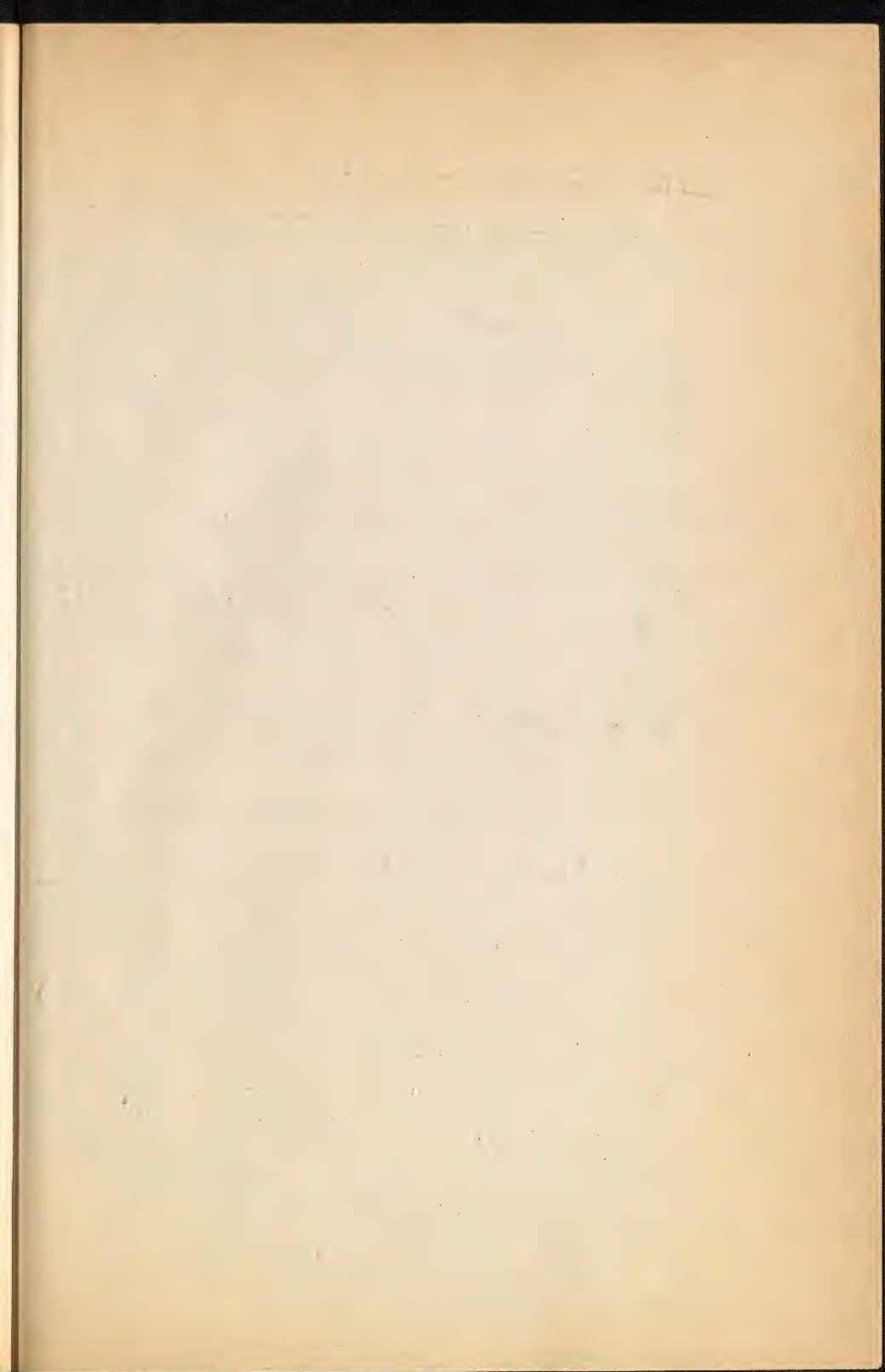
عن بعض السلف . فلم أنف ما تقوم الحجة على صحته اذا ما قامت الحجة على صحته ، وهو منقول عن السلف ، فليس من التحريف . وقلت له ايضا : ذكرت في النفي « التمثيل » ولم اذكر « التشبيه » لان « التمثيل » نفاه الله بنص كتابه حيث قال (ليس كمثله شيء) وقال (هل تعلم له سميا) فكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله ﷺ . وان كان قد يعني بنفيه معنى صحيح ، كما قد يعني به معنى فاسد .

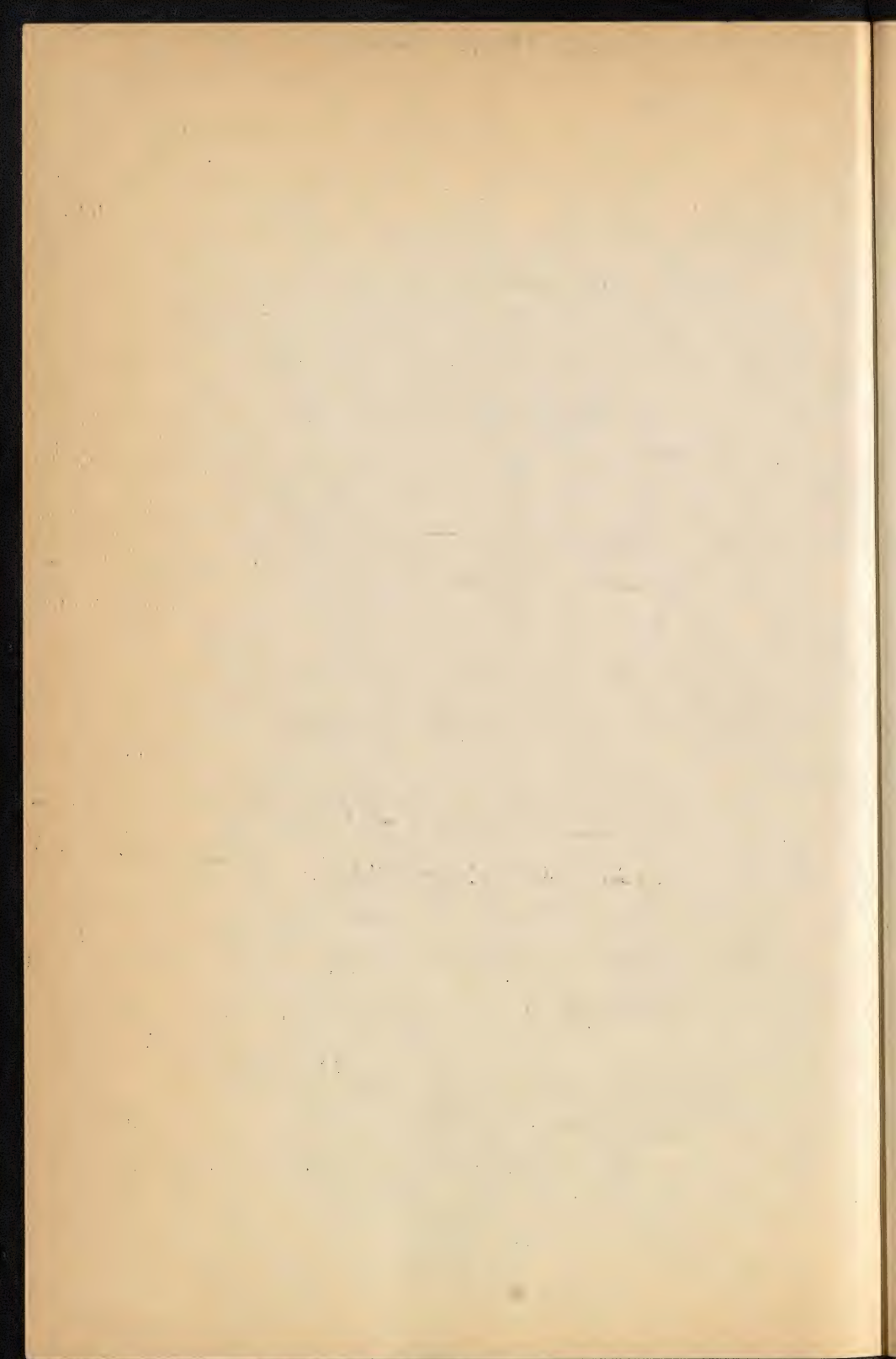
ولما ذكرت « فانهم لا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في اسماء الله وآياته » . جعل بعض الحاضرين يمتنع من ذلك ، لاستشعاره ما في ذلك من الرد لما هو عليه ، ولكن لم يتوجه له ما يقوله .

واراد ان يدور عليّ بالاسئلة التي أعلمها ، فلم يتمكن لعلّاه بالجواب . ولما ذكرت آية الكرسي ، أظن سأل الأمير عن قولنا « لا يقربه . شيطان حتى يصبح »

فذكرت له حديث ابي هريرة رضي الله عنه في الذي كان يسرق

وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من الاصوليين والفقهاء . ولذلك يقولون : التأويل على خلاف الاصل . والتأويل يحتاج الى دليل . وهذا التأويل هو الذي صنفوا في تسويغه وابطاله من الجانبين . فمن صنف في ابطاله على رأي المتكلمين : القاضي ابو يعلى والشيخ موفق الدين بن قدامة . وقد حكى غير واحد اجماع السلف على عدم القول به - الى ان قال - : وبالجملّة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة : هو التأويل الصحيح . وغيره هو الفاسد . ثم ذكر انواع التأويل الباطل في كلام نفيس . فارجع اليه .





قد ذكر فيها في غير موضع « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير
تكيف ، ولا تمثيل » . وقلت في صدرها : « ومن الايمان بالله : الايمان بـ
وصف الله به نفسه في كتابه . وبما وصف به رسوله محمد ﷺ . من غير
تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل » .

ثم قلت : « وما وصف الرسول به ربه من الاحاديث الصحاح التي
تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الايمان بها كذلك »

الى ان قلت : « الى امثال هذه الأحاديث الصحاح التي يخبر فيها
رسول الله ﷺ بما يخبر به . فان الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة
يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه . من
غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل . بل هم الوسط في
فرق الامة . كما أن الامة هي الوسط في الامم ، فهم وسط في باب صفات
الله بين أهل التعطيل الجهمية . وأهل التمثيل المشبهة » .

ولما رأى هذا الحاكم العدل تالوهم وتعصبهم . ورأى قلة المعاون
منهم والناصر . وخافهم قال : أنت قدصفت اعتقاد الامام أحمد . فنقول :
هذا اعتقاد أحمد ؟

يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه . فإن هذا
مذهب متبوع .

وغرضه بذلك : قطع محاصمة الخصوم .

فقلت له : ما جمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم . ليس للامام
أحمد اختصاص بهذا . والامام أحمد إنما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ
ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يحيي به الرسول ﷺ لم نقبله . وهذه
عقيدة محمد ﷺ .

وقلت مرات : قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين .
فان جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة التي اتني عليها النبي ﷺ . حيث
قال : « خير القرون : القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم » ثم الذين

يلونهم ^(١) » يخالف ما ذكرته فانا ارجع عن ذلك . وعليّ ان آتي
بنقول جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ما ذكرته : من الحنفية ،
والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والاشعرية ، وأهل الحديث ، وغيرهم .

رسالة من الامام الى اصحابه وتلاميذه

يدعوهم الى الصبر والهدوء

لقد ضج اصحاب الشيخ ابن تيمية وتلاميذه من سجنه في مصر
وساءهم هذا المصير بالمصلح والمجدد الاسلامي الكبير ، فأرسل اليهم الرسالة
التالية يدعوهم فيها الى السكينة والاعتصام بالصبر ، بما يدل على حسن
ادبه وبعد نظره وأخلاصه وحرصه على وحدة الكلمة وجمع الصف :

اما بعد ، فان الله — وله الحمد — قد انعم علي من نعمه ومننه الجسيمة ،
وآلائه الكريمة . ما هو مستوجب لعظيم الشكر ، والثبات على الطاعة ،
واعتماد حسن الصبر ، على فصل الأمور ، والعبد مأمور بالصبر في السراء
اعظم من الصبر في الضراء قال تعالى : (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ،
ثم نزعناها منه ، ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نهاء بعد ضراء مسته ، ليقولن
ذهب السيئات عني ، انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات ،
أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) ^(٢) .

وتعلمون ، ان الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن التي فيها من
اسباب نصر دينه ، وعلو كلمته ، ونصر جنده ، وعزة اوليائه ، وقوة

(١) رواه الامام احمد البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود « خير
الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء اقوام تسبق شهادة احدهم
يمينه ، ويمينه شهادته » .

(٢) سورة هود الايات (٩ ، ١٠ ، ١١) .

أهل السنة والجماعة ، وذل أهل البدعة والفرقة ، وتقدير ما قرر عندكم من السنة ، وزيادات على ذلك بانفتاح ابواب من الهدى والنصر ، والدلائل ، وظهور الحق ، لأمم لا يحصي عددهم الا الله تعالى ، واقبال الخلائق الى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن ، ما لا بد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وان كان صبرا في مرء .

وتعلمون ان من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فان الله تعالى يقول : (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم)^(١) ويقول : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)^(٢) ويقول : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم)^(٣) وامثال ذلك من النصوص التي تأسر بالجماعة والائتلاف ،

وتنهي عن الفرقة والاختلاف . وأهل هذا الاصل هم أهل الجماعة كما ان الخارجين عنه هم أهل الفرقة .

وجماع السنة طاعة الرسول . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابي هريرة : « ان الله يرضى لكم ثلاثا : ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وان تناصحوا من ولاه الله اموركم » وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود - فقهاء الصحابة - عن النبي ﷺ انه قال : « نصر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . ثلاث لا يغفل

(١) سورة الانفال الآية الاولى .

(٢) سورة آل عمران آية (١٠٣)

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٥)

عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ومناصحة ولاية الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من وراءهم» (١) . وقوله : «لا يقل» اي لا يحقد عليهن ، فلا يبغيض هذه الحصال قلب المسلم ، بل يحبهن ويرضاهن .

و اول ما ابدأ به من هذا الاصل ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم اني لأحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين — فضلاً عن اصحابنا — بشيء اصلاً ، لا باطنياً ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على احد منهم ولا لوم اصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والاحلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان كل بحسبه . ولا يخلو الرجل اما ان يكون مجتهداً مصيباً ، او مخطئاً ، او مذنباً ، فالاول مأجور مشكور ، والثاني مع اجره على الاجتهاد فعفو عنه مغفور له . والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المسلمين .

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الاصل كقول القائل : فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان اوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ، ونحو هذه الكلمات التي فيها خدمة لبعض الاصحاب والاخوان ، فاني لا اسمح من آذاهم من هذا الباب ، ولا حول ولا قوة الا بالله . بل مثل هذا يعود على قائله بالاسلام ، الا ان يكون له من حسنة ، ومن يغفر الله ان شاء ، وقد عفا الله عما سلف . وتعلمون ايضاً ان ماجرى من نوع تغليظ او تخشين على بعض الاصحاب والاخوان — مما كان يجري بدمشق ، وما جرى الآن بمصر — فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه ، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض ، بل هو بعدماعومل به من التغليظ والتخشين ارفع قدراً ، وانه ذكرراً ، و احب وأعظم . واما هذه الامور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح بها بعضهم ببعض ، فان المؤمن للمؤمنين كاللدين : تغسل احدهما الاخرى ، وقد لا

(١) رواه البزاز باسناد حسن

ينقلع الوسخ الابنوع من الحشونة ، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة
مايحمد معه ذلك التخشين .

وتعلمون انا جميعاً متعاونون على البر والتقوى : واجب علينا نصر
بعضنا بعضاً اعظم مما كان واشد . فمن رام ان يؤدي بعض الاصحاب
والاخوان — لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق او بمصر الساعة
أو غير ذلك — فهو الغالط . وكذلك من ظن ان المؤمنين ييخلون عما
امروا به من التعاون والتناصر فقد ظن ظن سوء (وان الظن لا يغني عن
الحق شيئاً) وما غاب عنا احد من الجماعة ، او قدم اليها الساعة او قبل
الساعة ، الا و منزلته عندنا اليوم اعظم مما كانت واجل وارفع .

وتعلمون رضي الله عنكم ان مادون هذه القضية من الحوادث
يقع فيها — من اجتهاد الآراء ، واختلاف الاهواء ، وتنوع احوال اهل
الايان ، وما لا بد منه من نزغات الشيطان — ما لا يتصور ان يعرى عنه
نوع الانسان ، وقد قال تعالى «وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» .
ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على
المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً (١) .

بل أنا اقول ماهو ابلغ من ذلك (٢) تنبيهاً بالادنى على الاعلى ،
وبالاقصى على الادنى : تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الاكاذيب
الافتراء والاغاليط المظنونة ، والاهواء الفاسدة ، وان ذلك امر يحل
عن الوصف ، وكل ما قيل من كذب وزور فهو — في حقنا — خيرو نعمة
قال تعالى (ان الذين جاءوا بالافك عصبه منكم ، لاحتسبوه شراً .

(١) آخر سورة الاحزاب

(٢) اي مما تقدم من كلامه عن اختلاف آراء الناس واهوائهم في مثل هذه

القضية وما هو دونها

لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي
تولى كبر منهم له عذاب عظيم) وقد اظهر الله من نور الحق وبرهانه ما رد
به افك الكاذب وبهتانه ، فلا احب ان ينتصر من احد بسبب كذبه علي
أوظلمه وعدوانه ، فاني قد احللت كل مسلم ، وانا احب الخير لكل
المسلمين ، واريد لكل مؤمن من الخير ما احبه لنفسه ، والذين كذبوا
وظلموا فهم في حل من جنتي . واما ما يتعلق بحقوق الله فان تابوا تاب الله
عليهم ، والا فحكم الله نافذ فيهم . فلو كان الرجل مشكوراً على سوء
عمله لكنت اشكر كل من كان سبباً في هذه القضية ، لما ترتب عليه من خير
الدنيا والآخرة ، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه واياديه
التي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . واهل القصد الصالح يشكرون
على قصدهم ، واهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، واهل السيئات
نسأل الله ان يتوب عليهم . وانتم تعلمون هذا من خلقي ، والأمر ازيد
بما كان واوكد ، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، وحقوق الله
عليهم هم فيها تحت حكم الله .

وانتم تعلمون ان الصديق الاكبر — في قضية الافك التي انزل الله
فيها القرآن — حلف لا يصل مسطح بن اثاثه ، لانه كان من الخائضين في
الافك ، فانزل الله تعالى (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ان يؤثوا
أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا
ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما نزلت قال ابو بكر :
« بلى والله ، اني لأحب ان يغفر الله لي » فاعاد الى مسطح النفقة التي
كان ينفق (١) .

(١) روى ذلك الامام احمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحهما ، عن
عائشة رضي الله عنها . وهذه الاخلاق الاسلامية لم تعرفها الانسانية الا في الاسلام واهله .

ومع ما ذكر من العفو والاحسان ، وامثاله واضعافه ، فالجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة امر لا بد منه (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه : أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليهم . انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما .

اخرجه من سجن الاسكندرية

لما دخل السلطان الناصر الى مصر بعد خروجه من الكرك ، وقدمه الى دمشق ، وتوجه منها الى مصر - وكان قدومه اليها يوم عيد الفطر ، من سنة تسع وسبعائة - فقد احضار الشيخ من الاسكندرية في اليوم الثامن من شوال .

وخرج الشيخ منها متوجها الى مصر ، ومعه خلق من اهلها يودعونه ويسألون الله ان يرده اليهم . وكان وقتا مشهودا .

ووصل الى القاهرة يوم الجمعة الرابع والعشرين منه . واكرمه وتلقاه في مجلس ، حفل فيه قضاة المصريين والشاميين والفقهاء . واصلح بينه وبينهم .
قال بعض اصحابنا : (١)

أخبرك بأمر عجيب ، وقع من السلطان في حق الشيخ تقي الدين ، وذلك حين توجه السلطان الى الديار المصرية ، ومعه القضاة والاعيان ، وفائب الشام الأفرم .

(١) العقود الدرية من ٢٧٩

فلما دخل الديار المصرية وعاد الى مملكته ، وهرب سلاور والشنكيور ، واستقر أمر السلطان ، جلسا يوما دست السلطنة وأبهة الملك ، واعيان الامراء من الشاميين والمصريين حضور عنده ، وقضاة مصر عن يمينه ، وقضاة الشام عن يساره - وذكر لي كيفية جلوسهم منه ، كحسب منازلهم - قال : وكان من جملة من هناك ابن مصري ، عن يسار السلطان ، وتحت الصدر علي قاضي الحنفية ، ثم بعده الخطيب جلال الدين ، ثم بعده ابن الزملكاني . قال : وأنا الى جانب ابن الزملكاني . والناس جلوس خلفه ، والسلطان على مقعد مرتفع ، فبينما الناس على ذلك جلوس اذ نهض السلطان قائماً ، فقام الناس ، ثم مشى السلطان ، فنزل عن تلك المقعدة ، ولا يدري ما به . واذا بالشيخ تقي الدين ابن تيمية - رحمه الله - مقبل من الباب والسلطان قاصد اليه ، فنزل السلطان عن الايوان . والناس قيام . والقضاة والامراء والدولة . فتسلم هو والسلطان وتكارشا ^(١) . وذهبا الى صفة في ذلك المكان ، فيها شباك الى بستان ، فجلسا فيها حيناً ثم أقبلا - ويد الشيخ في يد السلطان - فقام الناس . وكان قد جاء في غيبة السلطان تلك : الوزير فخر الدين بن الخليل ، فجلس عن يسار السلطان فوق ابن مصري . فلما جاء السلطان جلس على مقعده . وجاء الشيخ تقي الدين فجلس بين يدي السلطان على طرف مقعده متربعا .

فشرع السلطان يثني على الشيخ عند الامراء والقضاة بثناء ماسمته من غيره قط . وقال كلاماً كثيراً . والناس تقول معه ، ومثله القضاة والامراء .

وكان وقتاً عجيباً . وذلك مما يسوء كثيراً من الحاضرين من ابناء جنسه .

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : وتارا

وقال في الشيخ من الشناء والمبالغة مالا يقدر أحد من أخص اصحابه
أن يقوله .

خروج الشيخ الى الشام مع الجيش المصري

ثم توجه الامام ابن تيمية الى الشام ، صحبة الجيش المصري قاصداً
الغزاة . فلما وصل معهم الى عسقلان توجه الى بيت المقدس ، وتوجه منه
الى دمشق ، وجعل طريقه على عجلون وبعض بلاد السواد . وزرع .
ووصل الى دمشق في اول يوم من شهر ذي القعدة سنة اثني عشرة وسبع مائة .
ومعه اخواه وجماعة من اصحابه . وخرج خلق كثير لتلقيه . وسروا
سروراً عظيماً بمقدمه وسلامته وعافيته .
وكان مجوع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع .

من محراب العلم الى ميدان القتال

لقد جاء التتار الى الشام سنة ٦٦٩ وهزموا عساكر الناصر بن
قلاوون ، شذر مذر بعد ان ابلى الجميع بلاء حسناً ولكن كان امر الله
قدراً مقدوراً ، فولى جند مصر والشام الادبار ، واجتازوا دمشق فارين
الى مصر وصار جند التتار على ابواب دمشق واهلها في ذعر . وفقر كثيرون
من اعيان العلماء الى مصر كقاضي الشافعية امام الدين ، وقاضي المالكية
الزواوي ، وغيرهم من كبار العلماء وكبار الرجال ، حتى صار البلد شاغراً
من الحكماء وكبار رجال الدين .

ولكن عالماً واحداً بقي مع العامة ، فلم يفر ولم يخرج ، لان له قلباً
يحول بينه وبين الفرار ^(١) وله شعور يمنعه من ان يترك العامة من غير

«١» ابن كثير ص ٩ ج ١٤

مواس في هذه البشياء ، وله دين يمنع من ان يترك امور الناس فوضى
لاحاكم يردع ، ولا نظام يمنع ، فقد ساد السلب والنهب ، حتى ان
المحبوسين من الشطار والسراق خرجوا من الحبس ، وكانوا قريباً من
ماتى رجل ، فنهبوا ما يقدرون عليه ، وهكذا غيرهم من اهل الشطارة
والدعارة (١).

جمع ابن تيمية اعيان البلد ، واتفق معهم على ضبط الامور وان يذهب
على رأس وفد منهم يخاطبون ملك التتار في الامتناع عن دخول دمشق .

وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقازان (٢) ملك التتار
وقائدهم ، وقد كسا الله الشيخ حلة من المهابة والايمان والتقى ، واقد
قال احد الذين شاهدوا اللقاء « كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث
السلطان بقول الله ورسوله في العدل ، ويرفع صوته ، ويقرب منه . . .
والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، صغ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه
وان السلطان من شدة ما اوقع الله في قلبه من الهيبة والمحبة سأل من هذا
الشيخ ؟ اني لم ار مثله ، ولا اثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ،
ولا رأيتني أعظم انقيادا لاحد منه ، فاخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم
والعمل » (٣).

وما خاطبه عن طريق الترجمان : « قل للقازان انت تزعم انك
مسلم ؟ ومعك قاضي وامام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، وابوك وجدك
كانا كافرين ، وما عملاً الذي عملت ، عاهداً فوقياً ، وانت عاهدت ففدرت

(١) ابن كثير ص ٩ ج ١٤

(٢) « هو رابع ملك مسلم منهم ، وقد توفي سنة ٧٠٣ »

(٣) « القول الجلي في ضمن مجموعة من المناقب ص ١٦٢ »

وقلت فما وفيت ، وجرت . ثم خرج بعد هذا القول من عنده معزراً
مكرماً بحسن نيته ^(١) .

انتجت هذه المقابلة خيراً وان كان محدوداً ، لقد اجل دخول
دمشق الى حين ، وأمن الناس وزال فرعهم فقد وعده قازان خيراً ،
واعلن الامان وطيف بنشوره في البلد من اقصاه الى اقصاه ، ولكن
طلب من الاهلين تسليم السلاح والخيول والاموال الخبوءة ، وبعد ثمانية
ايام كثر عبت الجند خارج المدينة ، فالتفوا الزرع والضرع ، فقلت
الاقوات ، وحاول احد الذين كانوا في خدمة ملوك مصر ومالاً التتار -
ان يحمل حماة قلعة دمشق على تسليمها ، فامتنعوا بتحريض ابن تيمية الذي
كان ملاذ الناس في تلك الحنة الشديدة ، ولكن اندفع الجند مع بعض
طوائف الباطنيين من بعد ذلك في الصالحية يعيشون فيها فساداً ، وحرقوا
بعض مساجدها ، وقتلوا وسبوا من نساء المسلمين ، وهم يذكرون انهم
مساؤون ، وبلغ الناس انهم داخلون دمشق لاحالة .

«١» القول الجلي ص ١٦٢ . وقد جاء فيه ايضاً : « انهم لما حضروا مجلس
قازان قدم لهم الطعام فاكلوا منه الا ابن تيمية ، فقيل له لماذا لا تأكل ؟ فقال : كيف
أكل من طعامك ، وكله مما نهيت من اغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من اشجار
الناس .. ولقد طلب منه قزان الدعاء له ، فقال في دعائه : « اللهم ان كنت تعلم
انه انما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وجاهد في سبيلك فأنت تؤيده وتنصره ، وان
كان للملك والدينا والنكاث فأنت تفعل به وتصنع » فكان يدعو وقازان يؤمن على
دعائه ، ونحن نجتمع ثيابنا خوفاً من ان يقتل فيطرطس بدمه ، ثم لما خرجنا قلنا له
كدت تهلكنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال : وانا لا اصحبكم فانطلقنا عصبه ،
وتأخر ، فتسامعت به الخواتين والامراء فأتوه من كل فج ، وصاروا يتلاحقون به -
فليتركوا برؤيته ، فما وصل الا في ثلاثمائة فارس في ركابه . واما نحن فخرج علينا
جاعة فشحونا » .

خرج ابن تيمية مرة ثانية لمقابلة قازان ، ولكن حجبته عنه
الوزراء ، وقد وعد بأن المدينة لا يدخلها التتار . ولكنهم دخلوها وعاثوا
فيها فسادا ، ثم خرجوا من بعد ، وكان لابن تيمية مسعى حميد في استنقاذ
الاسرى ، وفك اسارهم ، ثم ترك التتار الشام ، ونسجل هنا ان ابن
تيمية عندما فك الاسارى ، فك اسارى الازميين ^(١) مع اسارى المسلمين .
ولكن في سنة ٧٠٠ تسامع الناس ان التتار سيقصصون الشام ،
وانهم عازمون على دخول مصر ، فأخذ الاهلون يفرون كالمرء الاولى
وهم في هذه المرة يفرون على السماع ، وكانوا في الاولى يفرون عند
العيان .

ولكن ابن تيمية الذي عالج التتار بالسلم في الماضي ، اذ لم يستطع
ان يشن عليهم الحرب لخور العزيمة ، ولانهم كانوا اصحاب العناد والعدة ،
ولانهم كانوا قد غزوا الديار في عقرها ، فتمكنوا من الرقاب ، ولان
كان يحسبهم مسلمين غير بغاة . أما الان وقد بدت حالهم وفي الوقت فرصا
فلم ينتظر الديئة ، بل اراد ان يتقدم للميدان بالسيف لا بالقول ، فجلس
في اليوم الثاني من صفر من هذه السنة ، والجموع تستمع اليه لانه رجل
وقائدها ، ولم يلق عليهم في هذه المرة درسا في الوعظ المجرد ، بل القى عليهم

(١) وتفصيل ذلك ما كتبه في الرسالة القبرصية خطابا للرجوان ملك قبرص
قال : « وقد عرف النصارى كلهم اني لما خاطبت التتار في اطلاق الاسرى ، وأطلقهم
قازان وقطوشاه . وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن
معنا نصارى اخذناهم من القدس ، هؤلاء لا يطلقون ، قلت له : بل جميع من معك
من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفتكهم ولا ندع أسيرا لا من أهل
الملة ولا من أهل الذمة ، واطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا علمنا واحساننا ،
والجزاء على الله . وكذلك السبي الذي بين ايدينا من النصارى يعلم كل احد
احساننا ورحمتنا ورافقتنا بهم كما اوصانا خاتم النبيين » .

قولا في الجهاد ، فساق الآيات والاحاديث الواردة في الجهاد ، ونهى عن
الاسراع في الفرار ، ورغب في انفاق المال في الذب عن المسلمين وبلادهم
واموالهم ، وبين لهم ان ما ينفقونه في الحرب ، وما يضيع منهم بسببه اذا
انفق في سبيل الله كان خيراً ، واوجب جهاد التتار في هذه المرة ، لان
الحرب انفى للحرب ، ولانه لا جدوى في سلمهم . وتابع المجالس في ذلك ،
ونودي في البلاد ألا يسافر احد الا بمرسوم ، فتوقف الناس عن السير
وسكن جأشهم . وابن تيمية لا يكتفي بالمجالس يعقدها ويخطب ، بل
يكتب الكتب بالحجج الواضحة ^(١) ويرسلها الى الناس حتى اطمأنوا .

وزادهم استيثاقاً واطمئناناً ان السلطان الناصر بمصر قد اعتزم
الخروج ، وان عساكره اللجبة مقبلة تحمي الذمار ، وتدافع عن الديار .
ولكن عاد الذعر وعاد الاضطراب لما بلغهم المرجفون ان التتار
قد وصلوا الى حلب ، وبلغهم في الوقت نفسه ان السلطان ناصر الدين
قد قفل راجعاً الى مصر .

تلقت الناس في دعرهم لافرق بين حاكم ومحكوم الى البطل المؤمن
القومي تقي الدين بن تيمية ، فخرج الى جند الشام يحثهم على القتال
ويدفعهم الى الميدان ، ووعدهم بالنصر والظفر ، وتلا قوله تعالى : « ومن
عاقب بثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور » .

وقد طلب اليه الامراء ونائب السلطنة ان يركب الى مصر على البريد
ليستحث السلطان على المجيء ، ولكنه لم يصل الى السلطان الا وقد عاد
الى القاهرة بعسكره راضياً من الغنيمة بالاياب . وانتثر الجند المجموع ،
وتفارت الحال ، فتقدم البطل الورع ، واستحث السلطان وامراءه على
اعداد العدة وجمع الجند . وقال في حدة وغلظة قوله الحق والمصلحة :

(١) ارجع الى العقود الدرية ص ١٢٠ ففيها رسالة طويلة في الحث على الجهاد .

« ان كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته افناله سلطاناً يحوطه ويحميه ، ويستغله في زمن الامن » . ثم قال : « لو قدر انكم لستم حكامه ولا ملوكه واستنصركم اهله وجب عليكم النصر ، فكيف وانتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وانتم مسؤولون عنهم » ثم قوي جأش الامراء . وما زال بهم حتى خرج السلطان بجنده الى الشام (١) .

ولكن ابن تيمية وقد ترك دمشق استولى عليها الذعر ، اذ قد اشتدت الاراحيف . ونادى منادي التردد والهزيمة بالفرار ، فنادى والي المدينة بأن من قدر على شيء فليخرج ، ولكن عاد ابن تيمية اليهم قبل ان يحسبوا ذلك الناعب نعيب اليوم ، فعادت القلوب الى جنوبها ، واتاهم الامن من ثلاث نواح ، فابن تيمية قد عاد اليهم وهو آمنهم وملاذهم ، وتأكدوا اقبال جند السلطان ، ثم تأكد لديهم أمر آخر ، وهو ان التتار قد عادوا من عامهم هذا ، لما احسوا بأن خصومهم قد اعدوا العدة وأخذوا الأهبّة ، ولاحظوا ضعفاً في انفسهم ، ولم يتقدموا وهم على هذا الضعف .

عاد ابن تيمية الى درسه وعلمه ، وهو لم يفارقه ، في الجملة الا بالقدّر الذي كان يضطر اليه في مقابلات الملوك والسلاطين ومخاطبة الجموع والجنود ، وان هذه المحنة التي نزلت بدمشق اظهرت ابن تيمية بطلها ورجلها ، لاعلمها فقط ، ولعل العلم يشار به فيه غيره بقدر ، ولكن في مواقفه هذه لم يشار به احد ، وقد تمكنت اقدامه بهذا في الدولة وعند العامة . وما مكنتها الاهمته وشجاعته ، وصبره وایمانه بالحق والفضيلة فوق علمه .

ولقد أقام الفضيلة والاخلاق عندما صار رجل دمشق ، وحاكمها غير المتوج عندما فر حكامها في سنة ٦٩٩ ، واصبح انكار المنكر حقاً عليه

« ١ » راجع في هذه الاخبار كلها البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ١٥

بالفعل لا بالقول والقلب ، اذ صار مبسوط اليد والسلطان فيها ، فقد رأى الخانات والجنود فأخذ هو وصحبه ، وقد صاروا حكام الساعة ، فحطموا واني الحجر ، وشقوا قرايها ، وارقوا الجنود ، وعزروا اصحاب^(١) الخانات المتخذة للفواحش . فلقى ذلك من العامة ترحابا ، اذ رأوا حكم القرآن اينفذ ، وعهد الرسول يعود .

واذا عز عليه ان يقيم الحقوق بقوة الحكم اقامها بقوة الاقتناع وهو لها أملك ، وعليها أقدر ، فان جند التتار عندما دخلوا مدينة دمشق سنة ٦٩٩ وعاثوا بها فسادا ، اتصل بهم سكان الجبال وما لشوهم ، فخرج اليهم ابن تيمية لقنالمهم فجاءه رؤساءهم مسترشدين مستهدين ، فوعظهم واستنابهم ، وبين الصواب لهم ، والتزموا برد ما كانوا قد اخذوا من مال الجيش ، وقرر عليهم اموالا كثيرة يحملونها الى بيت المال ، واقطعت اراضيهم وضياهم ، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ، ولا يلتزمون الملة ، ولا يدينون دين الحق ، ولا يجرمون ما حرم الله ورسوله^(٢)

انتهت المحنة ولابن تيمية سلطان من الحكم ، ويظهر انه بعد ان زالت المحنة لم يسحب منه ذلك السلطان الذي اكتسبه بقوة الحق ، وقوة الخلق ، وقوة العلم ، فقد كان مرجع الحسكام مع انه ليس له منصب رسمي يؤهله للحكم فليس قاضيا ولا واليا ، ولكن سودته مواهبه وهمة وعلمه . ففي شهر جمادى الآخرة من سنة ٧٠١ عقد مجلس لبعض اليهود ، وألزموا بأداء الجزية اسوة بامثالهم من اليهود والنصارى ، فاحضروا كتابا يزعمون ان من رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم ، فلما وقف الفقهاء

١ « الكتاب المذكور ص ١١

(٢) الكتاب المذكور ص ١٩

عليه تبينوا انه مكذوب مفتعل لما فيه من الالفاظ الركيكة واللعن
الفاحش ، وقد جاء لهم ابن تيمية وبين لهم خطاهم وكذبهم وان الكتاب
مزور مكذوب ، فانابوا الى اداء الجزية .

ولقد كان ابن تيمية يقيم بعض الحدود بهذا السلطان فثار جماعة
من حساده وشكوا منه انه يقيم الحدود ويعزر ويخلق رؤوس الصبيان ،
وتكلم هو أيضاً فيمن يشكون منه ، وقد اقر الوالي عمل ابن تيمية
وسكنت الفتنة عند هذا الحد (١)

كانت تلك المنزلة الرفيعة التي نالها ابن تيمية مثيرة لحسد الحساد ،
وحقد الحاقدين . ولم يجدوا السبيل لان ينقثوا سم حقدهم عند الامراء ،
لان العدو يهددهم ، وقد علمت منزلة ابن تيمية وقت ان يجد الجدد ، ويشدد
الامر ، وتتأزم الاحوال ، فارادوا ان يكيدوا له من هذه الناحية ،
ليكون الكلام اوقع ، ولعله ينال استماعاً .

فقد جاء الى نائب السلطنة كتاب فيه ان ابن تيمية ومعه غيره من
العلماء والافراد والخواص يناصحون التتار ويكتبونهم ، ويؤيدون من
يائثهم ، ولكن تبين نائب السلطنة باذى الرأي انه مفتعل ، وتحري عن
واضعه ، ولم يحتج الى التحري عن حقيقته ، فعرف كاتبه وعزر تعزيراً
شديداً . وقطعت يد كاتبه (٢)

(١) راجع في هذه الاخبار كلها البداية والنهاية

(٢) ومن شجاعته ما حكاه في الكواكب قال : لما وشوا به الى السلطان
الاعظم الملك الناصر لدين الله واحضره بين يديه قال من جملة كلامه اني اخبرت انك
قد اطاعك الناس ، وان في نفسك اخذ الملك فلم يكثر به ، بل قال له بنفس مطمئنة
وقلب ثابت ، وصوت عال سمع كثير ممن حضر : انا افضل ذلك ؟ والله ان ملكك وملك
المل لا يساوي عندي فلسا . فتبسم السلطان لذلك ، واجابه في مقابلته بما اوقع الله
له في قلبه من الهبة المظلمة : انك والله لصادق وان الذي وشى بك الي لكاذب ،

جاء التتار بجمعهم الى انشام سنة ٧٠٢، وساوروا دمشق، وارجف
المرجفون، وخرجت القلوب من جنوبها، واستعدت الجيوش المصرية
والشامية لملاقاتها، وقد اخذ دعاة التردد والهزيمة ينشرون الفرع في قلوب
الناس، ولكن تحالف العلماء والقضاة والامراء على ان يلاقوا العدو،
ولا يفروا من دمشق، وابن تيمية يثبت القلوب ويعددهم بالنصر متأولا
قوله تعالى مؤمناً به «ومن بغى عليه لينصرنه الله» حتى انه ليقول حالفاً
بالله: «أنكم لمنصورون» فيقول له بعض الامراء قل ان شاء الله، فيقول
اقولها تحقيقاً لاتعليقاً.

اطمأنت القلوب وسكنت، ولكن دعاة الهزيمة اتوا الناس من
ناحية اخرى، من ناحية الدين، كيف نقاتل المسلمين؟! ان ذلك ليس
بجلال، يقولون تلك المقالة كأنهم مهاجمون وليسوا مدافعين عندئذ يتقدم
ابن تيمية مبيناً الحقيقة الدينية في تلك القضية، فيقول: «هؤلاء الخوارج
الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا انهم احق بالامر منها، وهؤلاء
يزعمون انهم احق باقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم
متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو اعظم منه باضعاف
مضاعفة». ثم قال لهم: «اذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف
فاقتلوني».

حرك ابن تيمية النخوة في القلوب، وسكن جاش السكان، ثم
امتطى صهوة جواده، وخرج الى ميدان القتال محارباً، فما كان لمثله ان
يدعو الى الثبات في الجهاد وهو ينكص على عقبيه، بل يتقدم الجموع،

واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه نكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة
ما يلقي اليه من حقه من اقاويل الزور والبهتان، من ظاهر حاله العدالة، وباطنه
مشحون بالفسق والجهالة.

وذهب الى مرج الصفر قريباً من دمشق ، وابتدأت الموقعة التي تسمى في التاريخ موقعة شقحب في رمضان سنة ٧٠٢ . وتلاقى الجمعان ، ووقف الفارس الجريء موقف الموت مقاتلاً ، وهو يشب قلوب من حوله قتاله وفعاله ، وقد التقى قبل أن يقف موقفه من القتال بالسلطان يحشه بوجنده على الجهاد في سبيل الله واحقاق الحق ، ورد المعتدين ، وكان قد بلغه أنه كاد يرجع ، فسأله السلطان أن يقف معه في المعركة فقال : « السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لانقف إلا معهم » وقد حث الجند وامراءهم على الافطار ليتقوا على القتال ، وكان يروي لهم قوله ﷺ للصحابه في غزوة الفتح : « انكم ملاقو العدو والفطر أقوى لكم » وكان يدور على الاجناد والأفراد يأكل امامهم من شيء معه ليبين لهم أن افطارهم ليقوا على القتال افضل .

وقعت الواقعة واشتد القتال واشترك فيه ابن تيمية ، ووقف هو وأخوه موقف الموت ، وابلى بلاء حسناً . وصدق أهل الشام وجند مصر القتال ، وقد استمر طول اليوم الرابع من رمضان ، حتى اذا جاء العصر ظهر جند مصر والشام ، وانحسر جند التتار ، فلبجأوا الى اقتحام الجبال والتلال ، وجند السلطان الناصر - أو بالاحرى جند ابن تيمية - وراءه يضربون اقفيتهم ، ويرمونهم عن قوس واحدة ، حتى انبلج الفجر ، وقد انكشفت الغمة ، وزال خطر التتار من بعدها ، وكانت ثاني مرة يمتنون فيها بالهزيمة ، وآخر مرة يغيرون^(١) ، وقد كانوا يخاف الشرق والغرب . وقد كانت غاراتهم العنيفة من اقدم العصور اشبه بهزات الطبيعة العنيفة التي تغير وجه الارض ، كما قال جيبون . فقد قال في تصوير هول الغارات التي

(١) ابن تيمية : للاستاذ محمد ابي زهرة

يشنونها : « ان بعض سكان السويد قد سمعوا عن طريق روسيا نبأ ذلك الطوفان المغولي ، فلم يستطيعوا أن يخرجوا كمعادتهم للصيد في سواحل انكلترا خوفاً من الغول (١) !! »

شجاعة الشيخ وبأسه عند القتال

ودخل بعد مدة جيش الاسلام المنصور دمشق المحروسة . والشيخ في اصحابه شاكياً سلاحه ، داخلاً معهم ، عالية كلمته ، قائمة حجته ، ظاهرة ولايته ، مقبولة شفاعته ، مجابة دعوته ، ملتزمة بروكته ، مكرماً معظماً ، ذا سلطان وكلمة نافذة . وهو مع ذلك يقول للمداحين له : أنا رجل ملة لا رجل دولة !

ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين . أمير من أمرائهم ، ذو دين متين ، وصدق لهجة معروفة في الدولة قال (٢) :

قال لي الشيخ - يوم اللقاء ونحن بمرج الصفر . وقد تراءى الجمعان - :
فلان . اوقفني (٣) موقفة الموت

قال : فسقته إلى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم .

(١) وفي الحقيقة ان شيخ الاسلام ابن تيمية لم يكن بجهاده قد انتقد العالم العربي والاسلامي فحسب من شر التتار ، بل انتقد الغرب ايضاً الذي كان يشعر بالخطر كما قال جيون . ونجا الحضارة الانسانية من الدمار ! بينما فر كثير من الادعياء التمشيخين من دمشق الى مصر لما اشتد وطيس المعركة وفر بسببهم كثير من العامة تاركين دمشق مفتوحة للعدو !! وهكذا كانوا يظهرون شجاعتهم في محاربة المصلحين وجبنهم في محاربة العدو والمستعمر فيا للعار والشار .
اسد علي وفي الحروب نعمة فتحاء تنفر من صغير الصافر

« ٢٠٢ »

(٢) المقود الدرية ص ١٧٧

(٣) بالاصل « يا فلان ، الدين اوقفني » والظاهر ان كلمة « الدين » زائدة

ثم قلت له : ياسيدي ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو ، قد أقبل
تحت هذه الغيرة المنقذة . فدونك وما تريد .

قال : فرفع طرفه الى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفثيه
طويلا ، ثم انبعث وأقدم على القتال . وأما أنا فخيل اليّ أنه دعا عليهم
وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة .

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وماعدت رأيته ، حتى فتح
الله ونصر ، وانحاز التتار الى جبل صغير ، عصموا نفوسهم به من سيوف
المسلمين تلك الساعة . وكان آخر النهار .

قال : واذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضا على
القتال ، وتحويفا للناس من الفرار .

فقلت : ياسيدي ، لك البشارة بالنصر ، فإنه قد فتح الله ونصر ،
وهامم التتار محصورون بهذا السفح ، وفي غد ، ان شاء الله تعالى ، يؤخذون
عن آخرهم .

قال : فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ودعاني في ذلك
الموطن دعاء وجدت بر كته في ذلك الوقت وبعده .

محاربة شيخ الاسلام للباطنيين

ثم لم يزل الشيخ بعد ذلك على زيادة في الحال والقال والجاه ، والتحقيق
في العلم والعرفان ، حتى حرك الله سبحانه عزمات نفوس ولالة الأمر لقتال
أهل جبل كسروان . وهم الذين بغوا وخرجوا على الاسام ، وأخافوا
السبل ، وعارضوا المارين من الجيش بكل سوء .

فقام الشيخ في ذلك أتم قيام . وكتب الى أطراف الشام في الحث على قتال المذكورين . وانها غزاة في سبيل الله .

ثم تجهز هو بمن معه لغزوهم بالجبل ، صحبة ولي الأمر نائب المملكة المعظمة أعز الله نصره ، والجيوش الشامية المنصورة . وما زال مع ولي الأمر في حصارهم وقتالهم ، حتى فتح الله الجبل ، وأجلى أهله . وكان من أصعب الجبال ، وأشقها ساحة ، وكانت الملوك المتقدمة لاتقدم على حصاره مع علمها بما عليه من البغي والخروج على الأمام والعصيان ، وليس الا لصعوبة المسلك ، ومشقة النزول عليهم .

وكذلك لما حاصروهم (بيدرا) بالجيش ، رحل عنهم ، ولم ينل منهم منالا ، لذلك السبب ، ولغيره . وذلك عقيب فتح قلعة الروم ، ففتحه الله على يدي ولي الأمر ، نائب الشام المحروس ، أعز الله نصره . وكان فتحه أحد المكرمات والكرامات المعدودة للشيخ ، لسببين على مايقوله الناس :

أحدهما : لكون أهل هذا الجبل بغاة باطنيين سبابة تعين قتالهم . والثاني : لأن جبل الصالحية لما استولى الباطنيون عليه ، في حال استيلاء الطاغية قازان . أشار بعض كبرائهم بنهب الجبل ، وسبي أهله وقتلهم ، وتحريق مساكنهم ، انتقاماً منهم لكونهم سنية ! ومماهم ذلك المشير : نواصب . فكان ما كان من أمر جبل الصالحية بذلك القول ، وتلك الإشارة .

قالوا : فكوفئ الباطنيون بمثل ذلك ، بإشارة كبير من كبراء أهل السنة وزناً بوزن ، جزاء على يد ولي الأمر ، وجيوش الاسلام . والمشير المذكور : هو الشيخ المشار اليه .

ولما فتح الجبل وصار الجيش بعد الفتح الى دمشق المحروسة عكف
خاص الناس وعامهم على الشيخ بالزيارة والتسليم عليه ، والتهنئة بسلامته
والمسألة له منهم عن كيفية الحصار للجبل ، وصورة قتال أهله ، وعمما
وقع بينهم وبين الجيوش من المراسلات وغيرها فحكى الشيخ ذلك .
وكان توجه الشيخ تقي الدين - رضي الله عنه - الى الكسر وانين
في مستهل ذي الحجة من سنة أربع وسبعائة ، وصحبته الأمير قراقوش .
وتوجه نائب السلطنة ، الأمير جمال الدين الأفرم ، بمن تأخر من
عسكر دمشق اليهم ، لغزوهم واستتصالحهم في ثاني شهر المحرم من سنة
خمس وسبعائة . وكان قد توجه قبله العسكر ، طائفة بعد طائفة في ذي الحجة .
وفي يوم الخميس سابع عشر وصل النائب والعسكر معه الى دمشق
بعد أن نصرهم تعالى على حزب الضلال من الباطنيين واصحاب العقائد
الفاصلة ، وأبادهم الله من تلك الارض . والحمد لله رب العالمين .

رسالة الشيخ الى السلطان الملك الناصر

يشرح فيها خطو الباطنيين ويحضه على تثقيفهم ثقافة اسلامية صحيحة !

بما يدل على شدة وعيه وعظيم تفكيره !

ثم ان الشيخ رحمه الله - بعد وقعة جبل كسروان - ارسل رسالة
الى السلطان الملك الناصر ، يذكر فيها ما أنعم الله على السلطان وعلى أهل
الاسلام ، بسبب فتوح الجبل المذكور ، ويبين خطر الباطنيين ووجوب
تعليمهم الاسلام وهذه هي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من الداعي أحمد بن تيمية الى سلطان المسلمين ، ومن أيد الله في

دولته الدين وأوعز بها عباده المؤمنين ، وقمع فيها الكفار والمنافقين
والخوارج المارقين ، نصره الله ونصر به الاسلام ، وأصلح له وبه أمور
الخاص والعام ، وأحى به معالم الأيمان ، وأقام به شرائع القرآن ، وأذل
به أهل الكفر والفسوق والعصيان .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فانا نحمد اليكم الله الذي لا اله الا
هو ، وهو على كل شيء قدير . ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين ، وامام
المتقين محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

أما بعد ، فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ،
وهزم الأحزاب وحده وأنعم الله على السلطان ، وعلى المؤمنين في دولته
نعماً لم تعهد في القرون الخالية ، ووجدد الاسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته
على الدول الماضية ، وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق ، أفضل
الأولين والآخرين ، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين ، والله
تعالى يوزعه والمسامين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين ، ويتمها
بتمام النصر على سائر الاعداء المارقين .

وذلك : أن السلطان - اتم الله نعمته - حصل الامة بينم ولايته
وحسن نيته ، وصحة اسلامه وعقيدته ، وبركة ايمانه ومعرفته ، وفضل
همته ، وشجاعته ، وثرة تعظيمه للدين وشرعته ، ونتيجة اقباعه لكتاب
الله وحكمته ، وما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما
كان يقصده أكابر الأئمة العادلين : من جهاد اعداء الله المارقين من الدين ،
وهم صنفان :

أهل الفجور والطغيان ، وذوو الغي والعدوان ، الخارجون عن
شرائع الايمان ، طلباً للعلو في الأرض والفساد ، وتركاً لسبيل الهدى

والرشاد . وهؤلاء هم التتار ، ونحوهم من كل خارج عن شرائع الاسلام
وان تمسك بالشهادتين ، أو ببعض سياسة الاسلام .

والصنف الثاني : أهل البدع المارقون ، وذوو الضلال المنافقون ،
الخارجون عن السنة والجماعة ، المارقون للشرعة والطاعة ، مثل هؤلاء
الذين غزوا بأمر السلطان من أهل الجبل ، والجرد ، والكسروان . فان
ما من الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام ، هو من عزائم الأمور
التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الاسلام .

وذلك : أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين .
فان اعتقادهم : ان ابا بكر وعمر وعثمان ، وأهل بدر ، وبيعة
الرضوان وجمهور المهاجرين والانصار ، والتابعين لهم باحسان ، وأئمة
الاسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ، ومشايخ الاسلام وعبّادهم
وملوك المسلمين وأجنادهم ، وعوام المسلمين وأفرادهم . كل هؤلاء عندهم
كفار مرتدون ، أكفر من اليهود والنصارى ! لأنهم مرتدون عندهم ،
والمرتد شر من الكافر الأصلي . ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على
أهل القرآن والايمان !

ولهذا لما قدم التتار الى البلاد ، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى
من الفساد ، وأرسلوا الى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل ، وحملوا
راية الصليب ، وحملوا الى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وامرأهم
ما لا يحصى عدده الا الله ، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه
المسلمين والخيول والسلاح لأهل قبرص ، وفرحوا بمجيء التتار ، وهم وسائر أهل
هذا المذهب ، مثل أهل جزين ، وما حوالها ، وجبل .. ونواحيه ^(١) .

(١) وقد تعاونوا مع هؤلاء الكووالصليبيين على الجيوش الاسلامية ، وهم المسمون بالحشاشين

ولما خرجت العساكر الاسلامية من الديار المصرية ، ظهر فيهم الخزي
والنكال ما عرفه الناس منهم . ولما نصر الله الاسلام النصر العظمى عند
قدوم السلطان ، كان بينهم شبيه بالعرء !!

كل هذا وأعظم منه ، عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم
الاسباب في خروج جنكسخان الى بلاد الاسلام ، وفي استيلاء هولاء
على بغداد ، وفي قدومه الى حلب ، وفي نهب الصالحية ، وفي غير ذلك
من انواع العداوة للاسلام واهله .

لان عندهم ان كل من لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد ؟
ومن استحل الفقاع ^(١) فهو كافر ، ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر ،
ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر ، ومن احب أبا بكر أو عمر ، أو عثمان ،
أو ترضى عنهم أو عن جماهير الصحابة فهو عندهم كافر ، ومن لم يؤمن
بمنتظرهم فهو عندهم كافر .

وهذا المنتظر صبي عمره سنتان أو ثلاث ، أو خمس ، يزعمون أنه
دخل السرداب بسامرا من اكثر من اربعمائة سنة . وهو يعلم كل شيء .
وهو حجة الله على أهل الأرض . فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر . وهو
شيء لا حقيقة له ، ولم يكن هذا في الوجود قط .

وعندهم من قال : ان الله يُرى في الآخرة فهو كافر . ومن قال :
ان الله تكلم بالقرآن حقيقة فهو كافر . ومن قال : ان الله فوق السموات
فهو كافر . ومن آمن بالقضاء والقدر وقال : ان الله يهدي من يشاء ويضل
من يشاء ، وان الله يقلب قلوب عباده ، وان الله خالق كل شيء ، فهو

(١) في القاموس : « الفقاع » كرمان . هذا الذي يشرب . سمي به لما يرتفع
على رأسه من الزبد

عندهم كافر . وعندهم أن من آمن بحقيقة أسماء الله وصفاته التي أخبر بها
في كتابه وعلى لسان رسوله ، فهو عندهم كافر !

هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم ، مثل بني العود . فانهم
شيوخ أهل هذا الجبل . وهم الذين كانوا يأمرهم بقتال المسلمين ،
ويقتونهم بهذه الأمور .

وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود
وغيره . وفيها هذا وأعظم منه . وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علموهم
وأمروهم لكنهم مع هذا يظهرون التقية والنفاق . ويتقربون ببذل الأموال
الى من يقبلها منهم ! وهكذا كان عادة هؤلاء الجبلية . فأنما
أقاموا يجلبهم لما كانوا يظهرونه من النفاق ، ويبدلون من البرطيل لمن
يقصدهم .

والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة ، ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا
مثله . ولهذا كثر فسادهم ، فقتلوا من النفوس ، وأخذوا من الأموال ،
مالا يعلمه الا الله .

ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يضبط
شره ، كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة ، ويفعلون من الفساد ما لا يحصى
إلا رب العباد . كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح
سيرة عرفت من أهل الجنايات ، يرد اليهم النصارى من أهل قبرص
فيضيئونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين .
فإما ان يقتلوه أو يسلبوه . وقليل منهم من يفلت منهم الا بالحيلة !!

فأعان الله ويسر ، بحسن نية السلطان وهمته ، في اقامة شرائع
الاسلام ، وعنايته بمجاهد المارقين ان غزوا غزوة شرعية ، كما أمر الله

ورسوله ، بعد أن كشفت أحوالهم ، وأزيجت عليهم ، وأزيلت شبههم ، وبذل لهم من العدل والانصاف ما لم يكنوا يطمعون به ، وبين لهم ان غزوهم اقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحرورية (١) المارقين ، الذين تواتر عن النبي ﷺ الأمر بقتالهم ونعت اصحابهم ، من وجوه متعددة ، أخرج منها اصحاب الصحيح عشرة أوجه : من حديث علي بن ابي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وسهل بن حنيف ، وأبي ذر الغفاري ، ورافع بن عمرو ، وغيرهم من اصحاب النبي ﷺ .

قال فيهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يرقون من الاسلام كما يرق السهم من الرمية . لئن ادر كتبهم لاقتلنهم قتل عاد . لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لا تكلموا عن العمل . يقتلون أهل الاسلام . ويدعون أهل الاوثان . يقرأون القرآن ويحسبون أنه لهم وهو عليهم ، شرقتي تحت اديم السماء ، خير قتلى من قتلوه » .

وأول ما خرج هؤلاء ، زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكان لهم من الصلاة ، والصيام ، والقراءة ، والعبادة ، والزهادة ما لم يكن كانوا لعموم الصحابة . لكن كانوا خارجين عن سنة رسول الله ﷺ وعن جماعة المسلمين ، وقتلوا من المسلمين رجلاً اسمه عبد الله بن

(١) الحرورية : هم الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب . منسوبون إلى قرية « حروراء » بفتحين وسكون الواو وراء اخرى والف ممدودة . قرية بظاهر الكوفة ، كان بها أول تحكيمهم واجتماعهم !

خَبَاب (١) وَاغَارُوا عَلَى دَوَابِّ الْمُسْلِمِينَ

وهؤلاء القوم كانوا أقل صلاة وصياماً . ولم نجد في جبلهم مصحفاً ولا فيهم قارئاً للقرآن . وإنما عندهم عقائدهم التي خالفوا فيها الكتاب والسنة ، وأباحوا بها دماء المسلمين وهم مع هذا فقد سفكوا من الدماء وأخذوا من الأموال ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى .

فإذا كان علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج ، مع أنه قتلهم جميعهم ، كان هؤلاء أحق بأخذ أموالهم . وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل « أنه لا يقتل مدبرهم ولا يجهز على جريحهم ، ولا يغنم لهم مال ولا يسي لهم ذرية » لأن مثل أولئك لهم تأويل سائع . وهؤلاء ليس لهم تأويل سائع ومثل أولئك إنما يكونون خارجين عن طاعة الامام . وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته . وهم شر من التتار من وجوه متعددة . لكن التتار أكثر واقوى . فلذلك يظهر كثرة شرهم . وكثير من فساد التتار هو الخالطة هؤلاء لهم ، كما كانوا في زمن قازان وهولاكو ، وغيرهما . فانهم أخذوا من أموالهم . وأرضهم قتيلاً لبيت المال .

(١) هو عبد الله بن خباب بن الأرت . . بفتح الحاء وتشديد الباء . وفتح الهمز والراء المهملة وتشديد التاء . له رؤية ولايته صحبة . قال في أسد الغابة : كان طائفة من الخوارج أقبلوا من البصرة الى اخوانهم من أهل الكوفة ، فلقوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فأثنى خيراً عليهم ، فذبحوه ، فسأل دمه في الماء ، وقتلوا المرأة وهي حامل . فقالت : أنا امرأة ، ألا تتقون الله ؟ فبقروا بطنها ! وذلك سنة سبع وثلاثين ، وكان من سادات المسلمين .

وقد قال كثير من السلف : ان الباطنيين لاحق لهم من الفياء ، لأن الله انما جعل الفياء للمهاجرين والانصار ، (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا . ربنا انك رؤوف رحيم) فمن لم يكن قلبه سليماً لهم ، ولسانه مستغفراً لهم ، لم يكن من هؤلاء .

وقطعت أشجارهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني النضير قطع اصحابه نخلهم وحرقوه . فقال اليهود : هذا فساد . وأنت يا محمد تنهي عن الفساد . فانزل الله (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فبازن الله وليخزي الفاسقين)

وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر ، وتخريب العامرة ، عند الحاجة اليه . فليس ذلك بأولى من قتل النفوس وما أمكن غير ذلك . فان القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها ، وأيسوا من المقام في الجبل الا حين قطعت الاشجار . والا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم . وما أمكن ان يسكن الجبل غيرهم ، لأن التركان انما قصدتهم الرعي ، وقد صار لهم مرعى ، وسائر الفلاحين لا يتركون عمارة ارضهم ويحيئون اليه .

فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهيمته وعزمه وأمره ، واخلاء الجبل منهم ، واخراجهم من ديارهم .

وهم يشبهون ما ذكره الله في قوله (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي

الابصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله ، فإن الله شديد العقاب . ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فبأذن الله وليخزي الفاسقين (١)

وأيضاً فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز واليمن والعراق ما يرفع الله به درجات السلطان ، ويعز به أهل الايمان

تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم اسلطان بحسم مادة اهل الفساد ، واقامة الشريعة في البلاد . فان هؤلاء القوم لهم من المشايخ والاخوان في قرى كثيرة من يقتدون بهم ، وينتصرون لهم . وفي قلوبهم غل عظيم ، وابطان معاداة شديدة ، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم . ولو أنه مباطنة العدو . فاذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم - مثل بني العود - زال بذلك من الشر ما لا يعلمه الا الله !!

ويتقدم الى قراهم ، وهي قرى متعددة بأعمال دمشق ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، وحمص ، وحلب بأن يقام لهم شرائع الاسلام ، والجمعة ، والجماعة ، وقراءة القرآن ، ويكون لهم خطباء ومؤذنون ، كسائر قرى المسلمين ، وتقرأ فيهم الاحاديث النبوية ، وتنشر فيهم المعالم الاسلامية ، ويعاقب من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجهه شريعة الاسلام .

(١) سورة الحشر الايات (٢ - ٥)

فان هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا : نحن قوم جبال . وهؤلاء كانوا
يعاوننا ويقولون لنا : أنتم اذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين . ومن قتل
منكم فهو شهيد .

وفي هؤلاء خلق كثير لا يقرون بصلاة ، ولا صيام ، ولا حج ولا
عمرة ، ولا يحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا يؤمنون بالجنة والنار ،
من جنس ، والحاكمة ، والباطنية و . . . وهم كفار اكفر من اليهود
والنصارى باجماع المسلمين .

فتقدم المراسيم السلطانية باقامة شعائر الاسلام : من الجمعة ، والجماعة ،
وقراءة القرآن ، وتبليغ احاديث النبي صلى الله عليه وسلم في قرى هؤلاء
من أعظم المصالح الاسلامية ، وابلغ الجهاد في سبيل الله .
وذلك سبب لانقماح من يباطن العدو من هؤلاء ودخولهم في طاعة
الله ورسوله ، وطاعة اولى الأمر من المسلمين .

وهو من الأسباب التي يعين الله بها على قمع الأعداء .
فان ما فعلوه بالمسلمين في ارض « سيس » نوع من غدرهم الذي به
ينصر الله المسلمين عليهم ، وفي ذلك لله حكمة عظيمة ، ونصرة للاسلام
جسيمة .

قال ابن عباس « مانقض قوم العهد الا أدبل عليهم العدو »
ولولا هذا وأمثاله ما حصل للمسلمين من العزم وقوة
الايان ، وللعُدو من الخدلات ، ما ينصر الله به المؤمنين ، ويذل به
الكفار والمنافقين .

والله هو المسؤول أن يتم نعمته على سلطان الاسلام خاصة ، وعلى
عباده المؤمنين عامة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً . (١)

سيخ الاسلام والصوفيه

قال الاستاذ محمد ابي زهرة (٢) استاذ الشريعة في كلية الحقوق في
جامعة القاهرة .

شغل الفكر الاسلامي بافكار اثارها المنصوفة ، تتعلق بصلة الله
سبحانه وتعالى بخلقه ، وان المعروفين علماء المسلمين المقرر في مصادر
الدين انها صلة الخالق بالخلق ، والمبدع بما أبدعه ، والله واجب الوجود
الذي ليس كمثله شيء ، والخلق ممكن الوجود ، عرض له الوجود بعينه
ان لم يكن .

لكن بعض المتصوفة اثاروا أموراً تجعل الصفة ليست كذلك فقط ،
فقد قالوا تابعين لأراء قديمه بجواز حاول الله في بعض الآدميين اذا كان
مستعداً لذلك بصفاء نفسه وصقل روحه ، واطهر من قال ذلك الخلاج ،
ثم جاء ابن عربي (٣) فتحكم بوحدة الوجود ، وان الموجود واحد .

(١) العقود الدرية بشيء من التلخيص .

(٢) ان هذا البحث والذي يعده منقولان عن كتابه (ابن تيمية)

(٣) ومن أقواله الدالة على وحدة الوجود :

ياخالق الاشياء في نفسه	انت لما تخلقه جامع
تخلق ماينهى كونه	فيك ، فأنت الضيق الواسع !!

ومن أقواله :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فرعي لغزلان ودير لربهان !!
وبعث الاوثان ! وكعبة طائف	والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب اي توجهت	ركائنه ، فالدين ديني وايماني !!

تعددت صورته وأشكاله ومظاهره ثم جاء بعد ذلك فكرة الاتحاد بين
 المخلوق والخالق من حيث المحبة والشوق ، فانه بهذه المحبة يتصل بالله تعالى
 ويعلو اليه ، وانه عندما يصل الى درجة الاتحاد بالذات العلية يكون في
 غيبوبة يسمونها المحو ، أي فناء ذاته القانية في ذات الله الباقية أو يسمونها
 السكر لأنه يغيب فيها عن الحس ، ويسمى اولئك هذه الحال بوحدة
 الشهود ، وهي مقابل ما قاله ابن عربي وحدة الوجود . وقد جاء ذلك
 المذهب في شعر عمر بن الفارض ^(١) ، وحكم ابن عطاء الله الكندي
 الذي عاصر ابن تيمية وشكاه الى أولي الامر سنة ٧٠٧

نقض ابن تيمية هذه المذاهب التي تربط الخالق بالمخلوق . لانه أولاً
 رآها منافية لمعنى توحيد الله سبحانه وتعالى الذي شرحه وبينه ، وثانياً

— ومن أقوال الخلاج يحدث عن حلول محبوه فيه وهو الله جل جلاله ، تنزه
 عن ذلك .

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
 فاذا أبصرتني أبصرته واذا أبصرته أبصرتنا؟
 ومن أقوال الخلاج أيضاً يصف حلول الله سبحانه فيه :
 أنت بين الشفاف والقلب تجري مثل جري الدموع من اجفان
 وتخل الضمير جوف فؤادي كحلول الارواح في الابدان
 (١) ومن أشنع ما قاله ابن الفارض في وحدة الوجود مما يؤدي الى اسوأ

المفاسد الخلقية قوله :

وصرح بأخلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلا لخرقة زين
 فكل مليح حسنه من جمالها ! معار له بل حسن كل مليحة !
 بها قيس لني هام ، بل كل عاشق ! كمجنون ليلى ، أو كثير عزة
 فكل صبا منهم الى وصف لبسها بصورة حسن لاح في حسن صورة !
 وما ذاك الا أن بدت بمظاهر فظنوا سواها وهي فيها تجلت !!

لانه رأى بعض قائلها يدعون لانفسهم حالا يعلنون فيها على التكليف ، وابن تيمية يرى ان من ينزع ذلك المنزع معطل لاحكام الشرع خالغ الريقة ، وثالثاً لانه رأى الناس يزعمون في أصحابها قدرة خارقة للعادة ، فيتقربون الى الله بهم ، وهم من يسمون عندهم اولياء .

رأى ابن تيمية فيهم ذلك فشن عليهم حرباً شعواء أقض بها مضاجعهم ، ونالوا منه عند السلطان والناس ، ونال منهم عند الناس ، ولقد ناقش اقوالهم مناقشة العارف لها الفاحص لدقائقها ، العارف لأسرارها ، ولكنه سماها كلها مذهب الاتحاد ، أو الاتحاديين ، وكأنه نظر الى المعنى المشترك في هذه الامور الثلاثة ، وهي وحدة الوجود ، والحلول ، والقناء في الله بالحب ، وذلك لأن هذه المناهج الثلاثة تلتقي في معنى الاتحاد ، اتحاد المخلوق بالخالق ، بيد ان وحدة الوجود فيها اتحاد لاتعدد فيه ، فليس هناك اثنان ، بل وحدة لاثنية فيه ، والاخران فيها اتحاد بين اثنين ، على تفرقة بين الاصطلاحين .

ولقد قال في مقدار فهمه لمذهب هؤلاء الاتحاديين في نظره :
« لقد افترقوا بينهم على فرق ، ولا يبتدون الى التمييز بين فرقهم ، مع استسعارهم انهم مفترقون ، ولهذا لما بينت لطوائف من اتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم وسر مذهبهم صاروا يعظمون ذلك ، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم ، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأمورهم ما يحل عن الوصف ، كما تبدل النصارى لرؤسائهم ، والباطنية لكبرائهم ، وما بذل آل فرعون لفرعون . وكل من يقبل قول هؤلاء فهو اما جاهل بحقيقة أمرهم ، واما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين وهذه حال اتباع فرعون ، الذين قال الله فيهم : « فاستخف قومهم فأطاعوه » .

ويرى رضي الله عنه أنه يكفي لرد هذه المذاهب تصورها ، فان
تصورها كاف في بيان فسادها ، ولا يحتاج مع حسن التصور الى دليل
آخر « وانما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم
وقصدهم » .

ويقول مشنعاً على مذهب وحدة الوجود : « أصلهم الذين بنوا عليه
ان وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين والكافرين
والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان عين
وجود الرب ! لا أنه متميز عنه منفصل في ذاته ، وان كان مخلوقاً مربوباً
مصنوعاً له قائماً به ، وهم يشهدون ان في الكائنات تفرقا وكثرة ظاهرة
بالحس والعقل ، فاحتاجوا الى جمع يزيل الكثرة ، ووحدة ترفع التفرق
مع ثبوتها » .

وهو مع شدته على المذهب وقائله يقول في ابن عربي قولاً رقيقاً
نسبياً ، فيقول : « مقالة ابن عربي مع كونها كفراً هو أقربهم الى الاسلام
لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات
غيره ، بل هو ماتم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل
أخرى ، والله أعلم بما مات عليه »

يقوم مذهب ابن عربي في نظر ابن تيمية على دعامين ، أو اصلين
كما عبر هو :

أحدهما : أن المعلوم شيء ثابت في حال العدم أي أن كل معلوم
يمكن وجوده — حقيقته وماهيته وعينه ثابتة في العدم ، لانه لولا ثبوتها
ماصح قصده بارادة ايجاده ! لان القصد يستدعي التمييز ، والتمييز لا يمكن

الا في شيء ثابت ، وعلى ذلك لا يكون إيجاد المعدوم خلقاً للماهيته وحقيقته وعينه ، بل هو جعل للصورة المحدثة من حيوانية أو نباتية أو معدنية أو حجرية أو نحو ذلك من الاعراض المتغيرة ، اما الجوهر فتأبث (١)

ثانيهما : أن وجود الخلق هو وجود الحق وعينه ، ويقرر ابن تيمية أن ذلك هو مفتاح كلام ابن عربي وفلسفته ، ويقول في ذلك : « فمن فهم هذا فهم كلام ابن عربي نظمه ونثره ، وما يدعيه من أن الحق يغتذي بالخلق ، لأن وجود الاعيان الحادثة معتمد بالاعيان الثابتة في العدم ، ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان الحادثة ، ويزعم أن هذا هو سر القدر ، لأن الماهيات لا تقبل الا ما هو ثابت لها في العدم في انفسها ، فهي التي احسنت واساءت ، وحمدت وذمت ، والحق لم يعطها شيئاً الا ما كانت عليه حال العدم والصورة العارضة .

وبعد أن يقرر ابن تيمية مذهب ابن عربي كما رآه يعود عليه بالنقض والهدم ، والمقصد الذي يتجه اليه أولاً وبالذات في هدمه هو بيان أنه لا يتفق مع الحقائق المقررة في الاسلام ، وانهو الاسلام على طرفي نقيض لا يجتمعان ولا يتلاقيان ، ولذا يتجه الى نقضه بالمنقول مع المعقول ، ويعتمد على المنقول اكثر لسببين :

أولهما : أن ذلك المذهب الفلسفي هو من ضمن مذاهب الفلاسفة الذين حكموا بقدوم العالم ، وهو ان لم يكن مثلهم قد قاربهم أو سار على

(١) رسالة مذهب الاتحاديين ص ٧

منهاجهم ، وقد ناقش ابن تيمية اولئك الفلاسفة في مذاههم ، وبين بطلانها في كتبه ومجوده المختلفة مثل منهاج السنة وغيره .

ثانيهما : ان ابن عربي قد اعتنق رأيه كثيرون من المسلمين ، وحسبوه اسلاما ، بل حسبوه لب الاسلام ومعناه ! وخصوصا ان ابن عربي زينه لهم باثبات ان محمداً ﷺ هو العقل الأول ، وأنه كان قبل كل شيء ، فسهل على بعض المسلمين قبوله ، ورغب كثيرون في اعتناقه ، وكادت الفكرة فيه تعم الصوفية في عصر ابن تيمية ، لذلك وجد ابن تيمية أن الحاجة ليست الى ابطال أصله العقلي فقط ، بل هي ماسة وضرورية لابطاله من الوجهة العقلية ، ولذلك هاجمه بمجرد تمام تصويره بأنه مناف للمقررات الاسلامية المعلومة من الاسلام بالضرورة فقال : « فتدبر كلامه ، كيف انتظم شئين : انكار وجود الحق ، وانكار خلقه لمخلوقاته ، فهو منكر للرب الذي خلق ، فلا يقر برب ولا بخلق ، ومنكر للرب العالمين ، فلا رب ولا عالمون مربوبون ، اذ ليس هناك الا أعيان ثابتة ، ووجود قائم بها ، فلا الأعيان مربوبة ، ولا الوجود مربوب ، ولا الأعيان مخلوقة ، ولا الوجود مخلوق (١) » .

وعندما يتجه ابن تيمية الى ابطال ذلك المذهب بالنقل والعقل ، يبتدىء فيبطل الدعامة الاولى من دعائمه وهي ان المعدوم كان شيئاً وكانت ماهيته ثابتة ، فيقول في ذلك :

« والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الاصناف . ان المعدوم ليس في نفسه شيئاً ، وان ثبوته ووجوده وحصوله

(١) مذهب الاتحاديين ص ١٧

شيء واحد . وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع في القديم . قال الله تعالى لزكريا « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » فأخبر أنه لم يك شيئاً . وقال تعالى : « ألا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » وقال تعالى : « أم 'خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » فأنكر عليهم اعتقادهم أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم ، أو خلقوا هم أنفسهم » .

ثم يرد استدلالهم ببعض الآيات مثل قوله تعالى : « انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون » . فيقول قد استدل بها من قال المعدوم شيء وهو حجة عليه ، لأنه أخبر أنه يريد الشيء ، وأنه يكونه ، وعندهم أنه ثابت في العدم ، وانما يراد صورته لاعينه نفسه . والقرآن قد أخبر أن نفسه تراء ، وتكون ، ويعتمدون على أن الوجود صفة عارضة على الذات وهي غير الذات ، فيقول ابن تيمية في رد قولهم : « ان الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة ، وان ماهية كل شيء عين وجوده ، وأنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته ، بل ليس في الخارج الا الشيء الذي هو الشيء وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته ، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائداً على ذلك » (١) .

ويبطل ابن تيمية الأصل الثاني ، وهو الوحدة بين الحق والخلق ، أو بين المخلوق والخالق بوجوه عقلية كثيرة ، ووجوه شرعية ، ولنختار واحداً من الأدلة العقلية التي ساقها ! وهو أولها .

لقد قرر ابن تيمية أن هؤلاء يرون أن هذه الحقائق الكونية كانت معدومة في نفسها ، ولكنها أشياء في عينها ، وفي علم الله سبحانه ، وفي

(١) الرسالة المذكورة ص ١٥

تجليه المطلق ، ووجوده المطلق ، وكانت ستحدّه بنفسه ووحده الذاتية ، ثم كانت بعد ذلك على هذه الاشكال . فينظر ابن تيمية كيف تحولت من حالها الأولى ، أخلقها الله وبرأها وجعلها موجودة ، أم لم تزل على حالها الأول معدومة وان كانت شيئاً ولها ماهية ، فان كانت لم تزل معدومة ترتب على ذلك ألا يكون شيء من الكونيات موجوداً ، وهذه مكابرة للحس والعقل والشرع ، ولا يقوله عاقل ، ولم يقله عاقل ، وان كانت موجودة بعد أن كانت معدومة على النحو الذي يقررونه في معنى العدم ، يترتب على ذلك ألا تكون وموجدتها شيئاً واحداً ، لأنه لم يكن معدوماً ووجد ، ولأنه هو المؤثر فيها بهذا التغيير ، ويجب أن يكون المؤثر والمتأثر شيئين متغايرين (١) .

ويبين هذا المذهب من الناحية الدينية فيقول : « وجماع أمر صاحب الفصوص (٢) وذويه هدم أصول الايمان الثلاثة ، فان أصول الايمان : الايمان بالله ، والايمان برسله ، والايمان باليوم الآخر ، فأما الايمان بالله فزعموا أن وجوده وجود العالم ليس للعالم صانع غير العالم ، وأما الرسول فزعموا أنهم أعلم بالله منه ومن جميع الرسل ، ومنهم من يأخذ العلم بالله الذي هو التعطيل ووحدة الوجود من مشكاته (٣) ، وأنهم يساوونه في اخذ العلم بالشريعة عن الله ، وأما الأيمان باليوم الآخر فقد قال :

فلم يبق الا صادق الوعد وحده وبالوعد الحق عين تعانين
وان دخلوا دار الشقاء فانهم على لذة فيها نعيم يباين

(١) مذهب الاتحاديين ص ٢٧

(٢) هو ابن عربي لان مذهبه دوانه في كتابه الفصوص وكتاباه الفتوحات المكية .

(٣) يعرض بحجة الاسلام الغزالي صاحب كتاب مشكاة الانوار .

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال : « ان النار تصير
لاهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذ فلا خوف ولا محذور ، ولا عذاب
لأنه أمر مستعذب (١) »

ويرى ابن تيمية أن ذلك المذهب يسقط التكليف ويبيح المآثم ،
فيقول : « ثم انه في الأمر والنهي عنده الأمر والنهي والمأمور والمنهي
واحد ، ولهذا كان أول ما قاله ابن عربي في الفتوحات المكية التي هي
أكبر كتبه :

الرب حق والعبد حق ياليت شعري من المكلف ؟
إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنى يكلف ؟ !

ولكي يقبح مذهبه في نظر العامة الذي غزت هذه الافكار نفوسهم
وإن لم يفهموا معناها ينقل عن العلماء الذين لهم منازل خاصة عند العامة في
مصر والشام رأيهم في ابن عربي وتكفيره (٢) أو تقبيح مذهبه فينقل عن
القسطلاني وابن دقيق العبد رأيهم فيه ، وينقل عن عز الدين بن عبد
السلام قوله في ابن عربي : « شيخ سوء مقبوح ، يقول بقدوم العالم ، ولا
يحرم فرجا ! » .

ولا يكتفي بالنقل عن الفقهاء والمحدثين ، بل ينقل عن الصوفية
انفسهم ، فينقل عن ابي العباس الشاذلي تلميذ ابي الحسن الشاذلي أنه قال
في اصحاب مذهب وحدة الوجود : « هؤلاء كفار يعتقدون ان الصنعة
هي الصانع » (٣) .

(١) رسالة مذهب الاتحاديين ص ٧٤

(٢) لازلنا ننقل عن الاستاذ الشيخ محمد ابي زهرة

(٣) راجع هذه النقول في الرسالة المذكورة ص ٧٥ و ٧٦

ويسترسل ابن تيمية في ابطال هذا المذهب بالأدلة العقلية تارة ،
والنقول تارة اخرى ، ويشنع عليه بأقوال كبار رجال العصر فيه لينفر
الناس منه ، ويبعدهم عنه اذ كان يخشى على العامة منه ، وقد اعتنقه بعضهم
من غير ان يفهمه !

وانا نكتفي بهذا القدر من نظر ابن تيمية الى مذهب وحدة الوجود ،
فلننتقل الى نظره في المذهبين الآخرين المشاركين له في الاتحاد بذات
الله تعالى ، وأن افترقا في المعنى ، واولهما مذهب الحلول الذي نادى به
الحلاج كما بينا وغيره ، وقد اختلفت فيه الانظار .

ويحكى ابن تيمية أن القائلين بالحلول فريقان : فريق يقول ان الله
سبحانه حال بذاته في كل مكان ويسميهما حلولية الجهمية ، ويقول فيهم :
« هم الذين يقولون إنه بذاته في كل مكان ، كما تقول النجارية أتباع
حسن النجار » ^(١) ويرى أن القائلين بالحلول على ذلك النحو يتقاربون
من القائلين بوحدة الوجود ، ولكن كانت فرق دقيق ، وهؤلاء اصحاب
وحدة الوجود يرون أن الوجود كله شيء واحد ، أما هؤلاء الحلوليون
فانهم يرونها متغايران ، ولكن الموجد حل في الوجود .
والفريق الثاني هم الذين قالوا ان الله يحل في بعض مخلوقيه ، كما
يدعون من أنه حل في الحلاج ، ومهما يكن فان الحلاج من القائلين بذلك
وهو القائل :

سبحان من أظهر ناسوته سر سنالاهوته الثاقب
حتى بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب !!

(١) مجموعة الرسائل والمسائل الجزء الاول ص ٧٠

ويقول ابن تيمية في هذا المذهب انه كقول النصارى في المسيح عليه السلام ، بل انه يقول انه شر من قول النصارى « لان النصارى ادعوا ذلك في المسيح لكونه خلق من غير أب ، والشيوخ لم يفضلوا في نفس التخليق ، وانما فضلوا بالعبادة والمعرفة والتحقيق والاتحاد ، وهذا أمر حصل لهم بعد ان لم يكن ، واذا كان هذا سبب الحلول ، وجب أن يكون الحلول فيهم حادثا ، لامقارنا ، وحينئذ فقولهم ان الرب ما فارق أبدانهم أو قلوبهم طرفة عين قط كلام باطل » (١) .

وان الذين يفرقون بين قول هؤلاء وقول النصارى : يقولون ايضا ان المسيح عليه السلام هو ابن الله في نظرهم : فالعنصر الالهي فيه هو الأصل ، والناسوت عارض له ، اما الحلوليون في الاسلام فانهم يقولون ان العنصر الانساني هو الاصل ، والعنصر الالهي حل فيه ، وذلك بفضل العبودية والمحبة حتى في في الله سبحانه وتعالى .

ومهما يكن من قرب الفكرة بين الحلاج وقول النصارى فمن المؤكد ان نظره بعيد عن الاسلام بعد النصرانية عنه !

ولاشك في ان من سلك ذلك المسلك يخالف المعقول والمنقول . هذا نظر ابن تيمية الى مذهب الحلول وهو رأي سليم لاشبهة فيه ، والمذهب الثالث الاتحاد ، واصحابه كما ذكرنا عند الكلام على الصوفية في عصر ابن تيمية يقررون ان الناسكين المتعبدين قد تصفو نفوسهم وتعلو حتى تفنى في ذات الله سبحانه وتعالى ، وهذا المذهب لا ينظر اليه ابن تيمية على انه كفر كالْمُذْهَبَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، ولكنه يرى أنه لا يخلو من بعد عن حقيقة الشريعة ، وذلك اذا وصل الى الحال التي يدعون فيها سقوط

(١) المجموعة المذكورة ج ١ ص ٨٠

التكليف ، فانه لا يرتضي ذلك ولا يقبله ، فانه زينغ عند من يعتقده ،
خالفناه في الله يقبله مالم يؤد الى القول الذي يزعمه بعض المتصوفة .
ولقد قسم الفناء الى ثلاثة اقسام : اثنان غير محمودين ، وواحد منها
محمود ، وهذه هي الاقسام الثلاثة :

القسم الاول : وهو المحمود الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به
الرسول ، وانزلت به الكتب ، وهو أن يفنى عما لم يأمر به الله بفعل ما أمر
الله به ، فيفنى عن عبادة غيره بعبادته ، وعن طاعة غيره بطاعته ، وطاعة رسوله ،
وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه ، وعن محبة سواه بمحبته ومحبة رسوله ،
وعن خوف غيره بخوفه ، بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من
الله ، وبحيث يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، كما قال تعالى :
« قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وازواجكم وعشيرتكم واموال
اقتربتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من
الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » فهذا كله مما
أمر الله به .

القسم الثاني : وهو الذي يذكره الصوفية ، وهو ان يفنى عن شهود
ما سوى الله فيفنى بمعبوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه
عن معرفته ، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله ، فلهذه حال ناقصة
قد يعرض لبعض السالكين وليس هو من لوازم طريق الله ، ولهذا لم
يعرض مثل هذا النبي ﷺ والسابقون الاولون ، ومن جعل هذا نهاية
السالكين فهو ضال ضالاً مبيناً . وكذلك من قال انه لوازم طريق الله
فهو مخطئ ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون
بعض ، وليس هو من اللوازم التي تعرض لكل سالك .

القسم الثالث : « وهو الفناء عن وجود السوي ، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، وأن الوجود واحد بالعين ، فهو قول أهل الاتحاد والاتحاد الذين هم من أضل العباد (١) » .

والقسم الثاني هو الذي ينطبق عليه الفناء الذي يقوله أصحاب الاتحاد . وأما الثالث فهو يتجه الى قول أصحاب وحدة الوجود ، وأنه يحكم على أصحاب القسم الثاني بأنهم ضالون ، ولم يحكم بأنهم ملاحدة ، ولا زنادقة ، بل قال جهلة أو ضالون ، ولكنه بغير الحكم اذا قالوا انهم يصلون الى الحال التي يسقط فيها التكليف في زعمهم .

منهج ابن تيمية في معرفه العقيدة

وعلاقته بالمناهج الفلسفية

درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها ، ولكنه درسها ليهدمها ، وهو قد رآها داء قد اصاب فكر المسلمين ، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين ، وانما سرت الى العقل الاسلامي فسيطرت على مساره ، ويرى أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الاسلامية وموافقتها لصريح المعقول لا بد من ابعاد المناصر الفلسفية التي هي أخيلة واوهام ، كما يبعد عن الجسم الانساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته ، فيقول في ذلك :

« لما كان بيان مراد الرسول في هذه الابواب لا يتم الا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الانبياء ، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، اذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد

(١) التدمرية ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

الرسول لا ينفع اذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه ، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به أخلط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه ، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، الا مع بيان فساد ذلك المعارض ، والمعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً (١) .

درس اذن ابن تيمية الفلسفة وما عند الفلاسفة ، لا يطلب الحقائق من ورائها ، بل ليبين بطلان ما يعارض الدين منها ، فهو آمن بما جاء به الرسول أولاً ، ثم اراد ان ينفي عنه خبث الفلسفة ، فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته ثم ليبين بطلانه بعد معرفته .

وهو في هذا يفترق عن منهاج الغزالي رضي الله عنه ، فهو قد درس الفلسفة ليطالب الحقيقة من ورائها ، وخلص نفسه من كل شيء ليصل الى الحق المستقيم ، واعتبر الشك هو الطريق للوصول الى الحق ، ولكن تبين له طلأن ما يقوله الفلاسفة ، فعاد الى الدين ، واشاق في نفسه نور الحقائق في خلوات صوفية عرف فيها نفسه ، ثم حمل حملته على الفلاسفة وبين تهاافتهم . ومع ذلك هل تجرد منها ؟ انه بقيت في نفسه أثارة منها ، بل انه لم يتركها الا وقد تكون عقله تكويناً فلسفياً ، وأخذ احد شعب الفلسفة وجعله جزءاً من دراساته ، وهو المنطق ، فهو في مقدمة كتاب المستصفى

(١) موافقة صريح المقول الصحيح المنقول المطبوع على هامش منهاج السنة

في علم الاصول ، والذي يعد احد دعائم علم اصول الفقه الثلاثة ^(١) يقرر ان الحقائق لا يمكن ان تعرف في اي علم من العلوم على وجهها الا اذا كان المنطق ميزانها ، ويقول في مقدمة كتاب المستصفى التي شرح بها علم المنطق اجمالاً ما نصه :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان ، ونذكر شرط الحد الحقيقي ، وشرط البرهان الحقيقي ، واقسامهما على منهاج أو جز مما ذكرناه في كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الاصول ، ولان مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلمه اصلاً ^(٢) »
وهذا ايمان بشعبة من شعب الفلسفة عميق ، فان علم المنطق فرع من فروعها ، بل لعله أعظم تراث تركه ارسطو من بعده .

هذا هو الفرق بين المقصد عند هذين العالمين من دراسة الفلسفة ، وقد تأدى بالأول الى نقضها ، وتأدى بالثاني الى اعتناق بعضها ، لذا قال بعض تلاميذ الغزالي : انه دخل في بعض الفلسفة ، ولما اراد الخروج منها لم يستطع ، فكانت منه تلك المناهج الفلسفية التي سلكها في دراسة العقائد ، ودراسة اصول الفقه ، بل كان منه تلك الحيرة التي بدت في آرائه في الفلسفة والفلاسفة ، فبينما تراه يحمل على الفلاسفة ، ويبين تهافتهم ، تراه يقبض قبضة من علومهم ويحملها وحدها ميزان العلوم . ولذا قال ابن تيمية فيه :

(١) الكتب الثلاثة هي : المعتمد لاني الحسين البصري ، والبرهان لامام الحرمين ، والمستصفى للغزالي .

(٢) مقدمة المستصفى ص ١٠ الجزء الاول .

« كان أبو حامد مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة ،
وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع ما يوجد فيه من أشياء
صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة ، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية
وأمر اضيفت توافق أصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ، بل المخالفة لصريح
العقل . حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق
والمغرب (١) » .

ويقول فيه أيضاً :

« وأبو حامد لا يوافق المتفلسفة على كل ما يقولون ، بل يكفرهم
ويضلهم في موضع ، وإن كان في الكتب المضافة اليه ما قد يوافق بعض
أصولهم ، بل في الكتب التي يقال إنها مضمون بها على غير أهلها ما هو
فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ! وإن كان قد عبر عنها
بعبارات اسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول إنها مكذوبة على
أبي حامد ، ومنهم من يقول : بل رجع عنها . ولا ريب أنه صرح في بعض
المواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب ، وأخبر في المنقذ من الضلال وغيره
من كتبه بما في هذه من الضلال (٢) » .

ثم بين أن الغزالي كان ينقل كتب الفلسفة ، وأقوال الفلاسفة .
وينقل عن أبي عبد الله المازري المتكلم فيقول :

« قال (ابن المازري) ووجدت هذا الغزالي يعول على ابن سينا
في أكثر ما يشير اليه من علوم الفلسفة ، حتى أنه في بعض الاحيان ينقل
نص كلامه من غير تغيير واحيانا يغيره . وينقله الى الشرعات أكثر

(١) شرح العقيدة الاصفهانية ص ١١٥

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٩

مما نقل ابن سينا ، لكونه أعلم بأمرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل اخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة ^(١) .

من هذا يتبين كيف غمر الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها !! لأنه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نبتة في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها ، وكان يعيش في أقطارها ، فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي ، ففلسف الشريعة ، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر .

أما ابن تيمية فقد طلبها لهدمها ، فكان يقرؤها ويفهمها ، وهو في غير محيطها ، ولم ينغمر في غمارها ، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه ، وأخذ يتبع هفواته وينقض هناته !

ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك أصول العقيدة ، وفروع الفقه والاحكام العلمية ، لأن النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ، ولا طريق سواء ، ويرى ان أولئك الذين يضعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ، ويجعلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحه ليوافقها ، انما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة ، ويقول في ذلك :

« يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب ، ويتكلمون في جنس النظر وجنس العلم كلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم اذا صاروا الى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الاعراض على حدوث الاجسام ، وهو دليل

(١) الكتاب المذكور ص ١١٧

مبتدع في الشرع (١) .

ينتقد ابن تيمية هؤلاء لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة ، تلك الدراسة العقلية عليها . ثم يحكمون على الاوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها . ويوجهونها بتوجيهها . فما يوافقها اقروه كما ورد . وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها ، واولوه بتأويلها . ثم هم في هذا السبيل لم يلتفتوا الى السنة ، ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب . مبينة لكل ما جاء به ، وأنها الطريق الوحيد لتفسيره .

ينقد ابن تيمية ذلك المسلك . لأنه يجعل الحاكم محكوماً . فيجعل النبوة التي هي حكمة هادية للعقول محكومة بها خاضعة .

ولقد قسم ابن تيمية طرائق العلماء في فهم العقائد الاسلامية كما يفهم من رسالته معارج الوصول الى اربعة اقسام :

القسم الاول : الفلاسفة . وهؤلاء يقولون : « القرآن جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الاقناعية التي تقنع الجمهور ويدعون أنهم هم أهل البرهان اليقين » ! .

والقسم الثاني : المتكلمون وهم الذين ذكر ابن تيمية أنهم يقدمون قضايا عقلية على النظر في الآيات القرآنية ! وقد ذكر أنهم يجعلون المحكوم حاكماً ، فيما نوهنا آنفاً . وكلامه فيهم يدل على أنهم المعتزلة .

والقسم الثالث : طائفة من العلماء لا ينظرون الى القرآن من جهة ما شتمل من أدلة هادية مرشدة مثبتة للحق . وليست مجرد الاقناع . بل يعتبرون ما في القرآن من آيات دالة على التوحيد والصفات من ناحية أنها أخبار ، لا أدلة مثبتة . وهؤلاء لهذا . قد جعلوا الايمان بالرسول قد استقر

(١) معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي

فلا يحتاج الى أن يبين الأدلة الدالة عليه ، وعيب هؤلاء عند ابن تيمية أنهم أعرضوا عن الأصول التي بينها الله سبحانه وتعالى بكتابه ، ولم يلتفتوا الى وجه الأدلة فيها ، وهي التي تثبت بذاتها الجزم واليقين ، وقد قال في هذه الطائفة والتي سبقتها ، وهم المتكلمون : « والطائفتان يلحقهما الملام ، لكونها أعرضتا عن الأصول التي بينها الله بكتابه ، فانها أصول الدين وأدلته وآياته ، فلما أعرض عنها الطائفتان وقعت بينهما العداوة ، كما قال تعالى « فذسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » .

فالعيب الذي يعيبه ابن تيمية على هذه الطائفة انها لم تلتفت الى أدلة القرآن ، وأخذت أخباره ، والطائفة التي سبقتها وهم المتكلمون مثلها ، لانهم لم يلتفتوا الى أدلة القرآن ، وان كانوا قد سلكوا الطريق الى أدلة أخرى عقلية ، وحاولوا التعرف عن غير طريقه ، أما هؤلاء فلم يحاولوا شيئاً واكتفوا بأخباره .

والقسم الرابع : قوم آمنوا بما جاء في القرآن ، ولهم تفكير فيه ، وخالفوا الطوائف السابقة كلها ، وقالوا : « ان طرائقهم ضارة وان السلف لم يسلكوها ونحو ذلك مما يقتضي ذمها » ولكنهم يرون أن أدلة القرآن مجملة ، وأن لابد من التفصيل ، ولا بد من التسليح بأدلة أخرى لقمع المخالفين ، وعلى ذلك يتجهون الى أدلة المتكلمين ، وبذلك ينتهون الى مثل ما ينتهي اليه أولئك ، ويقول في هذا الفريق ابن تيمية « قد يعتقد طريق المتكلمين مع قوله انه بدعة ، ولا يفتح ابواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن الكريم التي تبين ان ما جاء به الرسول حق ، ويخرج الذي بعرفتها عن التقليد ، وعن الضلال والبدعة والجهل » .

ولم يذكر في رسالة معارج الوصول من يعني من هذا القسم الرابع ،
وإمراجعة مجموع كتاباته يتبين أنه يقصد الأشاعرة والماتريدية ، فإن أولئك
آمنوا بكل ماجاء عن السلف ، ولكنهم لم يسلكوا في استخراج الأدلة
من القرآن ، بل سلكوا المسلك العقلي ، بسبب الخصومة الشديدة التي
وقعت بينهم وبين المعتزلة ، فاضطروا لأن يستخدموا أسلحتهم ، والمحارب
مأخوذ دائماً بسلح خصمه ، فلا بد أن يستخدم من الأسلحة ما يستخدم
خصمه ، وقد استخدم أولئك المنطق والأدلة العقلية ، فحق على من
ينازلهم أن يستخدم ما استخدموا من مسالك وبراهين .

من هذا النقد الذي وجهه ابن تيمية لهذه الفرق يتبين أنه يرى أن
القرآن بما فيه من أدلة وحجج فيه غناء لطالب العقيدة الإسلامية ، لا لأنه
كتاب ثبت أنه من عند الله (فحسب) بل للدلة التي يسوقها لإثبات الوحدانية
والصفات واليوم الآخر والمعاد ، فهو ليس فيه الأخبار فقط ، بل فيه
الدليل على صحة الخبر ، فهو في نفسه يحمل دليل صدقه .

وأشد ما أخذ على الذين خالفهم من المتقدمين والمتأخرين أنهم
أهملوا أدلة القرآن ، ولعل أشد ما أثر فيه أنه رأى الفلاسفة لم يكتفوا بعدم
الالتفات إلى أدلة القرآن ، بل تهجموا فقالوا : أنها أدلة خطابية اقناعية
وانها ليست ببراهين قطعية ملزمة ، وأن البراهين الحقيقية هي ما شتمل
عليه علم المنطق ، بل انه يرى أن المتكلمين من المعتزلة ، ومن نهج منهاجهم
في الاحتجاج من الأشاعرة وأخوانهم الماتريدية يقرون مقال الفلاسفة في
هذا ، بل ان بعضهم ليصرح بمثل ما صرح به أولئك الفلاسفة ، فالرازي
يقول : « ان الاستدلال بالسمعيات في المسائل الأصولية لا يمكن بحال ،
لأن الاستدلال بها موقوف على مقدمات ظنية ، وعلى رفع المعارض العقلي ،

وان العلم بانتفاء المعارض لا يمكن ، اذ يجوز أن يكون في نفس الأمر دليل عقلي يناقض مادل عليه القرآن ، ولم يخطر ببال المستمع ، وقد بسطنا القول في أوجه ذلك ، مثل نقل اللغة والنحو والتصريف ، ونفي المجاز والاضمار ، والتخصيص والاشتراك وهكذا (١) .

هال ابن تيمية ذلك القول ، لأنه يؤدي الى أنه لا براهين الا ما يكون المنطق طريقه ، كأن العلم الاسلامي مدين للمنطق اليوناني في فهمه ، وهاله أكثر أن مؤداه أن الصحابة لم تكن لديهم الوسائل القطعية لفهم هذا الدين الحكيم ، ولا لفهم عقائده ، لأنهم لم يكونوا على علم بمنطق أرسطو الذي لم يدخل في الفكر الاسلامي الا في القرن الثاني الهجري ، كأن الصحابة والتابعين ما كانوا عالمين باصول هذا الدين الا عن طريق ظني ، ولم يتوافق لديهم الطريق القطعي ، ويقول في ذلك رضي الله عنه : « يقولون ان لم يكن الرسول يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات ولا أصحابه يعلمون معنى ذلك ، بل لازم قولهم أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من أحاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لا يعرف معناه (٢) » .

وذلك لأن النبي ﷺ لم يحاول تأويل الصفات في القرآن تأويلاً يتفق مع القواعد الفلسفية التي قررها علماء الكلام من بعده ، ولأن النبي ﷺ كان علمه هو القرآن ، والأدلة التي كان يعلمها هي أدلة القرآن ، ولم يتجاوز ذلك ، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم ، والفقهاء المجتهدون ، وذلك لأن أولئك لم يكونوا على علم بمنطق اليونان ، ولا بتأويل علماء الكلام لما جاء في القرآن .

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ج ١ ص ١٠

(٢) نقض المنطق ص ٥٧

وجد كل هذا من منطق أرسطو الذي تعلق به علماء المسلمين ،
وأدخله أبو حامد الغزالي في مقدمة علم الأصول ، فثار على ذلك المنطق
الذي اعتبره من علوم الصابئة ، وأثار حوله عجاجة ، وأخذ يمين أنه
دخيل على الفكر الاسلامي ، وأن ادراك الحقائق الاسلامية لم يكن في
حاجة اليه ، وأنه ميزان ليس بصادق ، انما هو أوهام ، أوقيود من أوهام ،
وشجعه على ذلك الهجوم أنه وجد أن الفقهاء قبل أبي حامد الغزالي كانوا
ينظرون اليه نظرة البغض ، ويتوجسون منه خيفة على العلوم الاسلامية ،
وان الغزالي أول من صرح بوجوب اتخاذ ميزاناً للعلوم ، وأن من كان
قبله أخذوه على استخفاء ، ولم يجهروا به كما جهر الامام الغزالي .

وهذا ابن الصلاح يعد المنطق شراً كله فيقول : « المنطق
مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما
أباحه الشارع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ،
والسلف الصالح وسائر ما يقتدى به » .

ويقول في استخدام المصطلحات الفلسفية او المنطقية في العلوم الاسلامية :
« إن هذا من المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحذرة ، وليس بالأحكام الشريعة
افتقار الى المنطق أصلاً ، وما يزعمه المنطقي بالمنطق من أمر الحد والبرهان
ففقائع قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، ولا سيما من خدم نظريات
العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاضها في بحر الحقائق
والدقائق علماءها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ، ومن زعم أنه
يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان (١) » .
يقر ابن تيمية بلا ريب فتوى ابن الصلاح ، وينقل عن العلماء
سنتكارهم لما جاء في مقدمة المستصفى للغزالي من اعتباره المنطق ميزان

العلوم كلها فيقول : « يحكى عن يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين أنه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان وفلان يعني أن أولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة وأسبابها ، قال الشيخ أبو عمرو وقد ذكرت بهذا ما حكى صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة (يعني أبا حيان التوحيدي) ان الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد بأضياف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم ، وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني فقال الوزير ، اريد أن ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في قوله : انه لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، الا بما حوينا من المنطق ، واستفدناه من واضعه على مراتبه ، فانتدب ابو سعيد السيرافي ، وكان فاضلا ، وكلمه في ذلك حتى أفحمه . »

وهكذا نرى ابن تيمية يغير على المنطق بأقوال السابقين وبأن مترجمه من اليونانية الى العربية قد عجز عن الدفاع عنه ، وهو في هذا يعتقد أن الأساليب المنطقية التي نهجها الفلاسفة ، والمتكلمون ، ثم عموما الغزالي في علوم الدين ، وهي التي جعلت العلماء يتنقصون بها أدلة القرآن ، ابل لازم قولهم تجهيل الصحابة بأدلة التوحيد ، وبراهين اليقين ، وان هم يظنون الاظنا . اهـ

فقه الامام ابن تيمية

تلقى شيخ الاسلام ابن تيمية الفقه الحنبلي في بادىء نشأته من ابيه حتى تولى مقام التدريس بعد وفاته وتعمق فيه كثيراً ، ولما شب وتوسع

ذهنه ، لم يعد يتقيد بهذا المذهب ، وعكف على دراسة المذاهب الاربعة
وغيرها ، يعمل ويقتي بما وافق منها للكتاب والسنة دون تعصب لاحدها .
ولم يكتب بهذا ، بل أنه كثيراً ما يخرج عن اطار المذهب الاربعة كلها .
اذا وجد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافها كما فعل في كثير
من قضايا الطلاق ، مما ذكرناه في فتاواه ، وكان يقول بهذا الصدد :

« ان الانسان ينشأ على دين أبيه ، أو سيده ، أو أهل بلده ، كما
يتبع الطفل في الدين ابويه ، وسادته ، وأهل بلده ، ثم اذا بلغ فطليه أن
يلتزم طاعة الله ورسوله حيث كانت ، ولا يكون ممن اذا قيل لهم :
« اتبعوا ما أنزل الله » قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! » فكل من
عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله ورسوله الى عادته وعادة أبيه
وقومه ، فهو من أهل الجاهلية ، وكذلك من تبين له مسألة من مسائل
الحق الذي بعث الله به رسوله ، ثم عدل عنه الى عادته ، فهو من أهل
الذم ^(١) . »

وكان الشيخ رحمه الله تعالى يحترم ائمة المذاهب كلها ، فهم جميعاً
مخلصون في بحشهم ، سعوا جهدهم للوصول الى الحقيقة الاسلامية التامة في
زمنهم حيث لم تكن ميسرة كلها لكل امام منهم على انفراد ! مما أدى
الى الخلاف المذهبي وقتئذ ! ، وقد أوجد لهم الاعذار في كتابه « رفع الملام
عن الائمة الاعلام » فقال في مقدمة هذا الكتاب :

« وبعد فيجب على المسلمين بعد موالاته الله ورسوله موالاته المؤمنين
كما نطق به القرآن ، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الانبياء الذين جعلهم

(١) الفتاوى ج ٢ ص ٢٠٢ طبع الكردي

الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر . وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم اذ كل امة قبل مبعث محمد ﷺ فعلموا بها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم ، فانهم خلفاء الرسول في امته . والمحيون لما مات من سنته . بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا . وليعلم أنه ليس أحد من الامة المقبولين عند الامة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا جليل ، فانهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله ﷺ ! ولكن اذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلا بد له من عذر في تركه . وجميع الاعذار ثلاثة اصناف : احدها عدم اعتقاده ان النبي ﷺ قاله . والثاني عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك القول . والثالث اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ .

« وهذه الاصناف الثلاثة تنفرع الى أسباب متعددة منها : أن لا يكون الحديث قد بلغه . ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالماً بتوجيهه ! واذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب استصحاب ، فقد يوافق ذلك الحديث (تارة) ويخالفه اخرى . وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من اقوال السلف مخالفاً لبعض الاحاديث فان الاحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الامة ! وقد كان النبي ﷺ يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل الشيء فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً ويبلغه اولئك أو بعضهم لمن يبلغونه فينتهي علم ذلك الى من شاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتي أو يقضي أو يفعل شيئاً

ويشده بعض من كان غائباً عن ذلك المجلس ويلغوئه لمن امكنهم فيكون
عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء ، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء
وانما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته .

ثم يوضح الامام ابن تيمية ان عدم اطلاع امام المذهب على بعض
الأحاديث قبل جمعها وتدوينها - الذي تم بعد عدمه - لا ينقص من مكانتهم
العلمية . واستشهد بالخلفاء الراشدين أنفسهم وضرب الأمثال الكثيرة في
كتابه المذكور فقال :

« وأما احاطة واحد بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن
ادعائه قط . واعتبر ذلك بالخلفاء الراشدين الذين هم أعلم الأمة بأمور
رسول الله ﷺ وسنته وأحواله خصوصاً الصديق رضي الله عنه الذي لم
يكن يفارقه حضراً ولا سفيراً بل كان يكون معه في غالب الاوقات حتى
أنه يسهر عنده في الليل في أمور المسلمين وكذلك عمر بن الخطاب رضي
الله عنه فإنه كثيراً ما يقول دخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا
وأبو بكر وعمر

عدم اطلاع ابي بكر على كثير من احاديث رسول الله ﷺ

« ثم مع ذلك لما سئل أبو بكر رضي الله عنه عن ميراث الجدة قال
مالك في كتاب الله من شيء وما علمت لك في سنته رسول الله ﷺ من
شيء ، ولكن أسأل الناس ، فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة
فشهد ان النبي ﷺ اعطاها السدس وقد بلغ هذه السنة عمران بن حصين
ايضاً . وليس هؤلاء الثلاثة مثل ابي بكر وغيره من الخلفاء ثم قد اختصوا
بعلم هذه السنة التي قد اتفقت الامة على العمل بها .

عدم اطلاع عمر بن الخطاب على كثير من احاديث رسول الله ﷺ

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يعلم سنة الاستئذان

حتى أخبره بها أبو موسى واستشهد بالانصار . وعمر أعلم من حدثه بهذه السنة ، ولم يكن عمر أيضاً يعلم أن المرأة تراث من دية زوجها بل يرى أن الدية للعاقلة ، حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان وهو أمير لرسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره أن رسول الله ﷺ ورث امرأة أشيم الضبائي من دية زوجها ، فترك رأيه لذلك وقال لو لم نسمع بهذا ، لقضينا بخلافه .

ولم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » . ولما قدم مرغ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسامة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة رسول الله ﷺ في الطاعون وأنه قال « اذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » (١) .

وتذاكر هو وابن عباس أمر الذي يشك في صلاته فلم يكن قد بلغته السنة في ذلك حتى قال عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ أنه يطرح الشك ويبني على ما استيقن .

وكان مرة في السفر فهاجت ريح فجعل يقول من يحدثنا عن الريح قال أبو هريرة فبلغني وأنا في أخريات الناس فحششت راحلتي حتى ادر كته فحدثته بما أمر به النبي ﷺ عند هبوب الريح .

فهذه مواضع لم يكن يعلمها حتى بلغه اياها من ليس مثله . ومواضع آخر لم يبلغه ما فيها من السنة ففقد فيها أو أفتى فيها بغير ذلك مثل ما قضى في دية الأصابع انها مختلفة بحسب منافمها . وقد كان عند أبي موسى وابن عباس وهما دونه بكثير في العلم ، علم بأن النبي ﷺ قال « هذه وهذه سواء » يعني الابهام والخصر فبلغت هذه السنة لمعاوية رضي الله عنه في

(١) حتى أعلمه بذلك عبد الرحمن بن عوف

أمارته ففضى بها ولم يجد المساهون بدأ من اتباع ذلك . ولم يكن عيباً في
عمر رضي الله عنه حيث لم يبلغه الحديث .

وكذلك كان ينهي المحرم عن التطيب قبل الاحرام وقبل الافاضة
الى مكة بعد رمي جمره العقبة وهو وابنه عبد الله رضي الله عنهما وغيرهما
من أهل الفضل ولم يبلغهم حديث عائشة رضي الله عنها : طيبت رسول
الله ﷺ لحرمه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف .

وكان يأمر لابس الخف أن يمسح عليه الى أن يخلعه من غير توقيت
وأتبعه على ذلك طائفة من السلف ولم تبلغهم احاديث التوقيت التي صحت
عند بعض من ليس مثلهم في العلم . وقد روي ذلك عن النبي ﷺ من
وجوه متعددة صحيحة .

عدم اطلاع عثمان على كثير من أحاديث رسول الله ﷺ

وكذلك عثمان رضي الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها
زوجها تعقد في بيت الموت حتى حدثته الفريضة بنت مالك اخت أبي سعيد
الخدري بقضيتها لما توفي زوجها وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « امكثي
في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » فأخذ به عثمان .

واهدي له مرة صيد - يعني وهو محرم - صيد كان قد صيد لأجله
فهم باكله حتى أخبره علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رد لحما
أهدي له .

عدم اطلاع علي على كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكذلك علي رضي الله عنه قال كنت اذا سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه واذا حدثني غيره استحلقتة
فاذا حلف لي صدقته . وحدثني ابو بكر وصدق ابو بكر وذكر حديث
صلاة التوبة المشهور .

وأفتى هو وابن عباس وغيرهما بأن المتوفى عنها إذا كانت حاملاً
تتعد بأبعد الاجلين . ولم يكن قد بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
في سبعة الاسامية حيث افتاها النبي صلى الله عليه وسلم بأن عدتها وضع
حملها .

وأفتى هو وزيد وابن عمر وغيرهما بأن المفوضة إذا مات عنها
زوجها فلا مهر لها . ولم تكن بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في
بروع بنت واشق .

وهذا باب واسع يبلغ المنقول منه عن أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم عدداً كثيراً جداً . اهـ

إذا كان حال هؤلاء الصحابة - رضي الله عنهم - كما ذكر الشيخ
ابن تيمية في عدم استيعاب كل منهم احاديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فكيف الحال بسواهم مما لا يبلغون علمهم ؟ لاشك أن عدم استيعابهم
لهذه الاحاديث أوضح . يقول ابن تيمية :

عدم اطلاع ائمة المذاهب على كثير من احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

« وأما المنقول منه عن غير (الصحابة) فلا يمكن الاحاطة به فانه
ألف ، فهؤلاء كانوا أعلم الأمة وأفقهها وأتقها وأفضلها فمن بعدهم أنقص ،
فخفاء بعض السنة عليه أولى فلا يحتاج الى بيان فمن اعتقد أن كل حديث
صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة أو اماماً معيناً فهو مخطيء خطأ
فاحشاً قبيحاً !!

ولا يقولون قائل : من لا يعرف الأحاديث كلها لم يكن مجتهداً ، لأنه
ان اشترط في المجتهد علمه بجميع ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وفعله فيما
يتعلق بالأحكام فليس في الامة مجتهد وانما غاية العالم أن يعلم جمهور ذلك

ومعظمه بحيث لا يخفى عليه الا القليل من التفصيل ثم انه قد يخالف ذلك
القليل من التفصيل الذي يبلغه (١) .

اقوال الائمة في اتباع السنة وترك اقوالهم المخالفة لها!

لهذا كله كان ائمة المذاهب رضي الله عنهم شاعرين بعدم اطلاعهم
على جميع السنة فكانوا ينصحون الناس بوجوب الرجوع الى الحديث
اذا صح .

ومن المفيد أن نسوق هنا ما وقفنا عليه منها أو بعضها ، لعل فيها
عظة وذكري لمن يقلدهم ، بل يقلد من دونهم بدرجات تقليداً أعمى (٢) ،
ويتمسك بمذاهبهم وأقوالهم كما لو كانت نزلت من السماء ، والله عز وجل
يقول : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء
قليلاً ما تذكرون ! » .

الامام أبو حنيفة

فأولهم الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه ، وقدروى
عنه أصحابه أقوالاً شتى وعبارات متنوعة كلها تؤدي الى شيء واحد
وهو وجوب الأخذ بالحديث ، وترك تقليد آراء الأئمة المخالفة له :

١ - « اذا صح الحديث فهو مذهبي » .

٢ - « لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذه » . وفي
رواية : « حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي » زاد في رواية :
« فأننا بشر نقول اليوم ونرجع عنه غداً » .

٣ - « اذا قلت قولاً يخالف كتاب الله وخبر الرسول صلى الله عليه
وسلم فاتركوا قولي » .

(١) عن رسالة رفع الملام عن الائمة الاعلام باختصار

(٢) وهذا التقليد هو الذي عناه الامام الطحاوي حين قال : « لا يقلد الا
عصي أو غي » نقله ابن عابدين في « رسم المفتي » ص ٣٢ ج ١ من « مجموعة رسائله » .

الامام مالك

وأما الامام مالك رضي الله عنه فقال :

- ١ - « إنما أنا بشر اخطيء واصيب فانظروا في رأيي فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه » ! -
- ٢ - « ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم الا ويؤخذ من قوله ويترك الا النبي صلى الله عليه وسلم » . (١)

الامام الشافعي

وأما الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه فالتقول عنه في ذلك أكثر وأطيب واتباعه أكثر عملاً بها وأسعد ، فمنها :

- ١ - ما من أحد الا من تذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتغرب عنه ، فهم اقلت من قول ، أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ماقلت ، فالتقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي » .

- ٢ - « اجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد ! » .

- ٣ - « اذا وجدت في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ماقلت ! » .

- ٤ - « اذا صح الحديث فهو مذهبي » .

- ٥ - « انتم أعلم بالحديث والرجال مني ، فاذا كان الحديث الصحيح فاعلموني به أي شيء يكون : كوفياً أو بصرياً أو شامياً ، حتى أذهب اليه اذا كان صحيحاً » .

(١) جاء في كتاب « الباعث الحثيث » للحافظ بن كثير : « وقد طلب المنصور من الامام مالك » أن يجمع الناس على كتابه (أي الموطأ) فلم يجبه الى ذلك ، وذلك من تمام علمه واتصافه بالانصاف ، وقال : (ان الناس قد جمعوا واطلعوا على اشياء نطلع عليها !!) (م.م)

٦ - « كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي » .

الامام احمد ابن حنبل

وأما الامام أحمد رضي الله عنه فهو أكثر الأئمة جمعاً للسنة وتمسكاً بها حتى « كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفریع والرأي » ولذلك قال :

١ - « لا تقلدني ولا تقلد ما لكأ ولا الشافعي ولا الاوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث اخذوا ! » .

٢ - « رأي الاوزاعي ورأي ابي حنيفة كله رأي ، وهو عندي سواء ، وانما الحجة في الآثار ! » .

٣ - « من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة !! » .

تلك هي اقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الامر بالتمسك بالحديث والنهي عن تقليدهم دون بصيرة ، وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً ، وعليه فان من تمسك بكل ما ثبت في السنة ولو خالف بعض أقوال الأئمة ، لا يكون مبيناً لمذهبهم ولا خارجاً عن طريقهم ، بل هو متبع لهم جميعاً ، و متمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقول بعضهم ، بل هو عاص لهم ومخالف لا قواهم المتقدمة والله تعالى يقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسألوا تسليماً » وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (١) » .

(١) اقوال الأئمة منقولة عن كتاب صفة صلاة النبي (صلى الله عليه وسلم)

لحدث الشام استاذنا محمد ناصر الدين الالباني ، ومصادرها موجودة مفصلة في كتابه المذكور ..

خلاف الائمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة

لقد رأينا من المفيد هنا أن ننقل طرفاً من رسالة (١) للامام ابن

(١) لقد نشر هذه الرسالة المصلح الاسلامي السيد محمد رشيد رضا في المنار (ج ٤ م ١٠) ثم افرد لها في نشرة خاصة وقدم لها بقوله :

« شرع الله تعالى لعباده على السنة جميع رسله ان يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ولكنهم كانوا يتفرقون في كل أمة فيزول ما يريد بالدين من معنى الاجتماع والائتلاف حتى اذا ما شرع الله لهم الدين العام الذي هو خاتمة الاديان شدد فيه التنفير من التنازع والتفرق والاختلاف واكد الامر بالاعتصام والاتحاد والائتلاف وقال لخاتم النبيين « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء!! » ومع ذلك لم تسلم هذه الامة من اتباع سنن من قبلها والاختلاف كما اختلفوا أو اشد ، ولما وقع الخلاف وكثرت المذاهب وصار لكل فريق انصار يخالفون الاخرين ويطعنون عليهم امتاز أهل الحق المعتصمون بحبل الله بالدعوة الى الاجتماع والالفة والتباعد عن التنازع والفرقة وجعلوا المرجع في ذلك الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عملاً بقوله عز وجل « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلاً » فكتاب الله ثابت لاتنازع فيه وسنة رسوله معلومة لاخلاف فيها فما جرى عليه وتبعه فيه اصحابه على طريقة واحدة بلاخلاف بينهم يتنعم فيه الخلاف من المؤمنين وما اختلف فيه العمل كان المؤمنون بخيرين فيه لايتنازع احد منهم اخاء نأخذ بغير ماأخذ هو به وكل جائز .

« وقد سمي هؤلاء بأهل السنة والجماعة لانهم يحكمون السنة العملية المتبعة فيما وتم وفيما هو خير فيه ويختارون الاجتماع والاتفاق على الخلاف والافتراق ولذلك كان من مزايهم التباعد عن تكفير اهل القبلة وتضليلهم لاجل الخلاف والعمدة عندهم في صحة الايمان وولاء اخوة الاسلام هو الاخذ المجمع عليه في العصر الاول المعلوم من الدين بالضرورة ويعذرون من اخطأ فيما عدا ذلك .

« ثم ان علماء اهل السنة قد كانوا ينظرون في وجوه الترجيح فيما اختلف فيه عمل اهل العصر الاول او الرواية عنهم فيأخذ كل واحد مايراد ارجح مع كونه يعذر من يأخذ بغير ما اختاره هو لاسيما اذا كان رأياً لا رواية. ثم حدث في الامة التقليد —

تيمية بعنوان « خلاف الأئمة في العبادات ومذهب أهل الجماعة والسنة » :
(قاعدة) في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين
الامة والرأي مثل الأذان والجهر بالبسملة والقنوت في الفجر والتسليم في
الصلاة ورفع الايدي فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع
والافراد والقران في الحج ونحو ذلك فان التنازع في هذه العبادات الظاهرة
والشعائر اوجب انواعاً من الفساد الذي يكرهه الله ورسوله وعباده
المؤمنين .

(احداها) جهل كثير من الناس أو أكثرهم بالأمر المشروع المسنون
الذي يحبه الله ورسوله والذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته
والذي أمرهم بالتباعه .

(الثاني) ظلم كثير من الامة أو أكثرهم بعضهم لبعض وبغيم عليهم
قارة بنهم عمالم ينه الله عنه وبغضهم على من لم يغضهم الله عليه وتارة بترك
→ وصار كل فريق يتعصب العالم من أئمة علماء الامصار من بعدهم فعاد بذلك التفرق
والاختلاف المعقوتان عند الله الى المتسيبين الى اهل السنة والجماعة ووجد بذلك اهل
البدع ما وجدوا من المطاعن عليهم وعلى مذهبهم بل ذلك مما طعن به في اصل الدين ! .
« سبق لنا قول في هذا الخلاف ومضاره ورأي في تلافيه واتقاء اخطاره
ودعناها مقالات محاورات المصلح والمقلد (التي جمعت من المنار وطبعت في كتاب مستقل)
وايدناه بما كتبه الامام ابو حامد الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم من الدعوة
الى ازالة الخلاف بالاخذ بالجمع عليه والتخير في المختلف فيه وقليل من الناس من يترك
كل ما أجمع على وجوبه ويفعل ما سهل عليه مما أجمع على ندبه واستحبابه ولكن المرزوين
بالتعصب للذهاب يسئل عليهم قطع اخوة الايمان بسبب خلاف في رواية أو رأي مما
لم يجمع عليه المسنون وهم مع ذلك يتركون بعض الفرائض ويرتكبون بعض المحرمات
ويحسبون ذلك أهون من الخلاف في الدين .

« وقد قرأنا في هذه الايام رسالة الشيخ الاسلام احمد تيمية في مسألة الخلاف
في العبادات وحقيقة السنة والجماعة فأثرنا نشرها رجاء ان ينفع الله بها المسلمين » وذكر
هان الذكري تنفع المؤمنين » .

ما أوجب الله من حقوقهم وصلاتهم لعدم موافقتهم له على الوجه الذي يؤثرونه حتى يقدمون في الموالاة والمحبة واعطاء الاموال والولايات من يكون مؤخراً عند الله ورسوله ويتروكون من يكون مقدماً عند الله ورسوله لذلك .

(الثالث) اتباع الظن وما تهوى الأنفس حتى يصير كثير منهم مدينياً باتباع الأهواء في هذه الامور المشروعة . وحتى يصير في كثير من المتفقهة والمتعبدة من الأهواء من جنس ما في أهل الأهواء الخارجين عن السنة والجماعة كالأجارج والروافض والمعتزلة ونحوهم . وقد قال تعالى في كتابه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) وقال في كتابه (لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) .

(الرابع) التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضاً ويعادية ويحب بعضاً ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضي الأمر ببعضهم الى الطعن واللعن والهمز واللمز وبعضهم الى الاقتتال بالأيدي والسلاح وبعضهم الى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض ، وهذا كله من أعظم الامور التي حرمها الله ورسوله . والاجتماع والائتلاف من أعظم الامور التي أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تعوتن الا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا - الى قوله - ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل

البدعة بخروجه عن السنة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامتته
ومن أهل الفرقة والمخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله وقال تعالى
« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وقال تعالى « وما
اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى « وما
تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة » وما امروا الا
ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء ، وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك
دين القيمة » وقال تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » وما اختلف الذين
أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » وقال تعالى « وآتيناهم
بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد جاءهم العلم بغياً بينهم » وقال الله
تعالى « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة »
وقال تعالى « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » وقال « انما المؤمنون
اخوة فاصلحوا بين اخويكم » وقال « الا من أمر بصدقة أو معروف
أو اصلاح بين الناس » . وهذا الاصل العظيم وهو الاعتصام بمجمل الله جميعاً
وأن لا يتفرق هو من أعظم اصول الاسلام ، وأعظم وصية الله به في كتابه (١) اه
يشترك في هذا الرأي مع شيخ الاسلام ، امام جليل هو الامام
الشيخ أبو عبد الله بن أبي النصر الحميدي صاحب كتاب « الجمع بين الصحيحين »
في رسالة له مخطوطة في مكتبة الأوقاف الاسلامية بجلب تحت رقم (مولوية
١٩٦) رأيت أن اذكر مقاطع منها كتلخيص لها :

وقد استشرف بعض الطالبين الى معرفة الأسباب الموجبة للاختلاف
من بين الائمة الماضين - رضي الله عنهم - مع اجماعهم على الأصل المنفق

(١) نحن لانشارك الامام الغزالي الذي جاء في تعليق الامام السيد
رشيد رضا في ازالة الخلاف بالاخذ بالجمع عليه ، انما تكون ازالة هذا
الخلاف بالرجوع الى الكتاب والسنة !

عليه المستبين حتى احتيج الى تكليف التصحيح في طلب الصحيح، وقربت على هذا الطلب معرفة بعض العذر في اختلاف المتأخرين لبعدهم عن المشاهدة وانما تعذر عليه معرفة الوجه في اختلاف الصحابة - رضي الله عنهم - مع مشاهدتهم نزول التنزيل وأحكام الرسول صلى الله عليه وسلم وحرصهم على الحضور لديه والقعود بين يديه والأخذ منه...

لم يكن كل واحد من الصحابة على علم بجميع

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولاشك أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا بالمدينة حوله صلى الله عليه وسلم مجتمعين وكانوا ذوي معاش يطلبونها ، وفي ضحك من القوت فمن محترف في الاسواق ومن قائم على نخله ، ويحضره صلى الله عليه وسلم في كل وقت طائفة منهم واذا وجدوا أدنى فراغ فيأهم بسبيله ، وقد نص على ذلك ابوهريرة - رضي الله عنه - فقال : ان اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق ، وان اخواني من الانصار كان يشغلهم القيام على نخلهم ، وكنت امرءاً مسكيناً أصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني . وقد قال عمر - رضي الله عنه - : الهاني الصفق بالاسواق في حديث استئذان ابي موسى ^(١) . فكان صلى الله عليه وسلم يسأل عن المسألة ويحكم بالحكم ويأمر بالشيء ويفعل الشيء فيحفظه من حضره ويعيب عن من غاب عنه ^(٢) وقد كنا ذكرنا فيما سبق من كلام ابن تيمية أمثلة على ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم - رضي الله عنهم - وذكر هذا المؤلف أمثلة غيرها - تؤيد

(١) أخرجه البخاري ٢٧٤/١٣ - ٢٧٥ بشرح الفتح وأحمد رقم ٧٢٧٣ ورقم

٧٦٦١ ومسلم ٢/٢٦١ وغيرهم

(٢) أخرجه البخاري ٢٣/١١ والدارس ٢/٢٧٤ وأبو داود رقم ٥١٨٠

وابن ماجه رقم ٣٧٠٦ وغيرهم

كلامه و كلام ابن تيمية في أن الصحابة - رضي الله عنهم - لم يكن كل
منهم مطلعاً على جميع السنة !

تفوق الصحابة في البلاد بسبب الفتح

ومما قاله الشيخ الحميدي رحمه الله :

« ... فلما ولي عمر - رضي الله عنه - فتحت الامصار وتفرق الصحابة
في الاقطار ، فكانت الحكومة تنزل بمكة أو بغيرها من البلاد ، فان كان
عند الصحابة الحاضرين هانص حكم به ، والا اجتهدوا في ذلك ، وقد
يكون في تلك القضية نص موجود عند صاحب آخر في بلد آخر . وقد
حضر المدني مالم يحضر المصري ، وحضر المصري مالم يحضر الشامي ،
وحضر الشامي مالم يحضر البصري ، وحضر البصري مالم يحضر الكوفي ،
وحضر الكوفي مالم يحضر المدني ، كل هذا موجود في الآثار وتقتضيه
الحالة التي ذكرنا من مغيب بعضهم عن مجلسه عليه السلام في بعض الأوقات
وحضور غيره ... »

وهكذا اختلف التابعون بعد الصحابة

ثم ينتقل المؤلف بعد كلام طويل الى الكلام على التابعين وائمة
المذاهب - رحمهم الله تعالى - فيقول :

« فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم ،
وكل طبقة من التابعين في البلاد التي ذكرنا ، فانما تفقهوا مع من كان عندهم
من الصحابة ، فكانوا لا يتعدون فتاويهم لاتقليداً ^(١) لهم ولكن لأنهم

(٢) قال الاستاذ حمدي عبد المجيد الذي راجع احاديث هذه
الرسالة تعليقا على كلمة التقليد : « رحم الله المؤلف فانه لم يرض التقليد ! وعدم الرضا بالتقليد
هو دأب السلف الصالح ، بل نهوا عن ذلك نهياً شديداً ، فخلف من بعدهم خلف نسوا
ما بنى لهم اجدادهم من صروح الفكر وحرية الرأي ضمن نطاق الشريعة الاسلامية ، فرضوا
بالتكاسل جنائياً على عقولهم وافكارهم ! »

أخذوا ورووا عنهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة - رضي الله عنهم - كاتباع أهل المدينة في الاكثر فتاوى ابن عمر - رضي الله عنه - واتباع أهل مكة في الاكثر فتاوى ابن عباس - رضي الله عنه - واتباع أهل الكوفة فتاوى ابن مسعود - رضي الله عنه - .

رفع الملام عن الائمة الاعلام

ثم اتى من بعد التابعين فقهاء الامصار كأبي حنيفة وسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة ، وابن جريج بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعمار البتي وسوار بالبصرة ، والاوزاعي بالشام ، والليث بمصر ، فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده وتابعوهم عن الصحابة - رضي الله عنهم - فيما كان عندهم ، وفي اختلافهم فيما ليس عندهم وهو موجود عندهم « ولا يكلف الله نفساً الا وسعها » وكل من ذكرنا مأجور على ما أصاب فيه أجرين ، ومأجور فيما خفي عنه ولم يبلغه أجراً واحداً ، قال الله تعالى : « لا نذر لكم به ومن بلغ ! » .

زوال سبب الخلاف ولم يبق لاحد عذر في ترك السنة بعد أن جمعت

ثم قال الشيخ الحميدي :

« ثم كثرت الرحل الى الآفاق وتداخل الناس ، وانتدب أقوام لجمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمه وتقييده ، ورحل من البلاد البعيدة الى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه وجمعت الاحاديث المينة لصحة أحد التأويلات المتأولة في الحديث ، وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدي الى خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى ترك عمله ، وسقط العذر عن من خالف

ما بلغه من السنن يبلوغها اليه ، وقيام الحجة بها عليه ، فلم يبق الا الانقياد والتقليد (١) اهـ

وقبل ختام هذا الموضوع لابد من ان ارسلها صيحة مدوية في وجوه الذين يزعمون أن للاختلاف فائدته ، استناداً الى الحديث الباطل « اختلاف امتي رحمة » قائلًا لهم ان الاختلاف نقمة ، وقد ذمه الله سبحانه في مواضع عديدة (وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون !) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) ، (ولو كان من عند غيرهم لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) قال المزني : « قدم الله الاختلاف وأمر عنده بالرجوع الى الكتاب والسنة ، فلو كان الاختلاف من دينه مآذمه ولو كان التنازع من حكمه ما أمرهم بالرجوع عنده الى الكتاب والسنة (٢) . »

قال المزني ايضاً : « ... وقد اختلف اصحاب رسول الله ﷺ ، فخطأ بعضهم بعضاً ، ونظر بعضهم في أقاويل بعض وتعقبها !! ولو كان قولهم كله صواباً عندهم لما فعلوا ذلك ، وغضب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من اختلاف ابي بن كعب وابن مسعود في حكم الصلاة في الثوب الواحد... فخرج عمر مغضباً ، فقال : اختلف رجلان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ينظر اليه ويؤخذ عنه !! وقد صدق

(١) ابي التقليد لرسول الله المصوم ، لا لرجال غير معصومين. وهذا مما يفهم من كلام المؤلف (م)
(٢) مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ١٤٦

أبي ، ولم يأل ابن مسعود ، ولكني لا اسمع احداً يختلف بعد مقامي هذا
الا فعلت به كذا وكذا !!

وجاء في كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله (ص ١٤٤) «عن
اشهب قال سئل مالك عن اختلاف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : خطأ وصواب ! فانظر في ذلك . وعن يحيى بن ابراهيم بن مزين
عن اصبع قال قال ابن القاسم سمعت مالكا والليث يقولان في اختلاف
اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كما قال ناس فيه توسعة ! ليس
كذلك انما هو خطأ وصواب .»

قال ابو عمر : الاختلاف ليس بحجة عند احد علمته من فقهاء الامة
الا من لا بصر له ولا معرفة عنه ولا حجة في قوله . قال المزني يقال لمن
جوز الاختلاف وزعم ان العالمين اذا اجتهدوا في الحادثة ، فقال احدهما
حلال والآخر حرام ، فقد ادى كل واحد منهما جهده وما كلف ، وهو
في اجتهداه مصيب الحق ، (يقال له) : أبأصل قلت هذا ام بقياس ! ؟
فان قال بأصل ، قيل له كيف يكون اصلا والكتاب اصل ينفي الخلاف !
او ان قال بقياس ، قيل كيف تكون الاصول تنفي الخلاف ويجوز لك
ان تقيس عليها جواز الخلاف ، هذا مالا يجوز عاقل فضلاً عن عالم ! ..
وملخص القول ان الله سبحانه امرنا بتحكيم القرآن والسنة ، وكذلك
حثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حثنا ائمة المذاهب انفسهم ونهوا عن
تقليدهم وحضونا على طلب الدليل كما رأينا فيما سبق ، فان التقليد آفة
العلماء ، وقد ذمه الله سبحانه في مواضع عديدة ، فهو يبعد المسلم عن دينه
الصحيح في كثير من الاحيان ، ويؤدي الى جهود الذهن وبلادة النفس
مما يسبب انحطاط الافراد والجماعات ، وانني استطيع ان اجزم ان انهيار الامة

الاسلامية كانت بدايته يوم ان ترك علماءها الاجتهاد وأخلدوا الى الكسل والتقليد ! فكلم ازدهرت الحضارة الاسلامية يوم كان العلماء وتلاميذ ائمة المذاهب يردون أقوالهم ويعارضونها بالادلة ..

ثم لما اخذ التقليد برقاب من يدعون العلم ويحسبون انهم علماء ومقات ، وما كان لعالم او لمفتي ان يقلد ، جمدت الازهان وانحطت الهمم وضعفت الامة وانهارت الدولة الاسلامية

قامع البدع والاهام

وجه الامام ابن تيمية اهتمامه العظيم الى تنقية الاسلام مما ألحق به الادعياء والخرافيون من البدع والاهام التي أضاعت رونقه وبهائه وقوته ، حتى ظنه الكثيرون عبارة عن طرق وحلقات رقص ، وطبول وزمور ، ومثائم . كما ظنوه اذكاراً وأوراداً مبتدعة وخلوات بطالة وحرمان من طيبات الدنيا واستسلام للاوهام واستغاثة بقبور الصالحين والنذر لها . وآمنوا بالجبر الذي لا يفيد معه العمل ، فزهده المساهون وتواكلوا حتى غدوا في تأخر وانحطاط عظيمين .

وقد ألف شيخ الاسلام عشرات الرسائل في بيان مزايا الاسلام والرد على خصومه ، وأوضح بكل جرأة وصراحة أعمال المضللين الذين حجبوا نور الاسلام الصحيح عن الناس رغبة منهم في استثمارهم وتركهم في غفلتهم يعمهون فلاحهم موقظونهم من ضلالتهم خشية على امتيازاتهم ، ولاهم يدعون المصلحين يقومون بدور الاصلاح ، فاثاروا الغوغاء والرعاع الذين يعتدون عليهم في مجاربة المصلحين واختلقوا عليهم مختلف الافتراءات والأكاذيب والتهمة بالكفر والزندقة !

لم يبال الامام ابن تيمية بهذا الهجوم فكان يحارب البدع والمنكرات بالحجاسة التي كان يحارب بها اعداء الله ، وذلك لما لهذه البدع من آثار سيئة ونتائج خطيرة على المسلمين نحن ذاكرون بعضها :

١ - ان في عمل البدعة ترك ما أمر الله ورسوله به ، وبذلك يحرم المسلمون النصر والتوفيق للذين وعد الله سبحانه عباد الطائعين .
٢ - التمسك بسفاسف وأوهام على أنها من الاسلام ، والاسلام بريء منها ، فتثير الشكوك والشبه من الدين نفسه ، وتبعث على النفور منه .

٣ - تؤدي أكثر البدع الى اضاءة الثروة القومية ، وتسبب لفاعلها خسائر مادية كثيرة ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، لناخذ مثلاً على ذلك بدع المآتم والجناز .

٤ - اضاءة طاقة المسلم وصرفها عن الابداع في امور الدنيا التي أمر بوجوب الابتداع فيها . والغريب أن المبتدع حريص على الابداع في الدين لا في الدنيا !!

٥ - ارتكاب المسلم للحرام وقت قيامه بالبدعة ، مادامت اكل بدعة ضلالة ، فيدخل في مضمون الآية الكريمة : « قل هل انبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .
٦ - ان كل بدعة تطرد سنة وتطمس معالم الاسلام .

٧ - صعوبة تطبيق البدع ، فينفر المسلمون منها طائنين ابتعادهم عن الاسلام ، فتوحي اليهم نفوسهم الوقوع في الخطيئة ، وهم ابرياء منها ، مما يسبب اضطراباً في الشخصية .

٨ - ترك مبادئ الاسلام القوية والمفيدة ، والتمسك بالأوهام

والخرافات ، مما يسبب ضعف مقاومة المسلمين وسرعة انهيارهم أمام العدو .

٩ - اختلاف المسلمين في النسق ، مما يسبب خلافهم ونزاعهم وتفرقهم الى طوائف و فرق متباينة . ولا يخفى أن توحيد العبادات بين الناس خليف بتوحيد الأهداف والميول .. والى هذا المعنى يشير ابن تيمية في رسالة الفرقان : « فاذا ترك الناس بعض ما انزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول ﷺ وما تمسكوا به من شرعة ، مما أخبر به وما أمر به ، أما ما ابتدعوه فكله ضلالة !! »

والحق - والحق أقول - أن من أعظم عوامل ضعف المسلمين هذه البدع والأوهام والخرافات المنتشرة بينهم التي بدلت مفهوم الاسلام القوي بمفهوم ضعيف سخيف ، هو أشبه بافنون منه الى قوة الاسلام وعظمة الاسلام . فكان نتيجة ذلك انخراط المسلمين ونومهم وتقهقرهم . واليوم لانجاح لهم ولا نصر الا بالعودة الى الاسلام في صفائه الفطري وأصله الأول الذي جعل منهم خير أمة اخرجت للناس .

وقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية مولعاً بمحاربة البدع بيده ، مما استطاع الى ذلك سبيلاً ، شأن العلماء الحقيقيين ، عملاً بالحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان . »

وقد صنف خادم ابن تيمية ، ابراهيم بن أحمد الغياني ، رسالة صغيرة في هذا الموضوع يذكر فيها بعض الحوادث العملية في محاربة الامام للبدع والالوهام ، جاء في مطلعها :

« أما بعد فهذا فصل فيما قام به الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام
 تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية - رضي الله عنه - وتقرّد به دون
 غيره من العلماء - رضي الله عنهم - الذين كانوا قبله ، وفي زمانه وذلك
 بتكسير الاحجار ^(١) التي كان الناس يزورونها ويتبركون بها ، ويقبلونها
 وينذرون لها النذر ، ويلطخونها بالخلق ، ويطلبون عندها قضاء حاجاتهم ،
 ويعتقدون أن فيها - أوهها - سرّاً ، وأن من تعرض لها بسوء - يقال أو
 فعال - أصابته في نفسه آفة من الآفات .

« فشرع الشيخ يعيب تلك الأحجار ، وينهي الناس عن اتيانها ، أو
 أن يفعل عندها شيء مما ذكر ، أو أن يحسن بها الظن .

« فقال له بعض الناس : انه جاء حديث أن ام سلمة سمعت النبي
 ﷺ يقرأ بالتين والزيتون ، فأخذت تينة وزيتونة ، وربطت عليهما وعلقتهما
 حرزاً وبقيت كلما جاء اليها أحد به مرض تحطه عليه فيبرأ من ذلك المرض
 فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فسأها عن ذلك ، فقالت : سمعتك تقرأ بالتين
 والزيتون ، فقلت : ماقرأ رسول الله ﷺ بذلك الا وفيه مرأ ومنفعة ،
 فعملت تينة وزيتونة لي حرزاً ، وأحسن ظني به ، ونفعت بذلك
 الناس . فقال لها النبي ﷺ : لو أحسن أحدكم ظنه بمحجر لنفعه الله به !!
 « فقال الشيخ : هذا الحديث كله - من أوله الى آخره - كذب

مختلق ، وافك مفترى على رسول الله ﷺ وعلى ام سلمة رضي الله عنها
 والذي صح وثبت عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال :
 « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه اذا دعاني ... » الحديث و « أنا عند
 ظن عبدي بي ، فليظن بي خيراً » وقال : « لا يموتن أحدكم الا ويحسن

(١) مثل العمود المخلوق الذي داخل «الباب الصغير» وبلاطة سوداء في العلافين
 في مسجد الكهف وصخرة مسجد النارج .

ظنه بالله الذي تفرد بخلقه وأوجده من العدم ، ولم يكن شيئاً ، وبيده
ضره ونفقه ، كما قال امامنا وقدوتنا ابراهيم خليل الرحمن : «الذي خلقي
فهو يدين ، والذي يمتني ثم يحين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم
الدين » فهذا الرب العظيم الكبير المتعال ، الذي بيده ملكوت كل شيء
يحسن العبد به ظنه ، ما يحسن ظنه بالأحجار ، فان الكفار احسنوا ظنهم
بالأحجار ، فأدخلهم النار . وقد قال الله تعالى في الأحجار وفيمن أحسنوا
بها الظن حتي عبدوها من دونه : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم
وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة » . وقال : « انكم وما تعبدون
من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » وقد أمر النبي ﷺ ان
يستحجر من البول بثلاثة أحجار ، ما قال أحسنوا ظنكم بها ، بل
قال : استحجروا بها من البول » وقد كسر النبي ﷺ الأحجار التي
أحسن بها الظن حتى عبدت حول البيت وحرقها بالنار .

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

رأي الامام ابن تيمية بثاقب فكره وبعد نظره أن الوحدة الوطنية تتم بالوحدة العقائدية، فأخذ رضي الله عنه يسعى لتوطيد دعائم هذه الوحدة على اسس ثابتة بالبرهنة للنصاري على التوحيد الخالص ، وعلى صحة الاسلام وصدق نبوة محمد ﷺ من كتبهم نفسها فألف كتابه العظيم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » لهذه الغاية (١) وقد نقلت هذا البحث من كتاب « حياة شيخ الاسلام ابن تيمية » للاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار الذي مهد له بقدمه قيمة :

وأنا لنأمل أن يكون في هذا البحث لآخواننا في الدين ، عون لمعرفة الحق وبيان له للناس ، كما يكون لآخواننا في الوطن شعلة للنجاة من تضليل المضللين خدام الاستعمار وأعداء الوحدة الوطنية التي تقوم على أساس من العقيدة الواحدة والعاطفة المشتركة !

والغريب أن تستمر هذه الهوة بين المواطنين في وقت بشر السيد المسيح عليه السلام بمجيء نبي عربي بعده وميزه عن مدعي النبوة الكذبة بقوله :
« من ثارهم تعرفونهم ! »

فهل في البشرية جمعاء من هو أعظم ثاراً من محمد عليه صلوات الله وسلامه ؟

(١) وكان الامام ابن تيمية تحقيقاً للهدف نفسه ، كتب الى سلطان المسلمين رسالة مطولة ذكرناها في هذا الكتاب ينصحه فيها بتصحيح عقيدة الباطنيين عن طريق القرآن والسنة فلا يهودون ويتعاونون مع اعداء الوطن كالمصلبيين والتتار ، نتيجة الخلاف الديني الذي اختلفه اعداء العروبة والاسلام لتمزيق الشمل وتفريق الجمع والقضاء على المجد وتسهيل عملية الاستعمار !

لقد شهد بصدقة وعظمته حكماء الغرب والشرق ، فالى متى هذا
الانتظار للنبي الموعود ؟!

آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داوود (التوراة
والانجيل والزبور) وجدها طافحة بالدعوة الى توحيد الله تعالى ،
والوعيد الشديد على الشرك ، مملوءة بالبشارات بظهور رسول
الله محمد عليه الصلاة والسلام الى الناس كافة . فأما تنزيه الآله والرب عن
الوالد والولد ، وعن الند والزند ، فتراه في الفصول والاعداد (وهي
كالسور والآيات) من أسفار التوراة ، كثنائية الاشتراع ، وسفر الخروج ،
وأشعياء ، مثل قوله : « ان الرب هو الاله ، وليس آخر سواه » « لا يكن
لك آلهة أخرى أمامي » « لا تسجد لمن ولا تعبدن ، لأنني أنا الرب الهك
اله غيور » « ولكي يعلموا من مشرق الارض ومن مغربها أن ليس غيري
أنا الرب وليس آخر » .

وفي انجيل مرقس : فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هي :
اسمع يا اسرائيل : (الرب الهنا رب واحد) (الفصل ١٢ عدد ٢٩) .
وفي انجيل يوحنا : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي
وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (الاصحاح ١٧/٣) .

ليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة
فهي كثيرة ، ولا تقل البشائر التي لا تنطبق الا على النبي العربي محمد خاتم
النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير ، في
كتابه (اظهار الحق) عن الكتب المعتمدة عند علماء البروتستانت ثمانى
عشرة بشارة ، وسبقه الى مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الذي عقدنا

هذا الفصل للكلام على كتابه (الجواب الصحيح) ، وتبعه فيه تلميذه
 الأمام ابن القيم في كتابه (ارشاد الحيارى) . وحسبي الآن أن أنقل
 شاهداً واحداً من التوراة ، وآخر من الأنجيل ، وكلمات قليلة من الزبور
 أو الزامير ، تأييداً لما جاء في القرآن من بشارات الوحدة والسلام ، والاهتاف
 ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكي لا يكون على المؤمنين بالكتب
 المقدسة حرج إذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه
 المرسلين وصدقهم ، ولتقوم الوطنية على أساس المساواة التامة بين أبناء
 الوطن الواحد ، وهذا موضوع جليل ، ومطلب خطير ، يهم أهل الملل
 السماوية ، وعلماء الاجتماع الانساني ، لأنه يدعو الى الوحدة الصحيحة ،
 بلسان الكتب الالهية ، والعاملين بها ، ومن واجب العلماء بيان هذه
 الوحدة الدينية من الكتب المنزلة ، لتؤيد بها وحدتنا القومية .

بشارة موسى بمحمد

جاء في العدد الخامس عشر من الأصحاح (أو الفصل كما في الطبعة
 اليسوعية من سفر التثنية ^(١)) : « يقيم لك الرب الهك نبياً
 من وسطك من اخوتك مثلي ، له تسمعون » فهذه البشارة صريحة في محمد
 عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود ،
 ومن اخوتهم بني اسماعيل غير النبي العربي محمد ، وأبناء العم يسمون أخوة ،
 ومن ذلك تسمية أبناء عمهم (عيسو) أخوة لهم كما في ٢ : ٤ و ٨ من
 التثنية ، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام
 لقال : أقيم منكم أو من نسلكم ، لا من اخوتكم ، لأن يسوع المسيح

(١) التثنية : اسم السفر الخامس من أسفار العهد القديم ، وقد أطلق عليه
 التثنية ، لأنه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية .

ابن داود ابن ابراهيم ، كما في متى (١١: ١٦ - ١٦) فهو من نسل اسحق ،
لامن نسل اسماعيل عليهم السلام .

بشارة الانجيل بالنبي العربي

جاء في انجيل يوحنا (١٦: ١٢ و ١٣) ان لي أموراً كثيرة أيضاً أقول
لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق
فهو يرشدكم الى الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع ، يتكلم
به ، ويخبركم بأمر آتية ، فحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي
الله اليه ، قال تعالى : سورة النجم : ٣ و ٤ « وما ينطق عن الهوى ان هو
الا وحي يوحى » وملكة محمد هي ملكة الله في الارض المسماة في العهد
الجديد بملكوت الله ، وملكوت السموات ، وكان المسيح وتلاميذه
يُبشرون الناس بمجيئها ، وأمر عليه السلام أن يطلبوا اتيانها من الله في
صلواتهم ، أنظر متى (٢: ٣ و ١٧: ٤ و ٢٣ و ١٠: ٦ و ١٣: ٣١ و ٣٢ و ٢٠:
١٦ - ١٦ و ٣٣: ٢١ و ٤٤ و لوقا ١٠: ٢٩ و ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت
صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ، ولذلك شبهها عليه السلام
بالزرع الجيد وبالخميرة ومجبة الخردل ، التي تصير أكثر البقول ، حتى أن
طيور السماء تأتي ، وتتأوى في أحضانها ، (وفي طبعة الجزويت : تستظل
في أغصانها ، متى ١٣: ٢٤ - ٣٥) وهي منطبقة على مافي القرآن الكريم في
محمد وأتباعه ، « ومثلهم في الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ،
فاستغلف ، فأستوى على سوقه » (سورة الفتح الآية : ٤٨) شطأه : أي فراخه
يقال : أشطأ الزرع ، اذا فرخ ، فآزره من المؤازرة ، وهي المعاونة ، أي
فشد أزره وقواه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على قصبه ، جمع ساق
وهذا مثل ضربه الله لبدنه أمر الاسلام ، والنبي عليه السلام ، قام وحده

ثم قواه الله بن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف به
ما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع .

بشارة حبقوق وذكر بلاد العرب فيها

قال حبقوق ^(١) (٣: ٣ و ٤) « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال
فاران ، سلاه ^(٢) جلالة غطي السموات ، والارض امتلأت من تسبيحه ،
وكان لمعان كالنور ، له من يده شعاع ، وهناك استنار قدرته . »

فتيمان بلاد العرب ، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية ، لأنها
جنوب بلاد الشام ، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة
قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة أيضاً الصحراء الجنوبية ، وتيماء
أيضاً اسم قبيلة اسماعيلية تسلسلت من تيماء ، وكانت تقطن بلاد العرب
(تك ٢٥ : ١٥ و ١١ ي ٣٠ / ١) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي .
أما جبل فاران فهو في البرية التي سكنها اسماعيل ابو العرب (تك ٢١ / ٢١)
فكأن حبقوق أشار بعبارته هذه الى مسكن رسول الله . وهو بلاد
العرب (أو التيمان) والى مسكن أهله ، أوجده اسماعيل . وهو برية فاران .

التصريح ببكة وهي مكة

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٦٥) « طوبى لأناس عزهم

(١) نبوة حبقوق : هي السفر الخامس والثلاثون من أسفار العهد القديم
حسب ترتيبها الاصلي ، وأما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس
الكتاب المقدس .

(٢) قال بعض المحشين : سلاه : اختلفوا في تفسيرها على أقوال ، أرجحها
في رأينا وهو ما ذهب اليه أشهر المتأخرين من علماء العبرانية - أنها عبارة عن الامر
بالسكوت أو الوقف - ايعاز للمنشد ان يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها
الآلات باللحن

بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكا « والأصل العبراني :
وادي (بكة) فأبدل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي (مكة) في
نص القرآن (١)

التصريح باسم محمد

من ذلك ما جاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ : حلقه حلاوة ،
وكله مشتهيات ، هذا حبيبي ، (هذه ترجمة البروتستانت ، وترجمة
اليسوعيين : حلقه أعذب ما يكون ، بل هو بجملة ، هذا حبيبي) .
ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني (محمد يم) والقواميس العبرانية
تقول : ان هذه اللفظة لاتفيد مشتهيات ، ولكن تفيد أنه محمود ، ونقول
أن هذه صيحة في نبينا عليه السلام ، وقوله قبلها حلقه حلاوة : كناية عن
فصاحة كلامه ، لم يأت نبي بكلام أحلى مما جاء به خاتم الأنبياء ، وقوله
بعدها هذا حبيبي نص في لقب النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه حبيب
الله عز وجل .

ومنه ما جاء في الفصل الثاني من النشيد : أسمعني صوتك ، لأن صوتك
لطيف ، ووجهك جميل ، وفي الأصل العبراني : (عرب) بدل (جميل)
أي عربي . ومنه ما في الفصل الثاني من نبوة حجي أو حجاي أو حكاي
- كما في الأصل العبري : ٧ وازلزل كل الامم ويأتي مشتهى كل الامم
وأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود . وكلمة مشتهى هذه ، أصلها العبراني
(حمدات) ومعناه محمود ، وهي من الفعل العبراني (حمد)

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها

(١) ضبطنا الالفاظ العبرية على أهلها ونقلنا بعض معانيها الى العربية بالتعاون معهم .

بشرت بالنبي العربي ، وذكرته باسمه الكريم ، وصرحت باسم بلاده ،
وعمل ميلاده وهو مكة .

أفرايتم كيف ألقت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة ؟ وهذا
هو الأخاء الصحيح ، بين محمد وموسى والمسيح ، عليهم الصلاة والسلام ،
وهذا بعض نصوصه وبشائره ، وهي قليل من كثير مما عثرنا عليه ، ولو
اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين أيديهم من الكتب المقدسة ،
- دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي أصل العقيدة
ومستندها - لاجتمعت الكلمة ، واحكمت عرى المودة القلبية بين
المختلفين .

الجواب الصحيح ... لمن بدل دين المسيح

« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » المطبوع بمصر (١٣٢٢ هـ -
١٩٠٥ م) يقع في أربعة أجزاء وهي تبلغ أكثر من ألف وأربعمائة صفحة
بالقطع المتوسط ، وقد ذكر شيخ الاسلام في طلائع كتابه أنه جعله جواباً
لكتاب ورد من قبرص « فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء
دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى
أن نذكر من الجواب ، ما يحصل به فصل الخطاب » (ثم قال) : وأنا
أذكر ما ذكره بالفاظهم بأعيانها - فصلاً فصلاً ، وأتبع كل فصل بما
يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً ، وعقداً وحلاً ... فان هذه الرسالة
وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماءهم بينهم ، والنسخ
بها موجودة قديمة ، وهي مضافة الى بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي
كتبها الى بعض اصدقائه ، وله مصنفات » .

وقد اشتمل رد شيخ الاسلام على ستة فصول :

١ - دعواهم أن محمداً ﷺ لم يبعث الا الى أهل الجاهلية من العرب .

٢ - دعواهم أن القرآن أُنْزِلَ على دينهم الذي هم عليه .

٣ - دعوى أن نبوات الأنبياء المتقدمين تشهد لدينهم الذي هم عليه من الاقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك .

٤ - فيه تقرير ذلك بالمعقول .

٥ - دعوى أنهم موحدون والاعتذار عما يقولونه من الالفاظ يظهر منها تعدد الآلهة كالفاظ الاقانيم الخ ...

٦ - أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال فلا حاجة بعد النهاية الى شرع مزيد على الغاية (١) .

والفرض الأول من تأليف « الجواب الصحيح » على ما يظهر ، هو بيان اصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة ، وانها واحدة . (قال) وهذا أصل دين المسلمين ، فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد فهو عندهم كافر ، « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله » (٢) والمنسوخ التي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة الى ما اتفقت عليه الكتب والرسول . فان الذي اتفقت عليه هو الذي لا يبدل للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف

(١) ص ١٩ و ٢٠

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٨

عليهم ولاهم يحزنون » (١) وعامة السور المكية كالأنعام والاعراف وآل حم وآل طس وآل الر - هي من الاصول الكلية الذي اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والاخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الانبياء من التوراة والانجيل والزبور ونبوات الانبياء ، توافق المنقول عن محمد ﷺ يشهد هذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد ﷺ ومن دلائل نبوة اولئك الانبياء (٢)

الابن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه السلام

وقد أوضح ان الابن ليس كلمة ولاصفة ، ولاهو خاص بالمسيح ، وانما يراد به المصطفى المكرم ، (قال) (٣) : المراد بالابن ناسوت المسيح ، وروح القدس ما أنزل عليه من الوحي ، والمملك الذي نزل به ، فيكون قد امرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما انزله على رسوله ، والمملك الذي نزل به ، وبهذا أمرت الانبياء كلهم (قال) (٤) : وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الانبياء ولا كلام غيرهم ان كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى ابناً ولا روح قدس ، ولا يوجد قط في كلام الانبياء اسم الابن واقعاً الا على مخلوق ، والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب الله ، كما ينقلونه أنه قال لاسرائيل : انه ابنه بكره . ولداود ابني وحبيبي ، وان المسيح قال للحواريين : أبي وابيكم ، فجعله أباً للجميع ، وهم كلهم مخلوقون

(١) سورة البقرة الآية : ٦٢

(٢) ج ٣ ص ٢٤٥

(٣) ج ١ ص ٢٥٠

(٤) ج ٢ ص ٦٥

فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح ، الذي هو ناسوت مخلوق . قال (١) :
 « وفي الانجيل في غير موضع يقول المسيح : أبني وأبيكم كقوله اني ذاهب
 الى أبي وأبيكم ، والهي والهكم » فيسميه أباً كما يسميهم ابناً له ، فان كان
 هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم ، فان الله ارحم
 بعباده من الوالدة بولدها ... فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن
 عبده المسيح الذي رباه ، وأما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير
 موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح
 القدس عندهم تحل في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الانبياء والصالحين
 وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس ، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد
 الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة .

(وفي ص ٩٦) : فالذي فسر (بعض) النصاري به ظاهر كلام
 المسيح ، هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح ، وعادته في كلامه ، ولا لغة
 غيره من الانبياء والامم ، بل المعروف في لغته وكلامه ، وكلام سائر
 الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره اكابر علماء النصاري .

(وفي ص ٣٣٢ من ج ٢) : بل أفصح في كل الانجيل من كلامه
 ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بانه عبد مثلكم ومربوب معكم ، ومرسل
 من عنده وربكم ومبدي ما أمر به فيكم ، وحكي مثل ذلك من أمره حواربه
 وتلاميذه ، ووصفه لمن سأل عنه ، ومن كلامهم بانه رجل جاء من عند الله
 عز وجل ونبي له قوة وفضل (٢) .

(وفي ص ٢٤٤) : ولفظ الابن عندهم في كتبهم يراد به من رباه

(١) ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥

(٢) ج ٢ ص ٣٣٢

الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم في كلام الانبياء لفظ (الابن) قط الا على مخلوق محدث ، ولا يطلق الا على الناسوت دون اللاهوت ، فلا يسمى عندهم اسراييل ابناً ، ولا داود ابناً لله ، والحواريون كذلك . فبين أن العارف كلما تدبر مآلاته الانبياء وما قاله أهل البدع من ... وغيرهم لم يجد لهم في كلام الأنبياء الا ما يدل على تقيض ضلالهم .

وقد بين في (ص ٣٠٦ ج ٢) : فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) واعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة . وذكر القائلين منهم ، بالأمانة ، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورهما على الوجه الصحيح ، رهنا تظهر سعة علم شيخ الاسلام بالفرق ، واطلاعه على مقالاتها واحاطته بفلسفتها ، وقوة عقله في اظهار تعارضها وفي ردها كلها بالمنقول والمعقول .

التوحيد الصحيح في كلامهم

ثم خلص الى افراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على السنة طوائف منهم ، (وقال ص ٣٠٩) : وقال الاربوسية : ان الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وان المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وانه نبي ، وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن الله (أي بنوة لاهوت) وحكى عن بعضهم أنه ابن الله على التسمية والتقريب (الى أن قال) : وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني ، هو نحو ما نقله عنهم القاضي ابو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما ، (قال) : وقال أبو محمد بن حزم : النصراني فرق ، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية ، ومن قوله : التوحيد المجرد ، وان عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات

والارض (أي وهي كلمة « كن ») وكان في زمن قسطنطين الاول باني
القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وان كان على مذهب
أريوس هذا .

(قال ابن حزم) : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي ، وكان
بطريكاً بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرد
الصحيح ، وان عيسى عبد الله ورسوله كأحد الانبياء عليهم السلام ،
خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وانه انسان لا إلهية فيه البتة ،
وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولاروح القدس ، (قال) : وكان منهم
اصحاب مقدينوس - وكان بطريكاً بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية
أيام قسطنطين بانها - وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه ، وكان من قول
مقدينوس هذا التوحيد المجرد ، وان عيسى هو روح القدس وكلمة الله ،
وان روح القدس والكلمة مخلوقان ، خلق الله كل ذلك .

رسالة الحسن بن أيوب الى أخيه

وهذه الرسالة من أخ دان بالتوحيد الخالص ، وكتبها الى أخيه ،
وذكر له سبب اسلامه فيها ، ثم ذكر فرق النصرانية الثلاث ، وناقشهم
في مذاهبهم وقضاياها واحدة واحدة ، وهي من امتع الرسائل وأبلغها
وفها ادق المباحث وأهمها ، لم تترك شبهة الا كشفتها ، ولا حجة الا حللتها
ومن قرأها بتدبر وامعان علم ما علمناه منها ، فقد سبوت غور المسائل ،
وقابلت بين الاشياء والنظائر ، وأتت بأحسن النتائج ، التي تسكن اليها
النفس ويطمئن بها القلب ، ثم هي تزيل الفروق بين الاديان ، وتجعل
أهلها عباداً للرحمن ، لالبنى الانسان . وقد اوردها في (الجواب

الصحيح (فيلفت ثلاثا وخمسين صفحة (ج ٢/٣١٢-٣٦٣) وصفحتين
من أول الثالث .

ذكر مؤلفها فيها ان مريم ولدت انساناً (عليها السلام) وأنه جرى
عليه احكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ،
وتعلم وتعليم ، لا يتهاى لكم أنه كان منه في تلك المدة من اسباب اللاهوتية
شيء ولاله من أحوال الآدميين كلها - من حاجاتهم وضروراتهم ، وهمومهم
ومحنهم وتصرفاتهم - مخرج .

ابن الله ومعناه

(قال) : وقد علمتم ان من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن
ذلك اقراركم انكم جميعاً أبناء الله بالمحبة ، وقول المسيح ابي وابوكم ،
والهي والهكم في غير موضع من الانجيل ، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره
(بنيه) خصوصاً ، فالسبيل في المسيح اذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور ،
أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء
والأبرار ، ونسبة الملك اياه الى أبيه داود ، وتحقق أن أباه داود ، وان التسمية
الاولى (أي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة ، وان حلول الروح عليه
على الجهة التي قالها متى التلاميذ للشعب عن المسيح في الانجيل لستم انتم
متكلمين ، بل روح الله تأتاكم تتكلم فيكم . فأخبر أن الروح تحل في
القوم أجمعين وتتكلم فيهم .

عشرون الف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى !

ومن تمام كلام الحسن بن ايوب (٣٦١ من ج ٢) قوله : واذا
نظرنا في الانجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتاج به النصارى وجد نحواً

من عشرين ألف آية (١) مما فيه اسم المسيح . وكلها تنطق بعبودية المسيح ،
وانه مبعوث مروبوب ، وان الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات كثيرة
مشكلات ، قد تأولها كل فريق من اولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم
على هوامهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذي ينطق
بعبوديته ، وقال في أواخر هذه الرسالة :

ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتبها ودعوتها ومعبودها
واحدًا ، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام ، وتلامذته وأنجيله ، وسنته
وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف ، فمنهم من يقول أنه
عبد ومنهم من يقول انه اله الخ ...

وقد ختم شيخ الاسلام كلام هذه الرسالة بقوله في اول الجزء
الثالث من جوابه : هذا آخر ما كتبت من كلام الحسن بن ايوب - وهو
من كان من اجلاء علماء النصارى ، وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم
أصح من نقل غيره ، وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من
الحجج العقلية والسمعية ، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية -
ما يبين ذلك . (قال) ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من
أئمتهم الخ ثم وصف كتاب (نظم الجواهر) لابن البطريق بطريق
الاسكندرية وصفاً شاملاً لأخبارهم ومجامعهم واختلافهم ، وسبب احداثهم
ما أحدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية ، والرد على من خالفهم
(وفي ص ١٦٩ ج ٣) : ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم (أي الطوائف
المختلفين في التثليث والاتحاد ، وان كل صنف يحكي أقوالاً غير الأقوال
التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق بطريق الاسكندرية في اثناء

(١) أي أمانة أو علامة

المائة الرابعة من دولة الاسلام ، وقد فند هذا البطريك أقوال النسطورية والملكانية ، وفند شيخ الاسلام أقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد . (وفي ص ٢٢٢ ج ٣) : ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة ، (وفي ص ٢٤٤) : ان جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد ﷺ الا باخبار محمد ﷺ بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء الا بعد التصديق بنبوة

ما اتفقت عليه الكتب والرسل

ثم انتقل في الجواب الصحيح الى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الاصول الكلية العامة ، والى ما جاء في التوراة من الجمع بين التوراة والانجيل والقرآن ، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلوة والسلام « تجلى الله من طور سيناء واشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » والى بشارة السفر الاول من التوراة بمحمد ، وبشائر الزبور به وهو مزامير داود . وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة .

وفي الجواب الصحيح (٣/٣٨٢) قال كثير من العلماء واللفظ لحمد ابن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لان مجيء الله من طور سيناء انزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير ، انزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير ارض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها مسمي من اتبعه من نصارى ، وكما وجب ان يكون اشراقه من ساعير المسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلامه من جبال فاران ، انزاله القرآن على (محمد ﷺ) وجبال فاران هي جبال مكة . (قال) :

وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادعوا أنها غير مكة ... قلنا أليس في التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل (فاران) وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح ؟ (ثم قال) : ولا يمكن أحد أن يدعي أن بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي ، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران الا ارسال محمد ﷺ ، وهو سبحانه ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني ، فذكر انزال التوراة ، ثم الانجيل ، ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه . والى أما كن هذه الكتب الثلاثة اشار القرآن الكريم ، وقال في الجواب الصحيح (ص ٣٨٦) ، فقله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين » (١) اقسام منه بالامكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن ، كما ذكر الثلاثة في التوراة .

بشائر النبوات بالنبي الهوي ، والتصريح باسمه

ثم ذكر في « الجواب الصحيح » بشائر النبوات بالنبي العربي ، وفي أشعياء : « اسم محمد ، موجود الى الابد » قال أشعياء : « يا محمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود من الابد » قالوا فهل بقي بعد ذلك لزاغ مقال ، او لطاعن مجال ، (ص ٣٠٧) ! وفيه ايضاً التصريح باسمه (أحمد) و (محمد) . وقال أشعياء : « انما سمعنا من أطراف الارض صوت (محمد) ! » وهذا افصاح من أشعياء باسم رسول الله ﷺ (٣ / ٣١٠) . وفي حبقوق .

التصريح باسم محمد مرتين : « ان الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ﷺ وامتألت الارض من حمده ، شعاع منظره باسم النور ، يحوط ببلاده بعزه (الى أن قال) وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (ثم قال) : وهذه النبوة لاثليق الابعام ، ولا تصلح الاله ، ولاتدل الا عليه ، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً .

وفي (ج ٤ ص ٥) في كلمة الانجيل وتفسيرها ، قالوا : وقال يوحنا الانجيلي ، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من انجيله : ان الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعالكم كل شيء . وقال يوحنا التلميذ أيضاً عن المسيح أنه قال لتلاميذه : ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يلبث معكم الى الابد روح الحق !! الخ ..

وذكر بشارات اخرى من هذه الاناجيل ، وتوسع في شرح هذه البشائر واحدة واحدة ، وجملة جملة ، وبين وجه دلالتها على النبي ﷺ وانطباقها عليه دون غيره ! (الى أن قال ص ١٤ / ٤) : وايضاً فان معنى الفارقليط ان كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز ، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ فانه وأمه الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد .

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، والنظم ، والبلاغة ، ومعانيه التي امر بها ، والمغيبات التي اخبر عنها ، وما وصف به المعاد ، وما أقامه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية التي هي الامثال المضروبة ، قال : وكل ما ذكره الناس من الوجوه في اعجاز القرآن فهو حجة على اعجازه ، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

وعقد فصولاً أخرى في سيرة النبي ، وفي هديه وأوصافه وأخلاقه . وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (الى ص ١٢٠) ثم ما أخبر بوقوعه في الاحاديث الصحيحة . ثم قال بعد سرد أخباره ﷺ بالغيبات (ص ١٤٨) : وهذا وأمثاله مما أخبر به من المستقبلات ، فوقع بعده كما أخبر ، ورأى الناس ذلك ، وأما ما أخبر به مما لم يقع الى الآن فكثير . ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ أو السير ، أو النحو ، أو اللغة ، أو الحديث دون غيرهم ، وبيان أن المحدثين اوثق وأضبط من جميع هؤلاء ، وقال (ص ٢٣٥) : وعامة ما ذكرنا من آيات النبي ﷺ هي من موارد اجماعهم لامن موارد نزاعهم . وفي (ص ٣٠٦) : والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه ، سيما يعرف بها .

ونقل عن القاضي عياض - في صدق نبوة النبي - قوله : اذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله ، لم يتر في صحة نبوته ، وصدق دعوته ، (قال) : وكفى هذا غير واحد في اسلامه والايان به .

في اواخر الفصل الذي ختم به شيخ الاسلام « الجواب الصحيح » مانصه : وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه أن الرسول ﷺ يدعو الى الاسلام فقال الجلندي : والله لقد دلفني على النبي الامي انه لا يأمر بخير ! الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له ، وانه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبي . وقال نفطويه في قوله تعالى : « يكاد زينها يضيء » ولو لم تمسه نار « هو مثل ضربه الله لنبيه ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وان لم يتل قرآنًا . كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديته تاتيك بالخبير

الحكمة والتعليل والقدر

نريد الآن أن نعرف مذهب شيخ الاسلام ابن تيمية في علة صدور العالم . وهل هو لغرض وداع قام بذاته تعالى أم ان خلقه تعالى للعالم وما يجري فيه من الحوادث لا لعلة ولا لغرض . وذلك بعد ان نبين المذاهب المختلفة في هذه المسألة ايضاً وموقفه منها .

آ - ذهب الاشاعرة والفلاسفة الى انه تعالى لا يفعل شيئاً لغرض وليس له غاية يقصدها من فعله تكون باعثة له عليه؟! بل صدور ما يصدر عنه تعالى اما بارادة قديمة اقتضت وقوع العالم على هذا الوجه دون غير عند الاشاعرة ! وأما بتمثل النظام الكلي في علمه السابق مع وقته الواجب اللائق على رأي الفلاسفة (١) .

والفرق بينهما هو ان الفلاسفة ينفون عنه تعالى القصد الى الفعل ويرون ان كل فاعل بالقصد مستكمل وله غرض ، في فعله . اما الاشاعرة فيثبتون القصد ولا يرونه مستلزماً للغرض لانهم يجوزون ترجيح القادر المختار لأحد مقدوريه بلا مرجح أصلاً كما سبقت الإشارة الى ذلك واحتج الاشاعرة والفلاسفة على نفي الغرض في فعله تعالى بأنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها؟! فانه اما ان يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء ، او يكون وجودها أولى به ، فان كان الاول امتنع ان يفعل لاجلها وان كان الثاني ثبت ان وجودها أولى به ، فيكون مستكملاً ناقصاً (٢) .

(١) الاشارات م ٢ ص ٧

(٢) المحصل للرازي ص ١٤٩

وابن تيمية يذكر هذه الحجة للاشاعة وحدهم ، لأنه يرى ان
الفلاسفة قائلون بالعلة الغائية كما قالوا بالعلة الفاعلية . ولكن الحق ان هذه
الحجة هي في الاصل للفلاسفة . ثم اخذها الرازي عنهم . واحتج بها
لمذهب الاشاعة في كتابه المحصل وغيره .

ويشهد لهذا قول ابن سينا في الاشارات :

« تنبيه - اعلم ان الشيء الذي انما يحسن به ان يكون عنه شيء آخر
ويكون ذلك اولى به واليق من أن لا يكون ، فانه اذا لم يكن عنه ذلك
لم يكن ماهو اولى وأحسن به مطلقاً . وأيضاً لم يكن ماهو اولى وأحسن
به مضافاً . فهو مسلوب كمال ، ما يقتقر فيه الى كسب (١) » .
وقوله أيضاً بعد ذلك بقليل :

« فمن جاد ليشرف او ليحمد او ليحسن به ما يفعل ، فهو مستعيز
غير جواد ، فالجواد الحق هو الذي يفيض منه الفوائد . لا لشوق منه وطلب
قصدي لشيء يعود عليه .

وأعلم ان الذي يفعل شيئاً لو لم يفعله قبح به أو لم يحسن منه فهو
يما يفيد من فعله متخلص (٢) . »

ولعل مما يؤيد هذا الذي قلناه من سبق الفلاسفة بهذه الحجة قول
نصير الدين الطوسي في تعليقه على المحصل .

وأما قوله « الفخر الرازي » الفاعل بفرض مستكمل بالغرض حكم
أخذه من الحكماء استعماله في غير موضعه . فانهم لا ينفون سوق الاشياء
الى كمالها والا لبطل علم منافع الاعضاء وقواعد العلوم الحكيمة من

(١) الاشارات ج ٢ ص ٤

(٢) الاشارات ج ٢ ص ٥

الطبيعيات وعلم الهيئات وغيرها وسقطت العلل الغائية بأسرها من الاعتبار (١).

ومهما يكن من أمر هذه الحجة. وسواء أكان الأصل فيها هم الفلاسفة أم الاشاعرة فقد نقضها ابن تيمية من وجوه كثيرة منها :

١ - أن قولهم لو خلق الخلق لعله لكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها منقوض بنفس ما يفعله من المفعولات . فانه يمكن أن يقال فيها ايضاً اما أن يكون وجودها وعدمه بالنسبة اليه سواء او لا يكون . فان كان الاول امتنع صدورها عنه. وان كان الثاني كان مستكملاً بها. فما كان جواباً في المفعولات كان جواباً عن هذا . ونحن لانعقل في الشاهد فاعلاً الا مستكملاً بفعله .

٢ - ان مقتضى الكمال ان يكون الباري لايزال قادراً على الفعل بحكمة فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لكان ناقصاً .

٣ - قول القائل انه مستكمل بغيره باطل . فان ذلك انما حصل بقدرته ومشيئته لا شريك له في ذلك . فلم يكن في ذلك محتاجاً الى غيره . واذا قيل كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه الى غيره . كان كما لو قيل كمل بذاته او صفاته فهو مثلاً اذا فرح بتوبة عبده التائب وأحب من تقرب اليه بالنوافل ورضى عن السابقين الاولين ونحو ذلك . لم يحز ان يقال انه مقتدر في ذلك الى غيره أو مستكمل بسواه . فانه هو الذي خلق هؤلاء وهداهم وأقدرهم حتى فعلوا ما يحبه ويرضاه ويفرح به .

٤ - قول القائل كان قبل ذلك ناقصاً ان اراد به عدم ما تجدد فلا نسلم أن عدمه قبل ذلك الوقت الذي اقتضت الحكمة وجوده فيه يكون

(١) تلخيص المحصل ص ١٤٩

نقصاً . وان اراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال عدم الشيء في الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فيه كمال . كما أن وجوده في وقت اقتضاء الحكمة وجوده كمال ايضاً . فليس عدم كل شيء ناقصاً . بل عدم ما لا يصلح وجوده هو النقص . كما ان وجود ما لا يصلح وجود نقص . فنتبين أن وجود هذه الامور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص لا أن عدمها هو النقص (١) .

ب - وأما المعتزلة فيثبتون الحكمة لله في خلقه وأمره : ولكنهم لا يجعلونها قائمة بذاته . بل يجعلونها مخلوقة منفصلة عنه . فيقولون مثلاً الحكمة في وجود الخلق هو الاحسان اليهم ، والحكمة في التكليف هو تعريض المكلفين للثواب ، ويقولون ان الاحسان الى الغير حسن محمود في العقل فخلق الله الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود عليه هو من ذلك مصلحة (٢)

ويرى ابن تيمية ان هذا القول متناقض لأن الاحسان الى الغير انما كان محموداً لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله . اما لتكميل نفسه بذلك ، واما لقصده الحمد والثواب بذلك . واما لوقته وألم يجده في نفسه يدفع بذلك الاحسان الألم واما لالتذاذه ومروره وفرحه بالاحسان ، فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها الى غيرها ، فالاحسان الى الغير محمود لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الامور حكم يحمد لأجله ، أما اذا قدر أن وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يعلم ان هذا الفعل يحسن منه ، بل مثل هذا يعد عبثاً في

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٤ ص ١٦٢ - ١٦٣

(٢) المحصل للرازي ص ١٤٩ والمواقف مع شرحه ج ٨ ص ٢٠٢ الى ٢٠٥

عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا
منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عبثاً ، ولم يكن محموداً على
هذا ، ولذلك لم يأمر الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أحد من العقلاء أحداً
بالإحسان إلى غيره ونفعه إلا لما في ذلك من المنفعة والمصلحة . والا فأمر
الفاعل بفعل لا يعود إليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من
الوجوه لا في العاجل ولا في الآجل لا يستحسن من الأمر .

ج - وأما عبد الله بن كلاب ومن وافقه فيثبتون حكمة وغاية
قائمة بذاته تعالى ولكنهم يجعلونها قديمة غير مقارنة للمفعول . ويقولون ان
ارادته وحبه ورضاه وغضبه وسخطه ورحمته وكرمه ونحو ذلك قديم .
فهو سبحانه لم يزل راضياً عن علم أنه يموت مؤمناً ولم يزل سائطاً
على من علم أنه يموت كافراً .

وهذا الرأي في نظر ابن تيمية باطل كسابقه فإذا كان الله راضياً في
أزله ومحباً وفرحاً بما يحدثه ، قبل أن يحدثه فإذا أحدثه هل حصل له بأحدثه حكمة
يحبها ويرضاها ويفرح بها أو لم يحصل إلا ما كان في الأزل ، فان قلتم لم يحصل
إلا ما كان في الأزل قبل ذلك كان حاصله بدون ما أحدثه من المفعولات
فامتنع أن تكون المفعولات قد فعلت لكي يحصل ذاك . فهذا القول كما
تضمن ان المفعولات نحدث بلا سبب يحدثه الله يتضمن أيضاً انه يفعلها
بلا حكمة يحبها ويرضاها .

د - وإذا كانت هذه الآراء في الحكمة والتعليل باطلة في نظر ابن
تيمية فالصحيح عنده ما عليه جمهور أهل السنة وتشهد له النصوص الكثيرة
من أن الله تعالى حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها فهو سبحانه
يفعل ما يفعل لحكمة يعلمها وهو يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته

ما يطلبهم عليه وقد لا يعلمون ذلك ، والامور العامة التي يفعلها تكون
 حكمة عامة ورحمة عامة كارساله محمداً ﷺ فانه كما قال تعالى « وما أرسلناك
 الا رحمة للعالمين » فاذا قال قائل فقد تضر برسالته طوائف كثيرة من
 الناس كالذين كذبوه من المشركين وأهل الكتاب فالجواب أنه نفعهم
 بحسب الامكان حيث أضعف شرهم الذين كانوا يفعلونه لولا الرسالة باظهار
 الخبيث والآيات التي زلزلت ما في قلوبهم وبالجهد والجزية التي اخافتهم واذلتهم
 حتى قل شرهم .

على أن ما حصل من الضرر فهو امر مغموّر بجانب ما حصل من النفع
 كالمطر الذي عم نفعه اذا خرب به بعض البيوت أو احتبس به بعض
 المسافرين والمكتسبين كالقصارين ونحوهم وما كان نفعه ومصلحته عامة
 كان خيراً مقصوداً ورحمة محبوبة وان تضرر به بعض الناس .

على أن ابن تيمية يرى أن جميع ما يحدثه الله في الوجود من الضرر
 فلا بد فيه من حكمة كما قال تعالى « صنع الله الذي اتقن كل شيء »
 وكما قال « الذي احسن كل شيء خلقه » والضرر الذي تحصل به حكمة
 مطلوبة لا يكون شراً مطلقاً وان كان شراً بالنسبة الى من تضرر به .

ولهذا لا يجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله ﷺ اضافة الشر
 وحده الى الله وانما يذكر الشر على احد وجوه ثلاثة :

١ - فهو اما أن يدخل في عموم الخلوقات فاذا دخل في العموم افاد
 عموم القدرة والمشيئة والخلق وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق
 بالعموم وذلك مثل قوله تعالى « الله خالق كل شيء » ومن ذلك اسماء
 الله المقترنة مثل المعطي المانع والضر النافع والعز المذل والخافض الرافع

ونحو ذلك فلا يغرد اسم المانع عن قرينه ولا الضار عن قرينه ولان اقترانها
بدل على العموم .

٢ - واما أن يضاف الى السبب كقوله « من شر ما خلق » وقوله
« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » وقوله
« ربنا ظلمنا أنفسنا » وقوله « او لما اصابكم مصيبة قد اصبتم مثلها »
قلتم اني هذا قل هو من عند انفسكم » وأمثال ذلك .

٣ - واما أن يحذف فاعله كقول الجن « وانا لاندرى أشر أريد
بن في الأرض ام أراد بهم ربهم رشداً » وقوله تعالى « صراط الذين أنعمت
عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ويقول ابن تيمية ان العبد اذا علم من حيث الجملة ان الله فيما خلقه
وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من
حكمة الله ورحمته ما يهر عقله وتبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه
حيث قال « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .
هذا هو مذهب ابن تيمية في مسألة الحكمة والتعليل ينم عن نفس
شديدة التفاؤل وقلب مفعم بحب الوجود وما فيه من آثار رحمة الله تعالى
ومجالي حكمته حتى انه ليتامس حكمة الله في الشر كما يتوصدها في الخير ،
ولعل هذه النزعة المبالغة في التفاؤل هي التي جعلت منه هذا الرجل الجلد
الصابر على ما مني به في حياته من احداث ومصائب ما كان يطيقها لولا
ثقتة برحمة الله التي كانت تشيع في نفسه الأمل والرجاء وكانت له في حياته
اجمل عزاء .

بقي علينا أن نعرف مذهب ابن تيمية في القدر وهو مذهب يقوم
على الايمان بعموم قدرة الله تعالى وشمول مشيئته وانه ما شاء كان وما لم يشأ

لم يكن . ولكنه مع ذلك لا يعطل الأسباب الكونية والقوى الطبيعية عن أعمالها كما أنه لا ينكر فاعلية العباد وصدور أعمالهم عنهم بما جعله الله فيهم من قدر وأرادات . ويرى أن ذلك كله من القدر ، لأن القدر لا يقوم على إبطال الأسباب بل على أعمال الأسباب ، كما سئل رسول الله ﷺ أرأيت أدوية تتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله (١) .

وابن تيمية ينكر على المعتزلة جحدهم لعموم قدرة الله تعالى وشمول مشيئته وقولهم ان الحيوانات تصدر عنها أفعالها على سبيل الاستقلال من غير تأثير لقدرة الله ولا لمشيئته في شيء منها . ويرى تبعاً للإشاعة أنهم شبهوا في ذلك المجوس الذين يقولون بخالقين خالق للخير أو النور وخالق للظلمة أو الشر (٢) .

كما أنه ينكر على الإشاعة أيضاً أنهم مع تسليمهم بعموم القدرة وشمول المشيئة يثبتون أرادة بلا حكمة ومشيئة بلا رحمة ولا محبة ولا رضى ويحملون المخلوقات بالنسبة اليه سواء كما أنهم يحددون تأثير الأسباب في مسبباتها ويعطون ما خلقه الله في الأشياء من قوى الطباع ويقولون أن قدرة العبد لا تأثير لها في شيء من فعله .

ولكن شر الطوائف في نظر ابن تيمية بالنسبة الى القدر طائفة يسميهم « بالقدرية المجبرة » يقولون أن الله جبر عباده على ما أراد ويحتجون بالقدر على إبطال الامر والنهي والوعد والوعيد ولهذا يسوون بين المؤمن

(١) المحصل للرازي ص ١٥٧

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ١٢٧

والكافر وبين البر والفاجر وبين الطاعة والمعصية فـآدم وابلـيس عندهم
سواء ونوح وقومه سواء وموسى وفرعون سواء والسابقون الأولون
والكافرون سواء (١)

ولئن كان المعتزلة في نظره يشبهون المجوس فهؤلاء يشبهون المشركين
عباد الاصنام الذين يقولون « لو شاء الله ما أشر كنا ولا آباؤنا ولا حرمنا
من شيء » .

ويقول ابن تيمية ان هذا الضلال اكثر ما يكون في اهل التصوف
والزهد والعبادة الذين يدعون التوحيد والقناء في التوحيد . ويقولون
ان هذا نهاية المعرفة وأن العارف اذا صار الى هذا المقام لا يستحسن
حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية
الشاملة ولكنهم مع ذلك لا يعرفون توحيد الالهية الذي يقوم على عبادة
الله وحده لا شريك له ولا يعلمون أن مجرد الاقرار بان الله رب كل شيء
وخالقه ومليكه لا يكون توحيداً حتى تقترن به شهادة أن لا اله الا الله
كما قال تعالى « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » .

ويشتد ابن تيمية في نقد هؤلاء الناس حتى يجعلهم اكفر من اليهود
والنصارى فيقول :

« ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو
كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن
أحد منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاون
عليه اثنان فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل احد والا فليس
حجة لاحد .

« فإذا قدر ان الرجل ظلمه ظالم أو شتمه شاتم أو أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك فتى لامة أو ذمه أو طلب عقوبته فقد أبطل الاحتجاج بالقدر ومن أدعى أن العارف اذا شهد الارادة سقط عنه الامر كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه اليهود ولا النصارى بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع فان الجائع يفرق بين الخبز والتراب ، والعطشان يفرق بين الماء والسراب ، فيحب ما يشبعه ويرويه دون ما لا ينفعه مع أن الجميع مخلوق لله تعالى (١) ».

« ولو جاز لاحد ان يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ولم يقتل مشرك ولم يقم حد ولم يكف أحد عن ظلم وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول (٢) ».

هذه هي خلاصة مذهب ابن تيمية في القدر يؤمن به ولا يحتج به ولا يتخذة وسيلة لمعارضة ما جاء به في الشرع من الاحكام والتكاليف . وهذا فيما نعتقد المذهب الوسط بين من ينفي القدر ويكذب به وبين من يثبتته ثم يعارض به النظام الشرعي أو الطبيعي .

تلك أمثلة من آراء ابن تيمية ومناقشاته في امهات المسائل الكلامية عرضناها لتكون نموذجاً يستعان به على تعرف نزعات الرجل ومنهجه في العقيدة والى أي حد كان انتصاره لمذهب السلف واحترامه للنصوص في كل مسألة عاجلها : مع ما امتاز به من قدرة على العرض وقوة في النقد وخبرة واسعة بالمذاهب الفلسفية والكلامية المختلفة بحيث كان مضرب المثل

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ١٣٣

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ١٣٩

في غزارة العلم وسعة الاطلاع^(١) . وكان أول ثلاثة قال فيهم الشاعر :
 ثلاثة ليس لهم رابع في العلم والتحقيق والنسك
 وهم اذا شئت ابن تيمية وابن دقيق العبد والسبكي

الغزالي وابن تيمية

لا يستطيع المؤلف أن يتحدث عن ابن تيمية رضي الله عنه دون أن يتطرق في بحثه الى الغزالي ، حيث انبرى له شيخ الاسلام في كثير من المواضيع وتعقبه في كثير من مجوئه حتي كاد يجرده من العلم ، بل من الايمان أيضاً !

قال الامام ابن تيمية^(٢) أثناء الكلام على الغزالي في كتابه « المضمون على غير أهله » : « وهو فلسفة محضة قوله : المشركين العربيه خير منه ! ... دع قول اليهود والنصارى ! » .

ولنسارع قبل أن يتهم شيخ الاسلام ابن تيمية بالمبالغة والشطط الى نقل عبارات للغزالي ، نترك الحكم فيها للقارىء .

« لا اله الا الله توحيد العوام ! ولا هو الا هو توحيد الخواص^(٣) » .

ومعنى قول الغزالي انه يعتقد بوحدة الوجود أو الشهود معتبراً ايمان الرسول ﷺ وأصحابه من بعده ، بل جميع الأنبياء من قبله ، ايمان عوام ! .

(١) « ابن تيمية السلفي » للاستاذ محمد خليل هراس

(٢) في كتابه « الرسائل والمسائل » ص ٨١

(٣) « الجواهر النوالي » ص ١٢٥

قال النبي ﷺ : أفضل .

ويتحدث الغزالي عن المحجوبين فيقول عن عبدة الأوثان : « هؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنواره ^(١) ، وعن عباد الأشجار أنهم محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس ^(٢) » .

ويقول الغزالي عن عباد النار : « هؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء ، وكل ذلك من أنوار الله تعالى ! » .

ويقول عن عباد النجوم : « هؤلاء محجوبون بنور العلو والاشراق والاستعلاء وهي من أنوار الله تعالى ^(٣) » .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « ومنهم - يقصد الصوفية - من يزعم انه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد (أي الغزالي) يكثر من مدح هذه الطريقة ^(٤) » ثم يقول ابن تيمية في الصفحة نفسها : « وأبو حامد يقول : انه سمع الخطاب كما سمعه موسى » .

يقول الغزالي : « ان القلب له بابان باحدهما يطلع على اللوح المحفوظ ، ويشبه القلب بالمرآة ، واللوح المحفوظ بالمرآة ، يتقابلان فينقش ما في اللوح المحفوظ في القلب ^(٥) » .

(١) المصدر السابق ص ١٤٢

(٢) المصدر السابق ص ١٤٣

(٣) المصدر السابق ص ١٤٣

(٤) كتاب «الرسائل والمسائل» ص ٨٧

(٥) كتاب «الجواهر الغوالي» ص ١٤

ويقول الغزالي^(١) : « اذا جلس في مكان وعطل طريق الخواص وقال دائماً : الله الله الله بقلبه دون لسانه أبصر باليقظة الذي يبصره بالنوم ، فتظهر له أرواح الأنبياء والملائكة وانكشف له ملكوت السموات والأرض ورأى ما لا يمكن شرحه أو وصفه^(٢) » .

وقال الامام ابن تيمية : « انه - ويقصد الغزالي - لم يعرف ما قاله احد ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث ! » .

وكيلا نهت القارئ بنفي معرفة الغزالي بالقرآن والحديث نسوق له بعض تفسيراته وعبثه باي الذكر الحكيم !

وقال الغزالي في تفسير « لعلي اتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدي » لعلك من سرادقات العز تنادى بما نوذي به موسى انار بك^(٣) .

وقال الغزالي : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » معناه « وانا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعساكر وجعلنا النفس مركبه حتى يسافر عليه من عالم التراب الى أعلى عليين^(٤) » .

(١) المصدر السابق ص ٥

(٢) ان لنا على هذا الكلام ملاحظات ثلاث :

الاولى : أنه كذب واختلاق ، وفي التجربة اكبر برهان .

الثانية : ان الذكر بكلمة الله الله ذكر مبتدع لم يعرف عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا احد من اصحابه والتابعين ، وقد كان الكفار يقولون (الله) ولم تنقذهم من النار : «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ! »

الثالثة : ان الذكر لا يسمى ذكراً الا اذا اشترك اللسان مع القلب .

(٣) « الاملاء الملخص لكتاب الاحياء » ص ٤٤ طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية

(٤) «الجواهر الغوالي » ص ١١

ولاشك أن هذا التفسير من قبيل تحريف الكلم عن مواضعه !
وقال الامام ابن تيمية :

« ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا . فقال :-
كلام ابي حامد يشوقك فتسير خلفه ، ويشوقك فتسير خلفه منزلاً بعد
منزل ، فاذا هو ينتهي الى لاشيء ^(١) ! »

وانني اشارك رأي شيخ الاسلام ابن تيمية والشيخ الجليل محدثه
بان كلام الغزالي ينتهي الى لاشيء ! انما ينتهي الى كل شيء وما نراه من انصار
الغزالي ودارسي كتبه من انحلال وجبر ووصفية ان هو الا من آثار الغزالي وثراته !
كيف لا وكلامه - كما يقول الامام ابن تيمية - « برزخ بين المسلمين
وبين الفلاسفة ، ففيه فلسفة مشوبة بالاسلام ، واسلام مشوب بالفلسفة ^(٢) » -
لقد كان ابن تيمية يعرض بمنهج الغزالي ويلحقه بالفلاسفة ويقول في
ذلك ^(٣) :

« والمتفلسفة يقولون القرآن جاء بالطرق الخطائية والمقومات
الاقناعية التي تقنع الجمهور ، ويقولون ان المتكلمين جاؤوا بالطرق الجدلية ،
ويدعوا انهم هم أهل البرهان اليقيني ، وهم أبعد عن البرهان في الالهيات
من المتكلمين ، والمتكلمون أعلم بالعمليات البرهانية في الالهيات والكلديات ،
ولكن المتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الالهيات ،
فانهم من أجهل الناس بها ، وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام ارسطو

(١) كتاب « النبوات » ص ٧٩ ج طبعة السيد منير الدمشقي

(٢) المصدر السابق ص ٧٩

(٣) رسالة معراج الوصول في مجموعة الرسائل الكبرى

معلمهم فيها قليل ، وكثير الخطأ ، فهو لحم جبل غث على رأس جبل وعر ،
لا سهل فيرتقى ، ولا سهل فيقل ! »

ويقول الامام ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » معرضاً بالغزالي :
« قول من يقول أن كلام الله يفيض على النفوس من المعاني التي
تفيض ، أما من العقل الفعال عند بعضهم ، وأما من غيره ، وهذا قول
الصائبة والمتفلسفة الموافقين كابن سينا وأمثاله ، ومن دخل مع هؤلاء من
متصوفة الفلاسفة ومتكلمهم كأصحاب وحدة الوجود ، وفي كلام صاحب
الكتب المضمونة بها على غير أهلها ورسائله مشكاة الانوار (١) وأمثاله ،
ومن دخل مع هؤلاء ما قد يشار به الى هذا ، وهو في غير ذلك من كتبه
يقول ضد هذا ، ولكن كلامه يوافق هؤلاء تارة ، وتارة يخالفه ! »

ثم يقول الامام ابن تيمية بعد ذلك :
« وآخر امره - أي الامام الغزالي - استقر على مخالفتهم ومطابقة
الاحاديث النبوية . »

ما سلف يتبين لنا أن الامام ابن تيمية لا يرى العقل وحده كافياً
للوصول الى حقائق الدين ، بل لابد من الاستعانة بالنقل ايضاً ، ويرى أن
المعتمد في ذلك على الكتاب والسنة . ومعنى هذا أن العقل ينبغي أن
يكون في ذلك تابعاً لا متبوعاً ، ومن اعتمد على العقل وحده كان
كحاطب ليل .

وقد حمل الامام ابن تيمية على الامام الغزالي واضرابه في سيره في
تفسير صفات الله على التأويل كالاستواء مجاز على الاستيلاء ، واليد عن
القدرة ، والعين عن البصر .

(١) أي الامام الغزالي

ويقول في ذلك :

« ان جميع ما في القرآن من آيات الصفات ليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها ، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ، وما روه من الحديث ، ووفقت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار ، اكثر من مئة تفسير فلم اجد الى ساعتي هذه عن احد الصحابة انه تأول شيئاً من آيات الصفات أو احاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف (١) » .

(١) تفسير سورة النور لحجة الاسلام ابن تيمية ص ١٤٥

والغريب ان يحشر الاستاذ محمد ابوزهرة نفسه في هذا الخلاف بين الامامين الكبيرين فيقول في كتابه ابن تيمية (ص ٢٩٣) « بعد هذا العرض للنظائر المختلفة تنتهي الى اننا لا نميل الى طريقة ابن تيمية في فهم التشابه ، لانها تقضي بنا الى توهم التشبيه والتجسيم ، ونخصوصاً بالنسبة للعامة ، ونرضي بلاريب طريقة الغزالي في تقريب الالفاظ ذلك التقريب الفكري المستقيم .

« ونرى أن تخريج كلام السلف على منهاج الغزالي اسلم ، ولا نسوغ لانفسنا ان نقول متجهمين على ابن تيمية انه احق واصدق ، ولكن نقول بلاريب انه اداق واسلم ، والله سبحانه وتعالى اعلم » .

كيف نقول اسلم ، وكان السلف وهم في خير القرون يرفضونه ، وقد سئل الامام مالك عن الاستواء في قوله تعالى : « واستوى على العرش » الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ! ولم يعرف عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا عن أحد من اصحابه انه اول صفات الله في القرآن أو الحديث .

ومها كان من امر التأويل ، فانه عاجز عن التعبير كتأويل الاستواء بالاستيلاء ، وفي ذلك نسبة العجز الى تعالى حيث لم يكن مستولياً ثم استولى !

ان الصواب كل الصواب في اتباع مذهب السلف البعيد عن التشبيه والتعطيل ، فان التأويل يؤدي الى التعطيل ، والتجسيم الى التشبيه ، والله جل شأنه منزوع عن كل ذلك . ان تأويل —

لقد درس كل من الامامين الغزالي وابن تيمية الفلسفة ، ولكنها
مختلفان في الزاوية التي ينظر كل منها فيها الى هذه الفلسفة . فالغزالي درسها
ليطلب الحقيقة عن طريقها متخذاً الشك سبيلاً ومدعياً عدم الثقة بعلم كل
من لم يدرسها فهي وحدها بنظره ميزان العلوم .

فقال في كتابه « المستصفى في علم الاصول » :

« نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحدو البرهان »

— الصفات يؤدي الى عبادة مخلوق . واذا قال بعض المنتطعين بان القول ان الله يدأوعنا فيه تشبيه
نقول كذلك يقال ان نسبة السمع والرؤية الى الله في تشبيه ، وهذا لا يقول به عاقل ، مادامنا
نقول ان يده - تعالى - وعينه وسمعه ليست كيدنا وعيننا وسمعنا .

وقال الاستاذ ابو زهرة أيضاً في موضوع آخر من كتابه المذكور (ص ٢٧٠)
بعد أن ساق كلاماً للامام ابن تيمية في النهي عن التأويل فيقول : « هذا كلام ابن تيمية بنص »
ولا تتسع عقولنا لادراك الجمع بين الاشارة الحسية بالاصابع والافرار بانه في السماء ، وأنه
يستوي على العرش ، وبين التنزيه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث .

« وان التأويل بلاشك في هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية ، ولا يصح ان يكلف
الناس ما لا يطيقون . واذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله ، للجمع بين الاشارة الحسية وعدم الحلول في
مكان ، او التنزيه المطلق ، فعقول الناس لا تصل الى سعة افقه . ان كان كلامه مستقيماً » .

وتعليقاً على كلام ابى زهرة نقول اذا كان عقله لا يتسع لما قاله ، فقد اتسع له عقل جارية
مستترقة لما سأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اين الله ؟ فقالت : هو في السماء . وأشارت
باصبعها (اي في العلو المطلق) فشهد الرسول بآيمانها .

وأما قول ابى زهرة أيضاً « ان التأويل بلاشك في هذا يقرب العقيدة الى
المدارك البشرية ، ولا يصح ان يكلف الناس ما لا يطيقون ... » فكلامه هراء ، وقد كان عليه
السلام لا يكلف الناس ما لا يطيقون ، مع ذلك لم يؤول هو ولا احد من اصحابه . والحقيقة
ان التأويل هو الذي لا تختمله العقول ، فتسلم بما انزل الله على رسول الله دون تأويل ولا
تشبيه ، فن اول فقد عبد عدماً ومن شبه فقد عبد صنماً ! وكل خير في اتباع من سلف وكل
شر في ابتداء من خلف !

ونذكر شرط الحد الحقيقي ، وشرط البرهان الحقيقي ، واقسامهما على منهاج أو جزء مما ذكرناه في كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم ، وليست هذه المقدمة من جملة علم الاصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة معلومة أصلاً ^(١) .

وهذا بخلاف حجة الاسلام ابن تيمية ، فقد درس الفلسفة ليبين ضلال ما يعارض اندين منها ، فهو لم يتخذ الشك سبيلاً ، بل أنه آمن بما جاء من عند الله على لسان رسوله محطماً ما جاء في الفلسفة معارضاً له ، فأبعد عن العقل الاوهام الفلسفية ، ليقبل على الشريعة الاسلامية حسب فطرته وعدم معارضته لصحيح النقل ، ويقول ابن تيمية بهذه المناسبة :

« لما كان بيان مراد الرسول ﷺ في هذه الابواب لا يتم الا بدفع المعارض العقلي ، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الانبياء ، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، اذ كان أي دليل اقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع اذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه ، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول ، وقدحاً فيمن استدل بكلامه ، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به اخلاط فاسدة تمتع انتفعه بالغذاء ، فلا ينفعه مع وجود هذه الاخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات او بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيهِ ، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه

الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة ، الا مع بيان فساد ذلك المعارض
وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً (١) .

مما تقدم يظهر الفرق واضحاً بين الامامين الغزالي وابن تيمية في مبلغ
رسوخهما في الدين وحجتها البالغة ، لذا قال ابوبكر الرازي عن الغزالي « أنه
دخل في بطن الفلسفة ، ولما اراد الخروج منها لم يستطع !! » .

وكذلك قال عنه الامام ابن تيمية وقد أنصفه في كثير من
المواضع :

« كان أبو حامد (الغزالي) مع ما يوجد في كلامه من الرد على
الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة وغير ذلك ، ومع ما يوجد فيه من
أشياء صحيحة حسنة ، بل عظيمة القدر نافعة ، يوجد في بعض كلامه مادة
فلسفية وامور اضيفت توافق اصول الفلاسفة المخالفة للنبوة ! بل المخالفة
لصريح المعقول ! ، حتى تكلم فيه جماعات من علماء (٢) خراسان والعراق
والمغرب (٣) . »

وقال الامام ابن تيمية عن الغزالي أيضاً :

« وأبو حامد لا يوافق المتفلسفة على ما يقولون ، بل يكفرهم ويضلهم
في موضع ، وان كان في الكتب المضافة اليه ما قد يوافق بعض اصولهم ،
بل في الكتب التي يقال بأنها مضمون بها على غير أهلها ما هو فلسفة محضة
مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ! وان كان قد عبر عنها بعبارات
اسلامية ، لكن هذه الكتب في الناس من يقول انها مكذوبة على أبي

(١) عن كتاب « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » .

(٢) وعمدوا الى حرق بعض كتبه لهذه الاسباب

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية للامام ابن تيمية ص ١١٥

حامد ، ومنهم من يقول : بل رجع عنها ، ولا ريب أنه صرح في بعض المواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب ، وأخبر في المنقذ من الضلال ، وغيره من كتبه بما في هذه من الضلال (١) .

وينقل الامام ابن تيمية عن أبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم فيقول :
قال ابن المازري :

« ووجدت هذا الغزالي يقول على ابن سينا في أكثر ما يشير اليه في علوم الفلسفة ، حتى أنه في بعض الأحيان ينقل نص كلامه من غير تغيير ، وأحيانا يغيره ، وينقله الى الشرعيات أكثر مما نقل ابن سينا ، لكونه أعلم بأمرار الشرع منه ، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل اخوان الصفا (٢) قول الغزالي في علم الفلسفة (٣) . »

قال الاستاذ محمد أبو زهرة الاستاذ في كلية الشريعة في جامعة القاهرة (٤) :

« من هذا يتبين كيف عجز الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها ! لانه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نيته في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها ، وكان يعيش في اطارها . فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي . ففلسف الشريعة ، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشهر أو لا يشهر . »

(١) المصدر السابق ص ٩٤

(٢) اخوان الصفا جمعية سياسية باطنية ظهرت في القرن العاشر الميلادي زعمت انها ترمي الى سعادة النفس ، كان لها نزعة فلسفية مقتبسة من اليونان والهند وفارس . ولاخوان الصفا كثير من الرسائل في مباحث مختلفة .

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية ص ١١٥

(٤) في كتاب « ابن تيمية » ص ٢٣٩

« أما ابن تيمية فقد طلبها لهدمها ، فكان يقرأها ويفهمها . وهو في غير محيطها ، ولم ينغمز في غمارها وشدد النكير على الغزالي في منهاجه ، وأخذ يتتبع هفواته ويتقصي هناته . ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها ، سواء في ذلك أصول العقيدة وفروع الفقه والاحكام العامة . لان النبوة جاءت بكل ذلك ، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته ولا طريق سواه ، ويرى أن أولئك الذين يصنعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية ويحصلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها ، فيؤولون صريحه ليوافقها ، انما يحصلون علم العقل فوق علم النبوة . ويقول في ذلك : « ويقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم . وان النظر يوجب العلم وانه واجب ، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل . ثم اذا صاروا الى ما هو لاصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الاعراض على حدوث الاجسام وهو دليل مبتدع في الشرع ^(١) » .

« وينتقد ابن تيمية هؤلاء ، لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها ثم يحكمون على الاوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها ويوجهونها بتوجيهها ، فما يوافقها اقروه كما ورد ، وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها ، وأولوه بتأويلها ، ثم هم في هذا السبيل لم يلتفتوا الى السنة ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب ، مبينة لكل ما جاء فيه وانها الطريق الوحيد لتفسيره .

« ينقد ابن تيمية ذلك المسلك ، لأنه يجعل الحاكم محكوماً : فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكمة بها خاضعة » .

نقد المنطق

حمل الامام ابن تيمية على منطق ارسطو حملة شديدة في كتابه

(١) معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي

« نقض المنطق » وسخر من الذين يقولون أنه لا براهين الا ما يكون المنطق دليلاً وطريقاً . لما في ذلك من غمز بالصحابة والتابعين الذين يعتبرهم المناطقة علومهم ظنية لانهم كانوا جاهلين بالمنطق ! ولم يحاولوا تأويل الصفات في القرآن .

فأخذ الامام ابن تيمية يثبت للملأ أن المنطق من علوم الصابئة ، وهو دخیل على العلوم الاسلامية ، ولام الغزالي لتصريجه بوجوب اتخاذ المنطق ميزاناً للعلوم مع أن الفقهاء من قبله كانوا ينظرون اليه نظرة بغض . يقول ابن الصلاح عن المصطلحات الفلسفية والمنطقية : « ان هذا من المنكرات المستبشرة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالاحكام الشرعية افتقار الى المنطق أصلاً ، وما يزعمه المنطقي بالمنطق من أمر الحدو البرهان ففائق قد اغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، ولا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها ، فقد خدعه الشيطان ^(١) » .

وينقل الامام ابن تيمية بعد قراره فتوى ابن الصلاح ، استنكار العلماء لما جاء في مقدمة « المستصفى » للغزالي ، فقد اعتبر المنطق ميزان جميع العلوم وعممه في جميع علوم الدين ، ثم يقول الامام ابن تيمية :

« يحكي عن يوسف الدمشقي مدرس المدرسة النظامية ببغداد ، وكان من النظار المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فابوبكر وعمر وفلان وفلان يعني ان اولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج

(١) « فتاوى ابن الصلاح » ص ٣٥ :

واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة واسبابها، قال الشيخ ابو عمرو وقد ذكرت بهذا ما حكى صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة (ابو حيان التوحيدى) ان الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد باصناف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم، وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني، فقال الوزير : اريد أن ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في قوله انه لاسييل الى معرفة الحق الباطل والحجة من الشبهة والشك من اليقين الابما حويناه من المنطق، واستقدناه من واضعه على مراتبه، فانتدب أبو سعيد السيوافي، وكان فاضلاً، وكلمه في ذلك حتى افحمه^(١).

نكتفي بهذا القدر من بيان مبلغ ابتعاد الامام الغزالي عن الاسلام الصحيح بنظر الامام ابن تيمية وبنظر الحق، وليس شيخ الاسلام وحده الذي انبرى له بالنقد والتجريح، فهناك علماء فحول غيره امثال ابن رشد وابن الجوزي^(٢) في كتابيه «تلبيس ابليس» و«صيد الخاطر». لهذا كله نرى أنه لم يعد يستحق لقب حجة الاسلام، وان كان لا يزال خليفاً بلقب حجة المسلمين المقلدين والمبتدعة المستسلمين الذين يعرفون الحق من الرجال، لا الرجال من الحق!

وليس غرضنا الخط من قسدر الامام الغزالي، فهو الآن في عالم استوى لديه فيه الثناء والذم، انما غرضنا تحذير المسلمين من الوقوع في أخطائه وحض العوام وطلاب العلم على عدم دراسة كتبه التي اختلط فيها

(١) «العقيدة الاصفهانية» ص ١١٦

(٢) راجع كتبنا الذي سيصدر قريباً بعنوان «الامام الغزالي في ميزان وابن

تيمية وابن الجوزي

— كالأحياء مثلاً — الشر القليل بالخير الكثير ، قبل التعمق في معرفة الاسلام الصحيح ، وتمييز الحق من الباطل .

ان لقب حجة الاسلام ^(١) جدير بالامام ابن تيمية لما عرفنا من سعة علمه وفضله وجهاده ، فهو مجدد القرن الثامن الهجري الذي اخبر عنه النبي ﷺ بقوله « ان الله يبعث على رأس مئة كل عام من يجدد لهذه الامة امر دينها » . فقد ولد عام ٦٦١ هـ وتوفي في عام ٧٢٨ هـ ، ولا يصدق هذا الحديث بالامام الغزالي المولود عام ٤٥٠ هـ والمتوفى عام ٥٠٥ هـ .

والقصد من التجديد في الحديث الشريف دعوة المسلمين الى النبع الاسلام الصافي الاول وتطهيره مما لحق به من البدع ، وقد قام حجة الاسلام ابن تيمية بهذا الدور خير قيام ، بعكس الامام الغزالي الذي خالف أهل السنة في كثير من الامور ذكرنا بعضها ونذكر فيما يلي بعضها الآخر :

١ — اعتناقه مذهب الاشاعرة وفيه الجبر الكثير والقول بتكليف مالا يطاق .

٢ — دعوته الى التصوف البعيد عن روح الاسلام الصحيح .

٣ — انكاره السببية وتعطيله بذلك الحكمة من ايجاد الكائنات .

٤ — قوله بعلم الشريعة وعلم الحقيقة « فيسمى دين الله شريعة ، ويسمى الأساطير الباطلة حقيقة ، أو يسمى المعاني الحقيقية بكلمات الله : ظاهراً ، ويسمى ما يفتريه من معاني باطلة لهذه الكلمات : باطناً » وهذا يفسد العقيدة والفكر والاخلاق .

٥ — ادعائه بإمكان الوصول الى الحاسة الدينية وهي ماتعرف

(١) بمعنى حجة المسلمين ، فليس للاسلام حجة الا كتاب الله تعالى وسنة نبيه - صلى

الله عليه وسلم -

بالكشف والذوق عن طريق الخلوة^(١) والاذكار المبتدعة ، ولو صححت نتائج هذه الحاسة لكانت اوصلت الغزالي الى التمييز بين الاحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة التي جاءت في كتبه وخاصة الأحياء منها .

(١) حدثت قضية طريفة في مهرجان الغزالي الذين اقيم بدمشق في شهر شوال ١٣٨٠ هـ وفق آذار ٩٦١ م نرويهما للتفكه والعبرة وملخصها أن أحد المحاضرين تحدث عن الغزالي بدمشق وعن خلوته في زاوية في إحدى منارات الجامع الاموي عرفت فيما بعد بالزاوية الغزالية .

وبعد الظهر من اليوم نفسه كان دور المناقشة ، فقام الدكتور عبد الرحمن بدوي الوجودي المعروف في الاقليم الجنوبي - الاستاذ بجامعة عين شمس - وعلق على المحاضرة المذكورة بقوله : اني الآن جئت من الجامع الاموي وضعت المنارة الى آخرها بدرجة الطويل ، فلم اجد مكاناً يمكن للغزالي ان يتخلو به بنفسه . ورد عليه بعضهم بأن المنارة تهدمت بحريق الاموي ، وقد كان فيها مكان خلوة الغزالي .

وقد ادهشنا الاستاذ عبد الرحمن بدوي بتحقيقه فيما لا طائل وراءه ، وقد كنا نود ان نرد عليه ، ولكن حال ضيق وقت المناقشة دون ذلك ، فنبت فيما يلي ما كنا نريد ان نقوله له :

« ليش الاستاذ بدوي بدلا من اضاعه وقته في التحقيق التجريبي لمعرفة موضع خلوة الغزالي غير الشرعية قدم للأستاذ تحقيقاً عن نتائج المذهب الوجودي ، وما أدى اليه من اباحية وانهايار خلقي مريع .

كيف لا تكون له هذه النتائج الهدامة وامامه الدكتور بدوي يقول في رسالة صدرت بالقاهرة عام ٩٥٣ بعنوان « هل يمكن قيام اخلاق وجودية » :

« الوجودي الحق .. اعدى اعدائه القانون ، انه الحرية نفسها .. فلا معنى للواجب في عالمها . ولا تعيد لدى انطباعها وانطلاقها ، انه الفعل الدائم أيا كان نوعه ونتائجه ، فان معاني الاثم والصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب .

« أننا معاشر الوجوديين لانريد أن ننساق في احلام البراءة والبراءة والبطالة ، بل نصبح ملغفين : افعلوا ! افعلوا ! حتى لو أدى ذلك الى الخطأ !! .. »

النصير الطوسي وابن العلقمي وابن تيمية

قال الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار: (١)

وقفت على ما كتبه زميلنا العلامة الشيخ سليمان ظاهر بعنوان :
(نصير الدين الطوسي الحكيم الرياضي الفلكي) ومدار بحثه على ان النصير
امامي اثنا عشري ، لانصيري ولا اسماعيلي ، كما يرى ابن تيمية في رسالته
التي يرد بها على النصيرية .

ومن حجته في ذلك أنه ألف في أصول المذهب الامامي وفروعه،

— وسرعان ما كان لنداء وفلسفة الاستاذ بدوي صداها في الشباب الطائش اللاحق،
فاعلن تلهيد بكلية الآداب بجامعة القاهرة التصريح الآتي الذي نشرته جريدة «الجمهورية»
مقروناً باسمه ومستكرة جريمته قال : « ... أنا أو من بالوجودية وشعاري سأعلم ابني
كيف يصبح بلطجيا ، وابنتي كيف تصبح فاجرة ان شاءت ! »

اننا نقسم ان المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ومعسكر الشياطين لو اجتمعوا
بعضهم لبعض ظهروا لهم كيان هذه الامة، لما استطاعوا باكثر مما يقوم به الاساتذة
الوجوديون وامثالهم من الاباحيين والملاحدة. وهكذا لم تعد الصليبية الحديثة تحاربنا
باسلح ، بل بابنائنا !

اننا جد آسفون لهذا الاستطراد في الكلام على الوجودية ، ولنا بعض العذر
في ذلك ، ان الوجودية والصوفية الحلولية مدار بحثنا تكاد ان تكونان صنوين متشابهين في
الاباحية نتيجة عقيدة وحدة الوجود والحلولية، ألم يكن الصوفي العفيف التلساني لا يحرم
فرجا ويسبح نكاح الام والاخت ويقول لمن اعترض عليه : انت محجوب ! (راجع
كتاب « مصرع التصوف » ص ١٦٧) .

(١) « حياة شيخ الاسلام ابن تيمية » للاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار ص ١٨٦

وأنة مدفون بمشهد الامام الكاظم موسى بن جعفر الصادق، (الذي تنكر امامته الاسماعيلية الآغاخانية والبحرة ويرونها محصورة في اسماعيل أوولده الخبيب) .

وأجاب بأنه كان مكرها على صلته بهولا كو حفيد جنكيزالتري، وصحبته له، كما كان مكرها من زعيم الاسماعيلية ركن الدين على المقام معه في قلعته برتبة الوزير والمشير، وكان له من هولا كو مثل هذه الرتبة. قال الاستاذ (الظاهر) «أما ما كان للنصير من أثر مهور، وعمل مشكور، في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم فقد بلغ عشرات الألوف، وما استبقى عليه من الثروة العلمية وكتبها المعرضة للحريق والفرق، فقد بلغت مئات الألوف (قال:) وأما ما خدم به علم الافلاك فحسبه ابتناؤه قبة ورصداً عظيماً في مراغة، وقد ولاء هولا كو جميع الأوقاف في سائر بلاد» .

ونقل عن شمس الدين العرضي أن نصير الدين أخذ من هولا كو بسبب عمارة هذا الرصدما لا يحصيه الا الله تعالى خارجا عن الجوامك (الرواتب) التي للحكام والقومة .

ثم قال : فأنت ترى من هذا العرض القليل من مآثر النصير التي ما كان يتوقع تحقيق جزء منها لولا صحبته واستيزاره هولا كو اللذان كانا للمسلمين رحمة لانقمة، وخيراً لاشرأ .

ثم عجب لما ذهب اليه ابن تيمية من خلاف هذا، فقال : «وان من العجيب أن نرى الامام العلامة ابن تيمية وهو معاصره، ومن لا يتعذر عليه تمحيص الحقائق، فلا يبغضه حقه ..

فيقول فيه في رسالته الرد على النصيرية «ثم ان التتار ما دخلوا بلاد

الاسلام ، وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين الابعاوتهم
ومؤازرتهم ، فان مرجع هؤلاء الذين كان وزيرهم وهو النصير الطوسي ،
كان وزيراً لهم بالألوت وهو الذي أمر بقتل الخليفة !!» .

قال الزميل (الكريم) : ومن يقابل ما عراه الامام ابن تيمية الى النصير .
بما كتبه العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبي المتوفي ٧٦٤ قبل وفاة
النصير بثمان سنين بكتابه « فوات الوفيات » يجد أن الكتبي وقد تأخر
عصره عن عصر ابن تيمية ستاً وثلاثين سنة - كان ما كتبه وقد سكنت
العاصفة ... هو المعقول وهو الأحق بالاتباع وببراءة النصير مما عزي اليه ،
وهو ما لم يعرض له الكتبي بقليل أو كثير .

وأخيراً عزا الاستاذ سقوط الخلافة العباسية الى هو الخليفة
المستعصم ولعبه ، وكلفه بسماع الاغاني وطربه ، ناقلاً ذلك عن المؤرخ
ابن الطقطقي في كتابه : « الفخري في الآداب السلطانية » الى قوله :
« وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أرادل العوام ، الا وزيره
مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس ! وعقلاء الرجال !!
وكان مكفوف اليد مردود القول ، يتربص العزل والقبض صباح مساء » .
وختم الزميل الاستاذ مقاله بان الحافز له الى هذا البحث هو عزو
المبجائة العزاوي النصير الطوسي الى الفرقة الاسماعيلية قال : وكأنه تابع
ابن تيمية في ذلك ، والنصير من أقطاب علماء الامامية كما أوضحناه (قال :)
وللكاتب الشكر على تنبيهنا بمقاله الممتع على دفع تلك الشبهة ، ودحض
ما حام حول النصير من التهم في سقوط الخلافة العباسية ، وهو منها بريء
والحق أحق بالاتباع ١٠ هـ

وهنا يحول في الخاطر أمور ، أرى لزماً علي أن أوجه إليها نظر
الاستاذ العزيز ، ولو بالكلم الوجيز فأقول :

١ - انه سها بجعله وفاة ابن شاكر الكتبي قبل وفاة النصير
الطوسي بثمان سنين ، لأن النصير توفي سنة ٦٧٢ هـ وصاحب (الفوات) سنة
٧٦٤ هـ فيكون توفي بعده بـ (٩٢) عاماً لا قبله بثمان سنين ! .

٢ - لما توفي النصير كان لابن تيمية أحد عشر عاماً ، اذ ولادته كانت
سنة ٦٦١ فهو لم يعاصره معاصرة صحبة ولا مكاتبة .

٣ - استطرد عند ذكر موسى الكاظم الى الاسماعيلية الآغاخانية
والبهرة ومن الاسماعيلية من ليسوا باطنية ولا حولية ، فما معنى التقييد
(بالآغاخانية) وهم وزعيمهم من رأينا وعرفنا ؟ ومثلهم البهرة في الهند ؟
٤ - لم ينفرد الامام ابن تيمية بما ذكره من أمر النصير الطوسي ،
بل كتب التاريخ قد صرحت بهذا ، واني ابدأ منها بما صرح به ميرزا محمد
باقر الموسوي المؤرخ الشيعي في تاريخه (روضات الجنات) عن النصير
الطوسي في ترجمته له ، قال مانصه :

« ومن جملة امره المشهور والمعروف والمنقول حكاية استيزاره للسلطان
المحتشم ! في محروسة ايران هو لا كو خان بن نولي خان بن جنكيز خان من
عظماء سلاطين التتارية وأتراك المغول ، وجيئه في موكب السلطان المؤيد
مع كمال الاستعداد ، الى دار السلام بغداد ، لارشاد العباد ! واصلاح البلاد
وقطع دابر سلسلة البغي والفساد ! واخلاد ثائرة الجور والاباس ، بابداد دائرة
ملك بني العباس ، وايقاع القتل العام ، من اتباع أولئك الطغام ، الى أن
أسال من دمائهم الاقدار ! كأمثال الانهار فانهار ، بها في ماء دجلة ومنها
الى نار جهنم ! دار البوار ، ومحل الاشقياء الاشرار ! وقد كفيينا مؤونة

تفصيل هذه الواقعة المشهورة، بما رسمه أرباب التواريخ المتبعة، في أحوال
السلطين المغولية المستطرة . ١٥

هذا ما قاله هذا المؤرخ الشيعي والظاهر أن اصلاح الحال (بنظره) ،
هو بالابادة والاستئصال !! وهذه شماتة ظاهرة في الدنيا والآخرة ، والى
الله المصير!

وقال المؤرخ السبكي في الطبقات : « وأما الخليفة فقيل أنه (أي
هولاكو) طلبه ليلا ، وسأله عن أشياء ، ثم أمر به ليقتل ، فقيل لهولاكو أن
هذا ان أريق دمه تظم الدنيا ، ويكون سبب خراب ديارك ، فانه ابن عم
رسول الله ﷺ ، فقام الشيطان المبين ، نصير الدين
الطوسي وقال : يقتل ولا يراق دمه ، وكان النصير من أشد الناس على
المسلمين » .

وبعد أن قتلوا الخليفة والامراء عن آخرهم ، «مدوا الجسر وبذلوا
السيف ببغداد ، واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينج الامن
أخفى .. » ثم حفرت الدور وأخذت الدفائن والاموال التي لاتعد ولا
تحصى .. « فألزم المسلمون بالفطر في رمضان وأكل الخنزير وشرب الخمر !! ..
» وأعطى دار الخليفة لشخص من النصارى ، وأريقوا الخمر في المساجد
والجوامع !! ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان ، فلا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم ، هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي
لم يقع قط من منذ قامت الدنيا مثله » ١٥ .

فأين من أنقذه النصير من سيف هذا الظلم بعد هذا اقتل العام الذي
أجره في دار السلام؟! وهل ما أخذه من هولاكو من المال الذي لا يحصى
الا الله تعالى - بسبب عمارة الرصد - خارجا عن الجوامك (الرواتب)

التي للحكماء والقومة ، سهل هو الامن الاموال التي نهبها هولاء كو (بعد التقتيل العام) وهي لاتعد ولا تحصى ؟ فأين عدل الفلاسفة وحكمتهم ؟ وأين نصحبهم هولاء كو وتأثيره ؟؟ وهل الكتب التي استبقاها النصير - وقد بلغت مئات الألوف - الامن المنهوبات أيضاً كالأموال ؟! - ولو نقل الاستاذ عن ابن شاعر في فواته ، كما نقل عنه الاستاذ الزركلي في أعلامه وسر كيس في معجمه ، لظهر الحق للعيان ، وتبينت الاساءة من الاحسان !! ففي (ج ٣ ص ٩٧٤) من الأعلام : « واتخذ خزانة عظيمة مألها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، اجتمع فيها نحو أربعائة الف مجلد » ومثلها في معجم سر كيس (ص ١٢٥٠) وانظر (ص ١٤٩ ج ٢) فالاستاذ لم يصرح بأنها من المنهوبات ، أو بأنها أمانة بيد الطوسي ومن معه ، يجب ردها الى أهلها .

وأي هذا مما نشرناه في مجلة المجمع العالمي تحت عنوان شجاعة الامام (ابن تيمية) وغيرته على الدين والوطن وهو : « أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذرارهم ونساءهم ، فبذل السلطان غازان - وهو اول من أسلم من ملوك المغول - أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فورهِ ، وانتدب رجالاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيمة ... بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين قبله الله تعالى ما أراد ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهلهم ، وحفظ حريمهم ، ولما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبت من أغنام الناس ، طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟ ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية ، وسعيه في اطلاق

امرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، واصرارہ على ذلك ، ولم
يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط :

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى من تباكى !

سقوط الخلافة العباسية على يد الوزير ابن العلقمي

نقل الاستاذ الزميل قول من قال في وصف أصحاب الخليفة المستعصم :
« وكلهم جهال من أرادل العوام (قال) الا وزيره مؤيد الدين محمد بن
العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال ! ! وكان مكفوف
اليده ، وأراني مضطراً أن أذكر ما أغفله الزميل من كتب التاريخ حفظاً
للحقيقة أن تضعي قال الاسحاقي في تاريخه أخبار الاول (ص ١٠٨) :
وكان سبب زوالها - أي الخلافة العباسية - استيلاء مماليكهم وأمرائهم
عليهم ، وتفويض أمور المملكة اليهم ، وامتهانهم غاية الامتهان ، الى ان
صاروا أسماء بلامسيات ، وصوراً هيولى يتصرف فيها بالحو والاثبات ،
ومن أعظم أسباب زوالها أن مؤيد الدين العلقمي كان وزير المستعصم ،
وكان رافضياً مستولياً على المستعصم عدواً له ولأهل السنة ! ! يداريهم في
الظاهر وينافقهم في الباطن ! وكان يريد ازالة الخلافة من بني العباس
واعادتها الى العلويين .. وصار يكاتب هولاء ويطمعه في ملك بغداد ! !
ويطالعه باخبارها ، ويعلمه كيفية أخذها ، ويخبوه بضعف الخليفة والخلال
العسكر عنه ! وصار الوزير يحسن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف
على العسكر ، فقطع أرزاقهم وشنت شملهم ! بحيث انه أذن مرة لعشرين
الف مقاتل ان يذهبوا الى ابن ارادوا ، ووفر علوفاتهم في الخزينة ، وأظهر
للمستعصم انه وفر من علوفات العسكر اموالاً عظيمة في بيت المال ،

فأعجب المستعصم رأيه ، وكان يحب المال ويجمعه ، وما كان يعلم انه
يجمعه لعدوه :

يخبركم انه فاصح وفي نصحه ذنب العقرب !!

الى أن قال (ص ١١٠) : ثم ان المستعصم ومن معه لم يزل في غفلته
لاخفاء ابن العلقمي سائر الاخبار عنه الى أن وصل هولاء الى بلاد
العراق واستأصل من بها ، وتوجه الى بغداد ، فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور ،
وندم على فعلته حيث لاينفعه الندم ، وجمع من قدر عليه وبرز الى قتال
هولاء ، فوقع المصاف والتحم القتال ، ووقع الطراد والنزال ، واستمر
من اقبال الفجر الى ادبار النهار ، الى آخر ما قال .

وانقل هنا ما سجله في كتابه الاسلام والحضارة العربية ، رئيس مجمعنا
السابق الاستاذ كرد علي رحمه الله ، فكتابه جامع التواريخ و خلاصتها ،
وقوله فصل في مثل هذه النوازل وأسبابها ، قال (ص ٣٠٢ ج ١) :

وبينما كانت في هذا الشرق القريب تتألف كتلة صغيرة تدفع الصليبيين
عن مرة بلاد الاسلام مصر والشام فتخرب مدن وحصون ، وتدك معالم
وجوامع كان جنكيز - يخرب في اواسط آسيا وبلاد المسلمين ، ولم تك
تدفع الشام عنها عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاء الى بغداد - يخربها
ويقتل الخليفة المستعصم . ويقضي على جلة الفقهاء ورجال الدولة ويضع
السيف في دار السلام ^(١) اربعين يوماً ويستخرج الاموال والتحف بأنواع

(١) «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة» في المائة السابعة لابن القوطي

العذاب، ويحرق معظم تلك المدينة الساحرة، وزادت عدة القتلى عن ثمانمائة ألف، عدا الاطفال ومن هلكوا في الصرايب والقنى والآبار، واحرق قبور الخلفاء ونش عظامهم! وبنى بكتب العلماء اصطبلات الخيول! وطوال المآلف عوضاً عن اللبن. وقيل ان ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والاوراق! وقيل انه اقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة!

هذا عدا ما نهب من البلاد التي احتلها فلأ في مراغة خزانة عظيمة من الاسفار نهبها من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف (١) مجلد.

(قال) ومن أعظم البلاء في القضاء على الخلافة العباسية بدار السلام أن الرافضة عاونوا (٢) هولاء على المسلمين لما جاء خراسان والعراق والشام، كما كانوا عاونوا جده جنكيز، قال ابن تيمية : وكان العلقمي وزير الخليفة منهم، فلم يزل يكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى العامة عن قتالهم، ويكيد أنواعاً من الكيد حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال انه بضعة عشر ألف ألف انسان! (٣) او أكثر او أقل، ولم يرد في الاسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسلمين بالتتر. اهـ

قلت : فأين كان النصير الطوسي، وما ذا عمل في هذه المذابح العامة،

(١) فوات الوفيات للكتبي

(٢) منهاج السنة لابن تيمية

(٣) اي مجموع ما قتله التتر

وأين ما كان له (من أثر مبرور ، وعمل مشكور في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم ، فقد بلغ عشرات الألوف) وما ندري من أين نفحه الزميل الكريم هذه المبرة ، وهو وزير الكفرة الفجرة ونصيرهم على الاسلام وأهله ، وقد رأينا له مأثرة لم يذكرها الاستاذ لأنها مزرية بالحكماء ، وهي من ترجمته في فوات الوفيات ، وجعلها أن هولاء كو غضب على علاء الدين الجويني صاحب الديوان فأمر بقتله ، فتوجه النصير ويده عكاز وسبحة ثم اضطراب ، وخلفه من يحمل مبخرة وبخوراً وناراً ، فرآه خاصة هولاء كو فأخبروه ، فأدخل عليه فأشار النصير عليه بإطلاق من في الاعتقال والعفو عن لهجناءه ، فأمر هولاء كو بذلك خوفاً على ملكه ، وانطلق صاحب الديوان في جملة الناس » ولم يذكره النصير الطوسي ، وهذا غاية في الدهاء ، بلغ به مقصده ودفع عن الناس أذاهم « قلت هذه المسألة شخصية لم يرد بها الوزير النصير غير علاء الدين ، وهو زميله ، ولو استطاع تخليصه وحده بأية وسيلة ، لما أجرى هذه الحيلة ، ثم أليس في العفو عن أصحاب الجنايات مضیعة لحقوق المجنى عليهم ؟

ونختم القول بكلمة كاشفة عن مراد ابن تيمية في وصفه للنصير - في رده على النصيرية - بما وصفه به ، نوردها بلسان تلميذه الامام ابن القيم ، قال في اغائة اللفان الكبرى (١) :

ولما انتهت النوبة الى ... النصير الطوسي وزير هولاء كو ، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه ، فعرضهم على السيف ، حتى شفا

أخوانه من الملاحدة ، واشتفى هو ، فقتل الخليفة (١) والقضاة والفقهاء
والمحدثين ، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ، ونقل
أوقاف المدارس والمساجد والربط اليهم وجعلهم خاصته وأولياءه . (الى
أن قال) :

وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل
فيه قوله بقدم العالم وانكار المعاد ، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه
العالم ، فقام له نصير الاحاد وقعد ، ونقضه بكتاب سماه « مصارعة
المصارعة » ووقفنا على الكتاين - نصر فيه (أي النصير) أن الله تعالى
لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأنه لا يعلم شيئاً ، وأنه لا يفعل
شيئاً بقدرته واختياره ، ولا يبعث من في القبور « ا ه .

ومن أخف ما قيل في النصير ما جاء في مفتاح السعادة (ج ١ ص ٢٦١) :
الا أنه تجاوز الله عنه ، كان غالباً في التشيع ، كما يفصح عنه المقصد السادس
في التجريد . وكان يحكى عنه مع ذلك أمور لاتناسب رتبته في العلم حيث
كان في معنى الوزير للكافر المسمى بهولاكو ملك الترك الطغاة ، وهو
الذي أغار على بلاد المسلمين وخربها وانقطعت بسببه سلسلة الخلافة العباسية
في بغداد ، وجرى ماجرى مما اشتهر أمره ويطول شرحه .

وجملة القول : ان اصرح ما قرأناه في ترجمة النصير وعقيدته هو كلام
ميرزا محمد الباقر صاحب روضات الجنات المؤرخ الاصفهاني . فالله أعلم
بحقيقة حاله ومآله .

(١) علق الاستاذ المصحح على هذا بما حصله ان التتار الذين دخلوا بغداد هم
الذين قتلوا الخليفة بجالة ابن العلقمي وزير المستعصم ، وكان النصير الطوسي قاضي
التتار ومشيرهم .

سبب موت الحسن وشهادة الحسين

لما كان شيخ الاسلام ابن تيمية - رضي الله عنه - يسعى لدعم الوحدة الاسلامية على أساس من التفاهم متين ، لذلك تحدث عن فتنة الحسن والحسين - رضي الله عنهما - بشيء من التفصيل ، بغية ازالة سوء التفاهم بين المسلمين ^(١) :

قال الباطني المردود عليه :

« وشم معاوية الحسن » فهذا قيل ولم يثبت . فيقال : ان امرأته سمته ، وكان مطلقاً رضي الله عنه فلعلها سمته لغرض . والله أعلم بحقيقة الحال . وقد قيل أن أباه الاشعث بن قيس أمرها بذلك ، فانه كان يتهم بالانحراف في الباطن عن علي وابنه الحسن . واذا قيل أن معاوية أمر أباه كان هذا ظناً محضاً ، والنبي ﷺ قال « اياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث » . وبالجملة فمثل هذا لا يحكم به في الشرع باتفاق المسلمين ، فلا يترتب عليه أمر ظاهر لامدح ولا ذم ، ثم أن الاشعث بن قيس مات سنة أربعين ، وقيل سنة احدى واربعين ، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي في العام الذي كان يسمى عام الجماعة ، وهو عام احدى واربعين . وكان الاشعث حماً الحسن بن علي ، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك . واذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته ؟

(١) المنتقى وهو مختصر منهاج السنة للإمام الذهبي ص ٢٦٦ و ٢٦٧ بقليل

من الاختصار .

وأما يزيد فلم يأمر بقتل الحسين (باتفاق أهل النقل) ، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق ، والحسين - رضي الله عنه - كان يظن أن أهل العراق ينصرونه ويوفون له بما كتبوا إليه ^(١) فإرسال اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، فلما قتلوا مسلماً وغدروا به وبايعوا ابن زياد أراد الرجوع فادر كته السرية الظالمة ، فطلب أن يذهب إلى يزيد أو يذهب إلى الثغر ، أو يرجع إلى بلده ، فلم يمكنوه من ذلك حتى يستأمر لهم . ولكنه - رضي الله عنه - أبى أن يسلم نفسه ، وأن ينزل على حكم عبد الله ابن زياد ، وقاتل حتى قتل شهيداً مظلوماً - رضي الله عنه - ولما بلغ ذلك يزيد أظهر التوجع ، وظهر البكاء في داره ، ولم يصب لهم حريماً أصلاً بل جهزهم وأعطاهم وبعثهم إلى وطنهم . وكان معاوية وصى يزيداً برعاية حق الحسين وإجلاله .

(١) وقد علق الاستاذ محب الدين الخطيب على ذلك بالآيات التالية :

غداة استغاثت بالحسين جوعهم	إذا خف منهم تابع حل تابع
إن أقدم إلينا يا ابن أحدنا	لغير ابن بنت المصطفى لأتباع
ومد نزلوا في عرسه الطف والنجلت	حقيقة ما يخفى من القدر خادع
فباءوا بذل مطعين رؤوسهم	حيارى وما في الجمع للنصح سامع
ولم يرعوا بل صاح صائح جمعهم	بصوت له تستك منه المسامع
إن أنزل على حكم الأمير مبايعاً	والأفأ غير الاسنة شافع

هكذا شهد أحد شعراء الشيعة المعاصرين لنا وهو محمد جواد خضرة فاجرى الله الحقيقة على لسانه . ولما انصرف علي بن الحسين بالذريعة من كربلاء ودخل الكوفة خرج لهم شيعتهم الخائثون ونسأؤهم يندبن متهتكات الجيوب كما يفعل القوم الآن في كل عاشوراء ، فقال لهم علي بن الحسين سلام الله عليه : « يا أهل الكوفة ، أنكم تبكون علينا فن قتلنا غيركم ؟! »

وقال الامام ابن تيمية في موضع آخر ^(١) معلقاً على هذا الحادث المؤسف والمؤلم
وهذا استقر امر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للاحاديث
الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر
على جور الائمة وترك قتالهم ، وان كان قد قاتلهم في الفتنة خلق كثير
من أهل العلم والدين . وباب قتال أهل البغي ، والامر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر يشتهر بالقتال في الفتنة ، وليس هذا موضع بسطه . ومن تأمل
الاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في هذا الباب ، واعتبر أيضاً
اعتبار أولي الابصار ، علم أن الذي جاءت به النصوص النبوية خير الامور .
ولهذا لما اراد الحسين - رضي الله عنه - أن يخرج الى أهل العراق لما
كتبوه كتباً كثيرة - أشار اليه أفاضل أهل العلم والدين كأبن عمر وابن
عباس وإبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن لا يخرج ، وغلب
على ظنهم أنه يقتل ، حتى أن بعضهم قال : أستودعك الله من قتيل !
وقال بعضهم : لولا الشفاعة لامسكتك ومنعتك من الخروج ! وهم بذلك
قاصدون نصيحته ، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين . والله ورسوله انما
يأمر بالصالح لا بالفساد ، ولكن الرأي يصيب تارة ويخطئ أخرى . فبتين
أن الأمر على ما قاله اولئك ، اذ لم يكن في الخروج مصلحة لافي دين ولا في
دنياه ، بل تمكن اولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه
مظلوماً شهيداً ، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في
بلده ، فان ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء ، بل
زاد الشر بخروجه وقتل ونقبض الخير بذلك وصار سبباً لشر عظيم ، وكان
قتل الحسين مما أوجب الفتن ، كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن ، وهذا

كله مما يبين أن ما أمر النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم، هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وإن من خالف ذلك معتمداً أو خطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد، ولهذا اتفق النبي ﷺ على الحسن بقوله «إن ابني هذا سيد»، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ولم يثن على أحد لا بقتال ولا فتنه ولا بخروج على الأئمة ولا نزع من طاعة ولا بفارقة الجماعة.

وقد ثبت في البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : « أول جيش يغزون القسطنطينية مغفور لهم » فأول من غزا من القسطنطينية جيش بعثهم معاوية وعليهم ابنه يزيد ، وفيهم من سادات الصحابة أبو أيوب الأنصاري فحاصروها ...

وأما قول الباطني المردود عليه « والسبي والحمل على الجمال بلا اقتاب، فهذا من الكذب الواضح، ما استحلت أمة محمد ﷺ سبي هاشمية، وإنما قاتلوا الحسين خوفاً منه ، من أن يزيل عنهم الملك ، فلما استشهد فرغ الأمر وبعث بآله إلى المدينة ، ولكن جهل الباطنيين إليه المنتهى، ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وفاعله والراضي عنه مستحق للعقاب، ولكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه ، وقتل زوج اخته عمر ، وقتل زوج خالته عثمان !! » اهـ .

القضاء والقدر

للعقيدة في نفوس الناس أثر عميق ، إيجاباً أو سلباً ، حسب ما تكون هذه العقيدة صحيحة أو باطلة ، أو كانت صحيحة في الأصل، ولكن تسرب إليها الفساد والضلال بعد ذلك ، فجعلها آلة هدم وتخريب، بدل أن تكون وسيلة للسعادة والقوة والرفق.

هذه عقيدة القضاء والقدر في الاسلام ، فقد كانت مصدر قوة المسلمين الاولين وسبب مجدهم ، وعظمتهم ، حينما اعتقدوا باختيار المرء وحرية ومسؤوليته في الحياة ، فاعتمدوا على انفسهم وشدوا من عزائمهم وشحدوا افكارهم فانطلقوا في آفاق العلوم وميادين الجهاد . أما اليوم فان اكثر المسلمين - وبالأسف - نتيجة التصوف ومذاهب علم الكلام الباطلة آمنوا بالجبر ، وهو كفر صراح ، فتركوا العمل واستسلموا للكسل ، واعتقدوا أن الله تعذيب الطائع واثابة العاصي ، وهو كفر صراح أيضاً مادام الله سبحانه قد حرم الظلم على نفسه ، ففقدوا الامل وتسرب الشك الى نفوسهم في العدل الالهي وهكذا غدوا في فوضى واضطراب ولا ينقذهم منها الا الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر .

يقول بعضهم ان الانسان في العالم مسير ولا فائدة من جده مادام ان الله قد قدر على العبد عمله قبل ان يخلقه ، فهو كالورقة المندفعة في المجرى المائي ليس له شيء من الاختيار ، ألم يقل الله سبحانه « والله خلقكم وما تعملون ^(١) »

هذا الاعتقاد وهم فاحش ، وفيه سوء ظن بالله ، اذ ليس من المعقول أبداً أن يجبر الانسان ويقيده ثم يعاقبه ! (وما ربك بظلام للعبيد - ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون - ولا يرضى لعباده الكفر ^(٢)) .

(١) جاء في كتاب الفلسفة القرآنية (١٥٣) ان استشهاد الجبريين بان الله يقول « والله خلقكم وما تعملون » فالكلام فيه موجه الى قوم ابراهيم اذ قال لهم اتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ! اي خلقكم وخلق هذه الاصنام التي تنحتونها وليس المقصود به نسبة معاصي العباد الى الله !!

(٢) ثلاث آيات قرآنية

ان تقدير الله سبحانه هو بمثابة العلم السابق تقريباً، فقد علم تعالى ان
زيداً مثلاً سيعطى عقلاً وتديراً ولكنه سيجري مع هواه فكتبه من
من الاشقياء . وبعكسه عمرو مثلاً فانه سيعطى كزيد من العقل والتدبير
غير انه سيتبع الهدى فكتبه من السعداء.. والى هذا يشير تعالى :
« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهها
وقد خاب من دساها »

يقول الفيلسوف ديكارت «أن الجسد محكوم بقوانين طبيعية كسائر
الاجسام المادية، ولكن الروح طليقة من سلطان هذه القوانين
وعليها أن تجاهد الجسد وتلتمس العون من الله بالمعرفة، والقداسة في الجهاد.
ومن قلاميذه من يقول : ان الانسان حر في كل فعل من افعاله ولكن
الله يعلم منذ الازل ما سيفعله كل انسان لانه عليم خبير.
هذا ملخص معضلة القضاء والقدر وفي القرآن الكريم آيات كثيرة
تثبت ذلك :

«وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم»

«ستجزون ما كنتم تعملون»

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»

«وأن ليس للانسان ما سعى»

«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»

«كل امرئ بما كسب رهين».

ولو كان الامر بخلاف ذلك لكان من العبث ارسال الانبياء وانزال

الكتب السماوية .

أما الآيات التي يدل ظاهرها على عكس ذلك فهي تعين مشيئة الله
العليا في القضايا العامة فليس المرء حراً في التصرف في العالم كما يشاء !

و كثير من الآيات التي يشتم منها رائحة الجبر ذكرت بعد نضال المؤمنين أو بعد عناد الكفار واصدارهم فحقت عليهم العماية وغضب الله سبحانه . لتأمل في قوله تعالى « من يهدي الله ^(١) فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً » نجده ذكر بعد نضال أهل الكهف وفرارهم من الكفر . ولنتأمل أيضاً في قوله تعالى « من يهدي الله ^(١) فهو المهتدي ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً فأولئك هم الخاسرون » . جاء بعد قوله سبحانه « ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ^(٢) » .

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين. » « فان الله لا يهدي من يضل » « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

والخلاصة ينبغي المرء أن يعتقد أن له جزءاً اختيارياً يسمى الكسب وهو مناط الثواب والعقاب . وقد كان هذا الاعتقاد قديماً بين المسلمين حافظاً لهم للثواب والتقدم .

وقد شعر حجة الاسلام ابن تيمية بثاقب رؤية انحراف المسلمين في فهم عقيدة القضاء والقدر فألف رسالة هامة في ذلك نشرها فيما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام حسنة الايام أوجد المجتهدين قامع المبتدعين تقي الدين احمد بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي - رضي الله عنه - عن قوم يحتجون بالقدر ويقولون قد قضى الامر من الذر ، فالسعيد سعيد

(١) سورة الكهف آية ١٧

(٢) سورة الاعراف آية ١٧٦

والشقي شقي من الذر ويحتجون بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنی اولئك عنها مبعدون » ويقولون مالنا في جميع الافعال قدرة ، وانما القدرة لله تعالى ، قدر الخير والشر وكتبه علينا والمراد بيان خطأ هؤلاء بالأدلة القاطعة . ويقولون من قال لا اله الا الله دخل الجنة . ويحتجون بالحديث الذي فيه قوله ﷺ وان زنا وان سرق وبغير ذلك . فما الجواب من هذا جميعه افتونا مأجورين .

فأجاب نفعا الله بعلومه :

الحمد لله رب العالمين . هؤلاء القوم اذا صبروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى ! فان النصارى واليهود يؤمنون بالامر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب لكن حرقوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا بعض كما قال الله تعالى « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا . » والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما » فاذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقا فكيف بمن كفر بالجميع ومن لم يقر أمر الله ونهيه ووعدته ووعيدته بل ترك ذلك محتجا بالقدر فهو أكفر ممن من ببعض وكفر ببعض . وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه :

احدها أن الواحد من هؤلاء اما أن يرى القدر حجة للعبد وأما أن لا يراه حجة للعبد . فان كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس فانهم كلهم مشتركون في القدر وحينئذ يلزمه ان لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويقسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل ، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون فان احدهم لا يزال يذم هذا ويبغض هذا

ويخالف هذا حتى أن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه ، فإذا كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا أحداً ولا يبغضوا أحداً ولا يقولوا عن أحد أنه ظالم ولو فعل ما فعل ومعلوم أن هذا لا يمكن أحداً فعله ولو فعل الناس هذا لهلك العالم فتبين أن قولهم فاسد في العقل كما أنه كفر في الشرع وأنهم كذابون مفترون في قولهم أن القدر حجة للعبد .

الوجه الثاني : أن هذا يلزم منه أن يكون إبليس وفرعون وقوم نوح وقوم هود وكل من أهلكه الله بذنوبه معذورين ! وهذا من الكفر الذي اتفق عليه أرباب الملل !

الوجه الثالث : أن هذا يلزم عنه أن لا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا أهل الجنة وأهل النار . وقد قال تعالى « وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الخروار وما يستوي الأحياء ولا الأموات » . وقال تعالى « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » وقال تعالى « أم حسب الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » . وذلك أن هؤلاء جميعاً سبق لهم من الله تعالى السوابق وكتب الله تعالى مقاديرهم قبل أن يخلقهم وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالآيمان والعمل الصالح ، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان ، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصي الله تعالى .

الوجه الرابع : أن القدر نؤمن به ولا نحتج به فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ، ولو كان الاحتجاج

بالقدر مقبول لقبل من ابليس وغيره من العصاة. ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق ولا قتل قاتل ولا اقيم حد على ذي جريمة ولا جاهد في سبيل الله ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر !!

الوجه الخامس : « أن النبي ﷺ سئل عن هذا فانه قال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة . ف قيل : يارسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه البخاري ومسلم . وفي حديث آخر في الصحيح انه قيل له يارسول الله أو أيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون . أفما جفت به الاقلام وطويت به الصحف ف قيل . ففيم العمل . فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

الوجه السادس : أن يقال إن الله تعالى علم الامور وكتبها على ماهي عليه فهو سبحانه قد كتب أن فلاناً يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة وفلاناً يفسق ويعصي فيدخل النار كما علم وكتب أن فلاناً يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد ، وأن فلاناً يأكل ويشرب فيشبع ويروى . وأن فلاناً يبذر البذر فينبت الزرع . فمن قال أن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح كان قوله قولاً باطلاً متناقضاً لما علمه الله وقدره . ومثل من يقول أنا لأطأ امرأة فان كان الله قضى لي بولد فهو يولد فهذا جاهل فان الله تعالى اذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل وتلد . فأما الولد بلا حبل ولا وطاء فان الله لم يقدره ولم يكتبه ، كذلك الجنة انما أعدها الله تعالى للمؤمنين فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا ايمان كان ظنه باطلاً واذا اعتقد أن الاعمال التي أمر الله بها لا يحتاج اليها ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها كان كافراً والله قد حرم الجنة الا على أصحابها .

(فصل) وأما قوله تعالى « ان الذين سبقت لهم منا الحسنی » الآية فمن سبقت له من الله الحسنی فلا بد أن یصیر مؤمناً تقياً فمن لم یکن من المؤمنین لم تسبق له من الله الحسنی ، لكن الله اذا سبقت للعبد منه سابقة استعمله بالعمل الذي یصل به الى تلك السابقة کمن سبق له من الله تعالى أن یولد له ولد فلا بد أن یطأ امرأة یحبها فان الله سبحانه وتعالى قدر الأسباب والمسببات فسبق منه هذا وهذا ، فمن ظن أن أحداً سبق له من الله الحسنی بلا سبب فقد ضل بل هو سبحانه میسر الأسباب والمسببات وهو قدر فيما مضى هذا وهذا .

(فصل) ومن قال أن آدم علیه الصلاة والسلام ما عصی فهو مکذب للقرآن یشتاب فان تاب ولاقتل ، فان الله تعالى قال : « وعصى آدم ربه فغوى » ثم اجتبه ربه فتاب علیه وهدی « فالمعصیة هی مخالفة الامر الشرعی . فمن خالف أمر الله الذي أرسل فیهِ رسله وأنزل به کتبه فقد عصاه ، وان کان داخلاً فيما قدره الله وقضاه وهؤلاء ظنوا ان المعصیة هی الخروج عن قدر الله . فان لم تکن المعصیة الا هذا فلا یكون ابليس وفرعون وقوم نوح وقوم عاد وثمود وجميع الکفار عصاة أيضاً لأنهم داخلون فی قدر الله تعالى . ثم قائل هذا یضرب ويهان فاذا تظلم من فعل ذلك به قيل له هذا الذي فعل هذا لیس هو بعاص لله تعالى فانه داخل فی قدر الله عز وجل کسائر الخلق . وقائل هذا القول متناقض لا یشب علی حال .

(فصل) أما قول القائل مالنا فی جميع أفعالنا قدرة فقد کذب فان الله تعالى فرق بین المستطیع القادر وغير المستطیع وقال (فاتقوا الله

ما استطعتم) وقال تعالى (والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)
 وقال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ،
 ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) والله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة وفعلا
 كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وماتشؤون الا أن يشاء الله رب
 العالمين) وقال تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) لكن الله سبحانه خالق
 وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل فانه لا رب غيره ولا اله سواه
 وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه .

(فصل) وأما قول القائل الزنا من المعاصي مكتوب فهو كلام
 صحيح لكن هذا لا ينفعه الاحتجاج به ، فان الله تعالى كتب أفعال العباد
 خيرا وشرا وكتب ما يصيرون اليه من السعادة والشقاوة وجعل
 الاعمال سببا للشواب والعقاب وكتب ذلك كما كتب الامراض وجعلها
 سببا للمرض والموت فن أكل السم فانه يمرض أو يموت والله تعالى قدر
 وكتب هذا وهذا كذلك من فعل ما نهي عنه من الكفر والفسوق
 والعصيان فانه فعل ما كتب عليه وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن
 عمل ذلك ، وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين
 الذين قال الله تعالى عنهم (وقال الذين اشر كوا لو شاء الله ما عبدنا من
 دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل
 الذين من قبلهم !) وقال تعالى (سيقول الذين اشر كوا ما أشر كنا ولا
 آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا
 بأسنا قل هل عندكم من علم تخرجوه لنا إن تتبعون الا الظن وان انتم
 الا تخرصون قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) .

(فصل) وأما قول القائل من قال لا اله الا الله دخل الجنة

واحتجاجه بالحديث المذكور فيقال لا ريب أن الكتاب والسنة فيها وعده
 ووعيد . وقد قال تعالى (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون
 في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا
 أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا
 تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً
 فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيراً) ومثل هذا كثير في الكتاب
 والسنة والعبد عليه ان يصدق بهذا وهذا لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض
 فهو لاء المشركون ارادوا ان يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعد ، والحرورية
 والمعتزلة ارادوا ان يصدقوا بالوعد دون الوعد وكلاهما خطأ والذي
 عليه أهل السنة والجماعة الايمان بالوعد والوعد وكما ان ماتوعد الله به
 العبد من العقاب قد بين سبحانه انه مشروط بان لا يتوب فان تاب الله
 عليه وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فان الحسنات يذهبن السيئات
 وبأن لا يشاء الله ان يغفر له فان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون
 ذلك لمن يشاء ، فهكذا الوعد له تفسير وبيان فمن قال بلسانه لا اله الا الله
 وكذب الرسول ﷺ فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك ان
 جحد شيئاً مما انزل الله تعالى فلا بد من الايمان بكل
 بكل ما جاء به الرسول ﷺ ثم ان كان من أهل الكتاب (١) فأمره الى الله
 تعالى ان شاء غفر له وان شاء عذبه ، وان ارتد عن الاسلام ومات مرتداً
 كان في النار ، فالسيئات تحبطها التوبة والحسنات تحبطها الردة . ومن كان
 له حسنات وسيئات فان الله تعالى لا يظلمه بل من يعمل مثقال ذرة خيراً
 يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى يتفضل عليه ويحسن اليه
 يغفرته ورحمته ومن مات على الايمان فانه لا يخلد في النار ، فالزاني والسارق

(١) لعله من أهل الاسلام

لا يخلد في النار لابد أن يدخل الجنة ، فالنار يخرج منها من كان في قلبه
مثقال ذرة من الايمان وهؤلاء المسؤول عنهم يسمونه القدرية المباهية
المشركية وقد جاء في ذمهم من الآثار ما يضيّق عنه هذا الجواب . اهـ

من مظاهر الشرك

التوحيد أصل عظيم من أصول الدين ، وقد كان السبب الأول في
انطلاقة المسلمين في ميادين الفتح والمجد ، وفي آفاق العلم والحضارة حتى
غدوا سادة العالم ومحوري الانسانية من الطواغيت والطغاة بما حقق قول
الرسول ﷺ حينما نادى بالعرب : « كلمة واحدة تعطونها ، تدين لكم
بها العرب وتخضع لكم بها العجم : » تقولون لا اله الا الله » وتخلعون
ما تعبدون من دونه ! »

ومن حكمة ذلك أن توحيد الله في الربوبية والألوهية والصفات ،
يفتح ذهن المسلم ويقوي شخصيته ، ويثير في نفسه شرارة تحرق الأساطير
والأوهام والخضوع لعبادها سمّت مكانتهم ، لا يملكون لانفسهم ضراً
ولانفعاً ، فيغدو مستقل الفكر ، منطلقاً الى العظمة ، راغباً في الخلود ،
مستعذباً بالشهادة في سبيل الله .

هذه بعض آثار التوحيد في الامة الاسلامية ، ولقد أتى على المسلمين
حين من الدهر انحرفوا عن هذا التوحيد واتخذوه لفظاً فقط يتمنون به
في تسابيحهم وصلواتهم ، فعششت الخرافات في نفوسهم وانحطت بهم في
مهاوي الكسل والاستسلام .

في مثل هذا العصر جاء حجة الاسلام ابن تيمية ، فوجد المسلمين
يتساقطون على قبور الأنبياء والأولياء يستغيثون بهم ويدعونهم في

الشدائد وينذرون فهم . لا هم لهم الا شد الرحال اليهم وتقديم الشموع والزيوت والبخور والقرابين لهم ، والتمرغ بتراجمهم ، مما أدى الى الخطاطمهم وتهافت الاعداء عليهم ، فماله أمرهم وسارع الى انقاذهم ، متحملاً جميع الأذى منهم ، فألف الكتب والرسائل الكثيرة ، داعياً المساكين الى تطهير عقائدهم من الشرك وفي الصفحات التالية مقتطفات من كتابه القيم «قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة» تكشف عن آرائه في التوحيد الخالص .

النهي عن اتخاذ القبور مساجد

واتخاذ^(١) المكان مسجداً هو أن يتخذ للصوات الخمس وغيرها كما تبني المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لادعاء الخلقين فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصوات فيها كما تقتصد المساجد ، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة الى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان الا لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة الى الشرك بالله . والفعل اذا كان يفضي الى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهى عن الصلاة في الاوقات الثلاثة^(٢) لما في ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذي^(٣) يفضي الى الشرك ، وليس في قصد الصلاة في تلك الاوقات مصلحة راجحة لا مكان التطوع في غير ذلك من الاوقات ، ولهذا تنازع العلماء في ذوات^(٤)

(١) قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ص ٢٤ - ٢٥

(٢) الاوقات الثلاثة وقت طلوع الشمس واستوائها في وسط السماء وغروبها .

(٣) المراد التشبه بالمشركين الذين يعبدون الشمس من دون الله فيسجدون لها ويعظمون الاوقات الثلاثة .

(٤) أي في الصلوات التي لها أسباب كالفاطمة والسنة المؤقتة وسنة الوضوء وتحيمة

لمسجد وتوابع الفرائض ونحو ذلك فلا تحرم في هذه الاوقات .

الاسباب فسوغها كثير منهم في هذه الاوقات، وهو أظهر قولي العلماء، لأن النهي اذا كان لسد الذريعة ايجز للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الاسباب يحتاج اليه في هذه الاوقات، ويفوت اذا لم يفعل فيما فتفت مصلحتها، فايبحث لما فيها من المصلحة بخلاف ما لاسبب (١) له فانه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا يفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسد توجب النهي عنه. فاذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الاوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفتضي ذلك الى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها، كان معلوماً أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفتضي الى دعاء الكواكب - كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفتضي ذلك الى دعائهم والسجود لهم، كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد.

زيارة القبور المشروعة والبدعة

ولهذا (٢) كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين: زيارة شرعية وزيارة بدعية. فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له. فالقيام (٣) على قبره من جنس الصلاة

(١) ما لاسبب له هو النفل المطلق الذي يتطوع به المصلي لوجه الله من غير أن يرد فيه نص بتوقيت.

(٢) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة من ٢٥-٢٧

(٣) المراد بالقيام على قبره زيارته وليست الزيارة مقيدة بالقيام بل اذا زار المرء للقبر جالساً أو مضجعاً جاز والتعبير بالقيام للغالب.

عليه . قال الله تعالى في المنافقين (ولا تنصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى عن هذا لأجل هذه العلة وهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة ، ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلي عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعزل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمرته ، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول : « سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » رواه أبو داود وغيره . وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وأنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لاتحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون » والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم ، وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال « أتى رسول الله ﷺ قبر امه فبكى وبكى من حوله » ثم قال « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان القبور كافراً بخلاف الزيارة التي

يقصد بها الدعاء الميت فتلك لا تشرع الا في حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الخوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء .

فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك ، ولو قصد الصلاة عند قبور الانبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهيّاً عنه ، ولكن صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا . وقال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك » فإذا كان هذا محرماً وهو سبب لاسخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء ^(١) عنده وبه وأعتقد

(١) دعاء الميت هو رجاؤه نفسه أن يقضي الحاجات كمن يقول ياسيدي يادوي أشف لي مريض أو اقض لي حاجتي أو انصرني على عدوي أو اقصف عمر عدوي ونحو ذلك ، والدعاء عنده أن يعتقد الداعي أن هذا المكان الذي فيه القبر مكان طاهر يحاب فيه الدعاء فيدعو الله فيه ، وهذا أيضاً حرام لان فيه سبيلاً الى دعاء الميت في المستقبل أو اعتقاد أن للميت اثرأ في إجابة الدعاء ، والدعاء به أن يتوسل به الى الله حتي يحاب دعاؤه كمن يقول ياسيدي ابراهيم يادسوقي نفسك قريب من الله اطلب لي منه أن يشفيني أو ينصرني أو يخرج ابني من السجن أو يقول يا الله انو سل اليك بجاه الامام الحسين أن تقضي لي حاجتي فهذا كله شرك وضلال وينبغي ألا يقصد غير الله فهو أعلم بعبده وأقرب اليه من جل الوريد ، ولا تنفع عنه الوساطات ولا يصعد اليه أحد بالدعوات وانما هو كما قال « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

أن ذلك من أسباب اجابة الدعوات ونيل الطلبات ^(١) وقضاء الحاجات؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق ونسراً) ان هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبسواهم ، قال ابن عباس ثم صارت هذه الاوثان في قبائل العرب .

من هم اولياء الله ؟

وأولياء ^(٢) الله هم المؤمنون المتقون وكراماتهم ثرة ايمانهم وتقواهم لا ثرة الشرك والبدعة والفسوق ، وأكبر الاولياء انما يستعملون هذه الكرامات بحجة الدين أو حاجة للمسلمين ، والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات ، وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه متعدد حرد ربه ، وان كان سببها الايمان والتقوى فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فانفقها في طاعة الشيطان فهذا المال وان ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفق في طاعة الشيطان كان وبالاً عليه فكيف اذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو الى كفر آخر وفسوق وعصيان ، ولهذا كان ائمة هؤلاء معترفين بأن اكثرهم يموتون على غير الاسلام . ولبسط هذه الامور موضع آخر .

(١) الطلبات بفتح الطاء وكسر اللام جمع طلبة وهي الحاجة .

(٢) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٣٥ - ٣٧

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعون عند الاوثان كإخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فإذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كلمه ظن أن ذلك هو النبي المقبور ، والقبر لم ينشق وإنما الشيطان مثل لذلك كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ، ويكون هو الشيطان تمثل له صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر ، نحن لا نبقى في قبورنا بل من حين يقبر أحدا يخرج من قبره ويمشي بين الناس . ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنائز ويمشي ويأخذ بيده إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها . وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها أو أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته . وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو مره أو أمثاله أو روحه تجسدت حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ولا يعلم بأن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الانسي .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الانبياء الصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً إلا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من

دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . اولئك الذين يدعون
 يبتغون الى ربهم الوسيلة ايمهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه . ان
 عذاب ربك كان محذورا (وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من
 دون الله لايملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض وما لهم فيها من
 شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) . ومثل
 هذا كثير في القرآن ينهي أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الانبياء
 ولا غيرهم فان هذا شرك أو ذريعة الى الشرك ، بخلاف ما يطلب من أحدهم
 في حياته من الدعاء والشفاعة فانه لا يفضي الى ذلك ، فان أحداً من الانبياء
 والصالحين لم يعبد في حياته بحضرة فانه ينهي من يفعل ذلك ، بخلاف
 دعائهم بعد موتهم ، فان ذلك ذريعة الى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في
 مغيبهم هو ذريعة الى الشرك ، فمن رأى نبياً أو ملكاً من الملائكة وقال له
 « ادع لي » لم يفض ذلك الى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه ، فان
 ذلك يفضي الى الشرك به كما قد وقع فان الغائب والميت لا ينهي من بشرك
 بل اذا تعلق القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك الى الشرك به فدعى
 وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ، ومن
 ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين . ومعلوم أن الملائكة تدعو
 للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله
 يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت
 كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم
 ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم
 وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ
 فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) . وقال تعالى : (تكاد السموات

يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ألا إن الله هو الغفور الرحيم، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل (فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روى أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للاختيار من أمته، هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد . وإذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الانبياء والصالحين ولا أن تطلب منهم الدعاء والشفاعة، وإن كانوا يدعون ويشفعون لوجهين (أحدهما) أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في الطلب منهم . (الثاني) أن دعاءهم وطلب الشفاعة، منهم في هذه الحال يفضي الى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة، فلو قدر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة، فكيف ولا مصلحة فيه، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة فيه فإنهم ينهون عن الشرك بهم ، بل فيه منفعة وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فإنهم في دار العمل والتكليف وشفاعتهم في الآخرة فيما اظهر كرامة الله لهم يوم القيامة .

الاستغانة بغير الله

ومعلوم ^(١) أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى (فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) فهو ﷺ لا يرغب الى غير الله، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال « يدخل من امتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » هؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١٣٩ - ١٤٤

أن يطلب من غيره أن يرقيه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو ﷺ يرقى نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ورواية من روى في هذا « لا يرقون » ضعيفة غلط ، فهذا مما يبين حقيقة أمره لامتته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه ، فإن من لا يسأل الناس ، بل لا يسأل الا الله أفضل من يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم اجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكل خلاصاً ، وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه ، الى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر ؟ وفي الحديث « أعظم الدعاء اجابة دعاء غائب لغائب » وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة ، الا وكل الله ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » وذلك ان المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسأله ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزاً ، كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه والافعال التي يقدر عليها .

فاما ما لا يقدر عليه الا الله تعالى ، فلا يجوز ان يطلب الا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك لامن الملائكة ، ولا من الانبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لي ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك ، ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاءوا اليه فقال « انه لا يستغاث بي ، وانما يستغاث بالله » وهذا في الاستعانة مثل ذلك .

فأما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه
 (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفي دعاء موسى عليه السلام
 « اللهم لك الحمد ، واليك المنة ، واليك المشتكى ، واليك المستعان ، وبك المستغاث ،
 وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بك » وقال أبو يزيد البسطامي :
 استغاثه الخلق بالخلق كاستغاثه الفريق بالفريق . وقال أبو عبد الله
 القرشي : استغاثه الخلق بالخلق كاستغاثه المسجون بالمسجون . وقال
 تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر
 عنكم ولا تحويلا . اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم
 أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذوراً)
 قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والانبيا فقال الله
 تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي ، ويرجون رحمتي
 كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون الي كما تتقربون
 الي . فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والانبيا ، مع اخباره لنا أن الملائكة
 يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ،
 وكذلك الأنبياء والصالحون ، وان كانوا أحياء في قبورهم ، وان قدر
 أنهم يدعون للأحياء ، وان وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ،
 ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة الى الشرك بهم
 وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ، فإنه
 لا يفضي الى الشرك ، ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الانبياء والصالحون بعد
 الموت هو بالأمر الكوني ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال
 أحدهم في حياته فإنه يشرع اجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .
 وقال تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة

ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أي أمركم بالكفر بعد أن كنتم مسلمون (ينسبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر . وقال تعالى (قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وقال تعالى (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وقال تعالى (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل اتذنبون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى عن صاحب يس (وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة أن يردني الرحمن بضر لا تنفعني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . إني إذاً لفي ضلال مبين . إني آمنت بربكم فأسمعون) .

فالشفاعة نوعان : أحدهما الشفاعة التي نفاها الله تعالى ، كالتي اثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، والثاني : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التي اثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد . قال « فاحمد ربي بحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن . فيقال أي محمد ! ارفع رأسك ، وقال يسمع ، وسل تعطه ، واشفع نشرع » فإذا أذن له في الشفاعة شفع عنه

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به ، بمعنى أن يكون هو داعياً للتوسل به ، أن يشرع ذلك في مغيبه وبعد

موته ، مع أنه هو لم يدع للتوسل به ، بل المتوسل به أقسم به أو سال بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ، وذلك لانه في حياته يدعو هو لمن توسل به ودعاؤه هو الله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ولم يشفع له ؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول ومن لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل ، كهذا التوسل فهو من اضل الناس !

وأيضاً فانه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو التوسل بدعائه ضرر ، بل هو خير بلا شر ، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة . فان أحداً من الانبياء عليهم السلام لم يعبد في حياته بحضوره ، فانه انتهى من يعبده ويشرك به ، ولو كان شركاً أصغر ، كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له ، وكما قال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم ما شاء محمد » وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف القتنة والاشراك به ، كما اشرك بالمسيح ، والعزير ، وغيرهما عند قبورهم وغير قبورهم ولهذا قال النبي ﷺ « لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » اخرجاه في الصحيحين ، قال « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا . وبالجملة فمعنا اعلان عظيمين ، أحدهما : أن لا نعبد الا الله ، والثاني : أن لا نعبد الا بما شرع ، لا نعبد به عبادة مبتدعة . وهذان الاصلان هما تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، كما قال تعالى (ليلوكم أيكم أحسن عملاً) . قال الفضيل بن عياض : اخلصه وأصوبه قالوا : يا ابا علي ما اخلصه وأصوبه ؟ قال : ان العمل اذا كان خالصاً ولم

يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ! حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، وذلك تحقيق قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا . وقال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ انه قال « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي لفظ في الصحيح « من عمل عملا ليس عليه امرنا ، فهو رد » وفي الصحيح وغيره أيضا يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري ، فإنما منه بريء وهو كله للذي أشرك » ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف (١) كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب انه قبل الحجر الأسود وقال : « والله اني لأعلم انك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك » والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته وان يكون الله رسوله أحب إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته ، محبة الله وكرامته . فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (وان تطيعوه تهتدوا) وقال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فإن له جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) وأمثال ذلك في القرآن كثير .

(١) أي على النص والتعليم لا على الاجتهاد .

الادعية البدعية

... والمراتب^(١) في هذا الباب ثلاث (أحداها) ان يدعو غير الله وهو

ميت أو غائب سواء كان من الانبياء والصالحين أو غيرهم فيقول: ياسيدي فلان اغثنني أو انا استجير بك أو استقيث بك أو انصريني على عدوي . واعظم من ذلك ان يقول : اغفر لي وتب علي . كما يفعله طائفة من الجاهل المشركين . واعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي اليه ويرى الصلاة اليه افضل من استقبال القبلة . حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام . وأعظم من ذلك ان يرى السفر اليه من جنس الحج حتى يقول ان السفر اليه مرات يعد حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة اليه مرة افضل من حج البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم وان كان يقع كثير من الناس في بعضه .

(الثانية) أن يقال للميت أو الغائب من الانبياء والصالحين : ادع الله لي ، أو ادع لنا ربك أو أسأل الله لنا ، كما تقول النصارى لمريم وغيرها ، فهذا أيضا لا يستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الامة ، وان كان السلام على أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، واذا ان شاء الله بكم لاحقون ، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا اجرهم ولا تفتننا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » . وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال « ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وفي سنن أبي داود عن النبي

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١٥٣-١٥٧

صلى الله عليه وآله أنه قال « مامن مسلم يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أورد عليه السلام » لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لدعاء ولا غيره . وفي موطأ مالك ان ابن عمر كان يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبة ^(١) ثم ينصرف . وعن عبد الله بن دينار قال : رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ ويدعو لابي بكر ، وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم انهم كانوا يسامون على النبي ﷺ فاذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلي الحجرة ، وان كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة ، فلم يذهب الى ذلك امام متبع في قوله ولا من له في الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الاثمة الاربعة : مالك وابي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الاسلام ان الرجل اذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ، واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة مالك والشافعي وأحمد : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه . وقال ابو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم . ثم في مذهبه قولان قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره فهذا تراعمهم في وقت السلام وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه انما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : هو وسيلتك ووسيلة أهلك آدم . كذب على مالك ليس لها اسناد معروف ، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد

(١) اصلها يا ابي

الثقات في كتب أصحابه ، كما ذكره اسماعيل بن اسحاق القاضي وغيره ،
مثل ماذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة
يدعون لأنفسهم . فأنكر مالك ذلك وذكر أنه من البدع التي لم يفعلها
الصحابية والتابعون لهم باحسان . وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة الا
ماصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قال له مالك . فإت الآثار المتواترة عن
الصحابية والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم . ولو
كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك وكانوا
أسبق إليه من بعدهم ، والداعي يدعو الله وحده ، وقد نهى عن استقبال
الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله
تعالى ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ
قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » فلا يجوز أن يصلى الى شيء
من القبور لاقبور الانبياء ولا غيرهم لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة الى القبر ، بل
هذا من البدع المحدثه . وكذلك قصد شيء من القبور لاسيا قبور الانبياء
والصالحين عند الدعاء اذا لم يحز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء
الميت نفسه أولى ان لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلي مستقبله فلأن لا يجوز
الصلاة له بطريق الاولى ، فعلم انه لا يجوز ان يسأل
الميت شيئاً ، لا يطلب منه أن يدعو الله ولا غير ذلك ، ولا يجوز
ان يشكى اليه بشيء من مصاب الدنيا والدين ، ولو جاز أن يشكى اليه ذلك في
حياته فان ذلك في حياته لا يفضي الى الشرك ، وهذا يفضي الى الشرك ، لأنه في حياته
مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر والثواب ،

وبعد الموت ليس مكلفاً بل ما يفعله من ذكر الله تعالى ودعائه نحو ذلك . كما أن موسى يصلي في قبره وكما صلى الانبياء خلف النبي ﷺ ليلة المعراج بيت المقدس ، وتسبيح اهل الجنة والملائكة فهم يتمتعون بذلك وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره لهم ، ليس هو من باب التكليف الذي يتمتع به العباد .

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلاً له هو يفعله وان لم يسأله العبد ، كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به وهم انما يطيعون امر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحانه وتعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) فهم لا يعملون الا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته . فان بيته كانت الصلاة فيه مشروعة ، وكان يجوز ان يجعل مسجداً ، ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً كما ان في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا . ولولا ذلك لآبرز قبره ولكنه كره أن يتخذ مسجداً ، وفي صحيح مسلم وغيره عنه ﷺ أنه قال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انها كم عن ذلك » وقد كان ﷺ في حياته يصلي خلفه وذلك من افضل الاعمال . ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره ، وكذلك في حياته يطلب منه أن يأمر وأن يفتي ، أن يقضي ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته وأمثال ذلك كثيرة . وقد كره مالك أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ !! لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب .

وهذا اللفظ صار مشتركاً في عرف المتأخرين يراد به الزيارة البدعية التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده .

والزيارة الشرعية هي أن يزوره الله تعالى للدعاء له والسلام عليه كما يصلى على جنازته . فهذا الثاني هو المشروع ، ولكن كثيراً من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره ، لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذي يقصده أهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك يفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهى عنه . وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره !

وقد تبين ما في لفظ التوسل من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه ، فإن لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته . ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي ﷺ أنه قال « إذا اعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور فاستعينوا بأهل القبور » فهذا الحديث كذب ومفتري على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة . وقد قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت ، وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك - على اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ، ولعن أهله تحذيراً من التشبه بهم ، فإن ذلك أصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى (وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودأ ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق

ونسرا) فان هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الاصنام على صورهم كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف .

من حيل شياطين الجن^(١)

واذاتين ما أمر الله به ورسوله وما نهى عنه ورسوله في حق اشرف الخلق ، واكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاهاً عند الله تبارك وتعالى - تبين أن من دونه من الانبياء والصالحين اولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الفاضلين ولا المائتين ، مثل أن يقول : يا سيدي فلاناً اغثني وانصري وادفع عني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك ، بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالأضرار من دين الاسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالفائدين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الاوثان ، صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الاوثان ويغويهم ، فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب ، بل الكذب اغلب عليه من الصدق ، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكاً على صورته فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا امر الشيخ وحاله . وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ،

« ١ » « قاعدة جلية في التوسل والوسيلة » ص ١٥٨ - ١٦٢ علق عليه وصحح

اصوله الاستاذ طه الزيني .

كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم ،
كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب ، وهو اليوم موجود في المشرق
من الترك والهند وغيرهم .

وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في
حال غيبتنا عنهم ، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جثنا في
الهواء ودفعنا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان
تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن
ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين
والميتين (١) وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة
الأوثان . وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم
العلاسيرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذين استغاثوا
به فيقضي بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الانبياء والصالحين والشيوخ
وأهل بيوت النبي ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو
يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب
هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث
به فينزل عليه من الهواء طعام أو نققة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه
فيظن ذلك كرامة لشيخه وإنما ذلك كله من الشياطين ، وهذا من أعظم

(١) وقد وقع أن بعض المصابين بالصرع ونحوه رأوني أدفع عنهم الجن الذين
يؤذونهم . ومن الناس من يعمل ذلك بأن الرائي يتمثل صورة من يعتقد صلاحه في
خياله فيراه في الخارج وهو مستيقظ مأخوذ عن حسه كما يراه في النوم . وهذا التعليل
قرب ، ولابن القيم كلام فيه حسن في بحث الرؤيا ينحل به رؤية الكفار لبعض
الانبياء والصالحين .

الاسباب التي عبدت بها الأوثان . وقال الخليل عليه السلام (واجتنبني
وفي أن نعبد الأصنام . رب انهن أضللن كثيراً من الناس) كما قال نوح
عليه السلام . ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس الا بسبب اقتضى
ضلالهم . ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات
والأرض ، بل انما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لاسباب : منهم من
صورها على صور الانبياء والصالحين ، ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم
للكواكب والشمس والقمر ، ومنهم من جعلها لأجل الجن ، ومنهم من
جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم انما هو الملائكة والأنبياء
والصالحون أو الشمس أو القمر ، وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين ،
فهي التي تقصد من الأنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوهن الى ذلك ، كما قال
تعالى (ويوم نحشهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا
يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن
أكثرهم بهم مؤمنون) واذا كان العابد ما لا يستحل عبادة الشياطين أو هو
أنه انما يدعو الانبياء والصالحين والملائكة وغيرهم من يحسن العابد ظنه
به . وأما ان كان مما لا يحرم عبادة الجن عرفوه انهم الجن . وقد يطلب الشيطان
الممثل له في صورة الانسان أن يسجد له أو أن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل
الميتة ويشرب الخمر ، أو أن يقرب هم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك .
بل يظنون أن من يخاطبهم اما ملائكة واما رجال من الجن يسموهم
رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن ابصار
الناس . وأولئك جن تمثلت بصور الانس أو رثيت في غير صور الانس ،
قال تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم
رهقا) كان الانس اذا نزل أحدهم بوادي يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا
الوادي من سفهائه ، وكانت الأنس تستعيز الجن فصار ذلك سبباً لطغيان

الجن ، وقالت ، الأنس تستعيز بنا !

وكذلك الرقى والعزائم الأعجمية هي تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون ويستغاث بهم ويقسم عليهم بن يعظومونه ، فتعطيهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من احد حتى يقولوا : انما نحن فتنه فلا تكفر ، فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا بأذن الله . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق . ولبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به الى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يحجد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله ، وانما يقتن به أولئك الشياطين لما أنه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى اذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقت تلك الشياطين ، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات ، وأنا أعرف من هؤلاء عدداً كثيراً بالشام ومصر والحجاز واليمن وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

وانما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها ، فحيث قوى الايمان والتوحيد ونور الفرقان والايمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال

الشیطانية ، والشخص الواحد فيه هذا وهذا الذي تكون فيه مادة تمدد
للایمان ومادة تمدد للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال .
والمشركون الذين لم يدخلوا في الاسلام مثل البخشية والطوانية والبدي
ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون الكفار من
الترك والهند والخطا وغيرهم تكون الأحوال الشیطانية فيهم أكثر ، ويصعد
أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ويبقى الدف (١) الذي يغنى لهم
به يمشي في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ولا يرون
أحداً يضرب له ، ويطوف الاناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من
يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فنزل منهم عنده ضيفه طعاماً يكفيهم
ويأتيهم بألوان مختلفة ، وكذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة
القريبة أو من غيرها وتأتي به وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركاً
أو ناقص الايمان من الترك وغيرهم وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون في الاسلام اذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ،
بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشیطانية نصيب
بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع
نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم
اذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ولا يطوف طواف الافاضة ، ويظن
أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ،
ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به ، فان مثل هذا الحج ليس
مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين . ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة
لأولياء الله فهو ضال جاهل . ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء ، والصحابه
يفعل بهم مثل هذا ، فانهم أجل قدراً من ذلك ، وقد جرت هذه القضية

(١) هو المعروف عندنا (بالطار) .

لبعض من حمل هو وطائفة معه من الاسكندرية الى عرفة فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : كتبتوني ؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواة فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لانكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الاسلام مبني على أصلين ، على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ! وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فالاله هو الذي تأله القلوب عبادة واستعانة وحبّة وتعظيماً وخوفاً ورجاءً واجلالاً واكراماً . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ، ولا يدعى الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله ؟

ابن تيمية والحيل الشرعية

لقد قيل عن الامام محمد بن الحسن تلميذ الامام أبي حنيفة ، أن له كتاباً في الحيل ، وللحصاص كتاب مثله يسمى : « الحيل والمخارج » وقد اختلف في صحة ذلك ، وخاصة عن الامام محمد .

وقد حمل شيخ الاسلام ابن تيمية على الحيل في الشريعة ومنعها منعاً باتاً سداً للذريعة ونادى ببطلانها لما تؤدي اليه من التحايل على الدين وتعطيله وتحليل محرماته . وكان بمقاله : « أعلم ان تجويز الحيل يناقض سد الانذرائع مناقضة ظاهرة ، فان الشارع سد الطريق الى ذلك المحرم بكل طريق ، والمحتال يريد أن يتوسل اليه ، ولهذا لما اعتبر الشارع في البيع والصرف والنكاح وغيرها شروطاً سد ببعضها طريق الزنى والربا وكل

بها مقصود العقود ، لم يكن لمحتال الخروج منها في الظاهر ، فاذا أراد
 الاحتيال ببعض هذه العقود على ما منع الشارع منه ، أتى بها مع حيلة
 أخرى توصله بزعمه الى نفس ذلك الشيء الذي سد الشارع ذريعته ، فلا
 يبقى لتلك الشروط السقي يأتي بها فائدة ولا حقيقة ، بل يبقى بمنزلة
 اللعب والعبث . »

وقد ذكر الامام ابن تيمية أمثلة على بعض الحيل فقال :
 « اذا تواطأ على بيع أو هبة لاسقاط الزكاة ، وان كان الاحتيال
 من واحد مثل أن يهب لأبنة هبة يريد أن يرجع فيها لثلاث تجب عليه الزكاة ،
 فان وجود هذه الهبة كعدمها ليست هبة في شيء من الأحكام . لكن ان
 ظهر المقصود ترتب الحكم عليه ظاهراً وباطناً ، والابقيت فاسدة في
 الباطن فقط ، وان كانت حيلة لا يستقل بها مثل أن ينوي التحليل ، ولا
 يظهر للزوجة ، او يرتجى للمرأة ضرراً بها ، او يهب ما له ضرراً لورثته ،
 ونحو ذلك كانت هذه العقود بالنسبة له ولمن علم غرضه عقوداً باطلة فلا
 محل له الدخول بالمرأة ، ولا يرثها اذا ماتت ، واذا علم الموهوب له أو
 الموصى له غرضه لم يحصل له الملك في الباطن ، فلا محل له الانتفاع به ،
 بل يجب رده الى مستحقه (١) . »

وأهم الحيل التي حاربها شيخ الاسلام ، وقد كانت منتشرة في عهده ،
 ولا تزال باقية الى يومنا هذا !! حيلة اباحة تحليل الزوجة
 المطلقة ثلاث طلاقات ، وذلك عن طريق الحل ، مما هو زني صريح ! وقد
 ألف هذا الامام كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه (اقامة الدليل على
 ابطال التحليل) قال فيه :

« نكاح المحلل حرام باطل لا يفيد الحل ، وصورته أن الرجل إذا

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ١٤٦ .

طلق امرأته ثلاثاً (١) ، فانها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره كما ذكره الله تعالى في كتابه وكما جاءت به سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأجمعت عليه أئمة ، فاذا تزوجها رجل بنيتها أن يطلقها لتحل لزوجها الأول كان هذا النكاح حراماً باطلاً سواء عزم بعد ذلك على امساكها أو فارقها ، وسواء شرط عليه ذلك في عقده النكاح أو شرط عليه قبل العقد أو لم يشترط عليه لفظاً ، بل كان ما بينهما من الخطبة وحال الرجل والمرأة والمهر نازلاً بينهم منزلة اللفظ بالشروط ، أو لم يكن شيء من ذلك ، بل أراد الرجل أن يتزوجها ثم يطلقها لتحل للمطلق ثلاثاً من غير أن تعلم المرأة ولا وليها شيئاً من ذلك سواء علم الزوج المطلق ثلاثاً أو لم يعلم ، مثل أن يظن المحلل أن هذا فعل خير ومعروف مع المطلق وامرأته باعادتها اليه ، كما أن الطلاق أضر بهما وبأولادهما وعشيرتهما ونحو ذلك ، بل لا يحل للمطلق ثلاثاً أن دلسه ، وتتزوجها حتى ينكحها رجل مرتقباً لنفسه نكاح رغبة لا نكاح دلسه ويدخل بها بحيث تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها ثم بعد هذا اذا حدث بينهما فرقة بموت أو طلاق أو فسخ جاز للأول أن يتزوجها . ولو أراد هذا المحلل أن يقيم معها بعد ذلك ، استأنف النكاح . فان ما مضى عقد فاسد لا يباح المقام به معها .

هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وهو المأثور عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعامة التابعين لهم بإحسان وعامة فقهاء الاسلام (٢) ... »

هذا ومن الحق والانصاف أن يقال أن استخدام الحيل لا يقتصر

(١) بشرط في هذا الطلاق ألا يكون مدعياً ، في ثلاثة طهور لا عيس الرجل زوجته فيها ، وألا يكون في حالة غضب أو سكر .

(٢) تابع المجلد الثالث من الفتاوى ص ٤

على المذهب الحنفي فقط ، بل تعداه الى سائر المذاهب الأخرى ، فقد قال الامام ابن تيمية :

« ... وان كثيراً ممن يخالف المشرقين في مذهبهم ويرى أنه أتبع المسنة والأثر وأخذ بالحديث منهم من يتوسع في الحيل ويرق الدين وينقض عرى الاسلام ويفعل في ذلك قريباً أو أكثر مما يحكى عنهم حتى دب الداء الى كثير من فقهاء الطوائف ، حتى أن بعض أتباع الامام أحمد مع أنه كان من أبعد الناس عن هذه الحيل تلطخوا بها ، فأدخلها بعضهم في الايمان وذكروا طائفة من المسائل التي هي بأعيانها من أشد ما أنكر الامام أحمد على المشرقين وحتى أعتقد بعضهم جواز خلع اليمين وصحة نكاح المحلل ، وجواز بعض الحيل الربوية ، وحتى أن بعض الأعيان من أصحابه سوّغ بعض الحيل في المعاملات مع رده على أصحاب الحيل ! وذلك في مسائل قد نص الامام أحمد على إبطال الحيلة فيها الى أشياء أخر .

وكثر ذلك في بعض المنتسبين الى الشافعي رضى الله عنه وتوسع بعض أصحاب أبي حنيفة فيها توسعاً تدل اصول أبي حنيفة على خلافه ! وحتى أن بعض الائمة من أصحاب مالك تزلزل فيها تزلزل من يرى أن القياس جواز بعضها ، وحتى صار من يقتضي بها كأنه يعلم الناس فاتحة الكتاب أو صفة الصلاة ، لا يبين المستفتي أنها مكروهة بالاتفاق ، وأنها محرمة عند كثير من العلماء ، بل أكثرهم ، وعند عامة السلف رضى الله عنهم ، وحتى ألقوا في نفوس كثير من العامة أو أكثرهم أنها حلال وأنها من دين الله سبحانه !

فنجد المؤمن الذي شرح الله صدره للاسلام يكرمها وينفر قلبه منها ، والمفتي بغير علم يقول له هذا حلال ، وهذا جائز ، وهذا لا بأس

به وهو مخطيء في هذه الأقوال باتفاق العلماء ، فإن أقل درجات أكثرها الكراهة !

وقد ذكرنا اتفاقهم على كراهة التحليل المتواطأ عليه .
وأعلم أن غاية ما يبلغك من الكلمات الشديدة من بعض الفقهاء ،
فإن أصل ذلك قاعدة الحيل ، فإن القلوب دائماً تنكرها لا سيما قلوب أهل
الفقه والعلم والولاية والهداية ، ويجدون ينبوعها عن بعض المفتين ،
فيتكلمون بالانكار عليهم ، ولهذا كان منشأ هذه الحيل من اليهود ،
صار الغاوي من المنقطة متشبهاً بهم ! وصار أهل الحيل تعلمون الذلة
والمسكنة لمشاركتهم اليهود في بعض أخلاقهم (١) .
هذا - وقد ذكر الاستاذ محمد أبو زهرة في كتابه (أبو حنيفة)

بحثاً مطولاً عن هذه الحيل وكان مما قاله :
« إن الدراسة الفاحصة العميقة لكتاب الحيل والخارج للحصاف ،
ولكتاب الحيل لمحمد تنتهي بأن حيل أئمة المذهب الحنفي من النوع
الثاني (٢) ، لا من النوع الأول ، فهي من القسم الثالث في الأقسام التي
ذكرها ابن القيم وبينها آناً ، يحتال بها على التوصل إلى الحق ، أو
على دفع الظلم بطريق مباحة لم توضع موصلة لذلك ، ولكن قصد بها
ذلك التوصل .

(١) الفتاوى ج ٣ ص ٦٧ - ٦٨

(٢) كان الاستاذ أبو زهرة قدم لكلامه عن الحيل بكلام لابن القيم نلخصه
فيما يلي : يقسم هذا العلامة الحيل عند الفقهاء إلى ثلاثة أقسام :
(القسم الأول) الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى ما هو محرم في نفسه .
(القسم الثاني) أن تكون الحيلة مشروعة وما تفضي إليه مشروع .
(القسم الثالث) أن يحتال على التوصل إلى الحق أو على دفع الظلم بطريق
مباحة ، لم توضع موصلة إلى ذلك ، بل وضعت لغيره .

وقبل أن نخوض في تقسيم هذه الحيل المأثورة ، نذكر ملاحظة لاحظناها ، وهي تركي ما قررناه ، وتلك الملاحظة هي إننا لم نجد حيلة في باب من أبواب العبادات في هذين الكتابين ، إلا حيلة واحدة في الزكاة سنذكرها ، وإن ابعاد العبادات عن نطاق الحيل في المأثور عن أولئك الأئمة الأعلام ليدل على أنهم لم يقصدوا بحيلهم مدافعة مقاصد الشرع . والاستمسك بظاهر من التكليفات ، إذ أن العبادات أساسها النيات ، وهي بين العبد وربّه فهو الذي يحاسب عليها ، وهو العليم الخبير (١) . . . ونقول في الرد على الشيخ أبي زهرة أنه إذا كان من السهل تبوئة بعض أئمة المذهب الحنفي من حيل النوع الثاني ، فلا يمكن تبوئتهم جميعاً مما حدا بالامام ابن تيمية الى أن يقول في الكلام الذي سقناه سابقاً : « وتوسع أصحاب أبي حنيفة فيها (أي في الحيل) توسعاً تدل اصول أبي حنيفة على خلافه » فلو لم تكن تلك الحيل من القسم الأول ، فلماذا يحاول شيخ الاسلام تبوئة الامام أبي حنيفة منها ؟ !

إن من يدرس كتب الأحناف يجد العجب العجيب من الحيل التي يجرمها الشرع تحريماً مطلقاً وقد ذكرنا بعضها فيما سبق ، وخاصة حيلة التحليل المنكرة المذكورة في كثير من كتب الحنفية . والتي اثبت شيخ الاسلام بطلانها كما رأينا في كتابه « إقامة الدليل على ابطال التحليل » ، وما رأينا من حيلهم في بيع العينة ، والبيع لأجل مما هو احتيال على مزاوله الربا صريح ، وسقوط الصلاة والحج والصوم والزكاة بالحيلة المعروفة التي يجرمها اهل الميت ، كل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من الرد على أبي زهرة .

وأما قول أبي زهرة « بأنه لم يجد حيلة في باب من أبواب العبادات في هذين الكتابين إلا حيلة واحدة في الزكاة . . . وأن ابعاد العبادات عن

فطاق الحيل ... ليدل على أنهم لم يقصدوا بحيلهم مدافعة مقاصد الشرع ...
اذ أن العبادات أساسها النيات ... »

ان في قوله هذا تقليلاً من شأن المعاملات وخطورتها ، مع أنها أهم
من العبادات من حيث تعلقها بحقوق العباد التي لا تغفر ذنوبها الا بترضية
أصحابها والمعاملات كما لا يخفى هي التي تصار فيها الحيل على الغالب
بسبب ما يصحبها من المال وهو من الفتن الحقة !

قال الامام ابن تيمية ماملخصه:

« ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن أول ما يفقد من
الدين الأمانة وآخر ما يفقد منه الصلاة ، وحدث عن رفع الأمانة من
القلوب الحديث المشهور ، وقال خير القرون القرن الذي بعثت فيهم
ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، فذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ، ثم
ذكر أن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ..
والحيل (أي في المعاملات) توجب مزج العهود والأمانات وهو
قلقها واضطرابها ، فان الرجل اذا سوغ له من يعاهد عهداً ثم لا يفي به
أو أن يؤتمن على شيء ، فيأخذ بعضه بنوع تأويل ، ارتفعت الثقة به
وأمثاله (١) .. »

والاحاديث الواردة في المعاملات وعدم الغش والغبن والتغريب
فيها ، أكثر من أن تحصى ، وهي ان دلت على شيء ، فإنما تدل على
حرص الشارع على بيان خطورتها لمنع التلاعب والحيل فيها !

فتاوى شيخ الاسلام

خرج الامام ابن تيمية على الناس بفتاويه العظيمة التي خالف فيها ما تعارف عليه العلماء فأقاموا عليه النكير شأنهم في كل زمان مع المصلحين المتحررين من القيود المذهبية ، فسعوا في سجنه من أجل كثير منها ، مع أنه رحمه الله كان يأتيهم بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة من القرآن والسنة وأقوال الصحابة .

وإذا كان هنالك بعض الاجتهادات له ، فإنه قد توفرت فيه جميع شروط الاجتهاد ، ولا ينكر ذلك الا معاند أو جاهل .
وهذه خلاصة بعض هذه الفتاوى :

● القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفرأ ، سواء كان طويلاً أم قصيراً ، وفقاً لقول بعض الصحابة ما دامت السنة لم تبين حدود المسافة .

● القول بأن البكر لا تستأمر (اي لا يطلب منها التلفظ بالرضاء) وان كانت كبيرة ، كما هو قول ابن عمر ، واختاره البخاري .

● القول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء ، كما يشترط للصلاة وهو قول ابن عمر ، واختاره البخاري أيضاً .

● القول بأن من أكل في رمضان معتقداً أنه ليل ، فبان نهاراً لا قضاء عليه ، كما هو قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وذهب اليه بعض التابعين ، والفقهاء من بعدهم .

● القول بجواز بيع الاصل بالعصير ، كالزيتون بالزيت والسهم بالشيرج .

● القول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والحجّة ، باستعمال الماء .

● القول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتجلى وغيره ، كالحاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً ، وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة .

● وكان يقول بتوريت المسلم من الذمي ، وله في ذلك مصنف وبحث طويل لم نعثر عليه . وهذه الفتوى فيها نظر !

● القول بكفارة اليمين في الحلف بالطلاق (كأن يقول علي الطلاق لأفعلن كذا أو لامتنعن عن كذا .. أو علي الطلاق اشتريتها بكذا ..) فيكون ما صدر عنه يميناً يجب عليه كفارة ، وهي اطعام عشرة مساكين ، أو صوم ثلاثة أيام ولا يقع الطلاق به .

يقول الامام ابن تيمية أن علماء المذاهب الاربعة لهم في ذلك قولان أحدهما أنه يقع الطلاق ، والثاني أنه لا يقع ، وقاله طائفة من أصحاب الشافعي كالقفال ، وابي سعيد المتولي ، ويقول به يفتي ويقضي في بلاد الشرق والجزيرة والعراق وخراسان والحجاز والشام وبلاد المغرب ، وهو قول داود وأصحابه كابن حزم وكثير من علماء المغرب المالكية وغيرهم ، وقد دل عليه كلام الامام أحمد المنصوص عنه ، واصول مذهبه تؤيد ذلك في غير موضع .

● لا يقع الطلاق المعلق على شرط ، ان كان لا يقصد الطلاق عند وقوع الشرط ، كأن يقول الرجل لزوجته انك طالق اذا ذهبت الى مكان كذا ، وكان يقصد تخويفها فقط ولا ينوي طلقها ، فذهبت فان الطلاق لا يقع .

● الطلاق المحرم البدعي لا يقع ، كالطلاق في الحيض ، او طهرمس الرجل زوجته فيه ، وكل ذلك طلاق محرم لا يقع . ودليله حديث النبي ﷺ اذ قال لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقد علم أن عبد الله بن عمر طلق امرأته ، وهي حائض : « مره فليراجعها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم تحيض

ثم تطهر . وقد رد الامام ابن تيمية على القائلين بوقوع طلاق ابن عمر - رضي الله عنه - في كلام طويل خلاصته أنه جاء خلافاً للسنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ! »

● القول بان طلاق الثلاث لا يقع الا واحدة ودليله من الكتاب قوله تعالى : « الطلاق مرتان فأمسك بمعروف او تسريح بإحسان » فلم يقل طلقتان . وكذلك قوله في سورة الطلاق (لا تدري لعن الله يحدث بعد ذلك أمراً) فكيف يحدث هذا الأمر بالرجوع اذا أغلق المخرج عليه ؟

ودليله من السنة ما ورد عن عبد الكريم بن عباس انه قال كان « الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة .. »

● عدم وقوع طلاق الغضبان والسكران والمكره لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا طلاق في اغلاق . »

لقد أنقذ ابن تيمية الامرة الاسلامية من التفكك والأولاد من التشرد بهذه الفتاوى ، وفي سبيل الله ما لاقاه من اجل هذه الفتاوى الحققة الجريئة من التعذيب في أعماق السجون ، وقد شعر علماء المسلمين المتأخرين بصواب آرائه وفتاويه فألفت عام ١٩٢٠ لجنة من أصحاب السماحة شيخ الجامع الأزهر ، وشيخ المالكية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ونائب السادة المالكية وغيرهم من الفقهاء وآمنت بصحة أقوال الامام ابن تيمية وقررت العمل بها في المحاكم المصرية ، ونذكر فيما يلي القانون المصري للمحاكم الشرعية تحت عنوان « الطلاق » :

المادة الأولى : لا يقع طلاق السكران والمكره ! .

المادة الثانية : لا يقع الطلاق غير المنجز اذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه ، لا غيره .

المادة الثالثة : الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو اشارة لا يقع الا واحدة .

المادة الرابعة : كنيات الطلاق ، وهي ما تتحمل الطلاق وغيره ، لا يقع بها الطلاق الابالنية .

ثم تبعت الجمهورية السورية بتاريخ ١٧ ٩ - ١٩٥٣ فأصدرت قانون الأحوال الشخصية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٥٩ بتاريخ السابق ، فتقرر ما يلي :

مادة ٨٩-١ - لا يقع طلاق السكران ولا المدهوش ولا المكره .

٢ - المدهوش هو الذي فقد تميزه من غضب أو غيره فلا

يدري ما يقول .

مادة ٩٠ - لا يقع الطلاق غير المنجز اذا لم يقصد به الا الحث على

فعل شيء أو المنع منه أو استعمال استعمال القسم لتأكيد الاخبار لاغير .

مادة ٩١ - يملك الزوج على زوجته ثلاث طلاقات .

مادة ٩٢ - الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو اشارة لا يقع الا واحدة .

وهكذا انقلبت فتاوى شيخ الاسلام بعد سبعة قرون من وفاته

سجيناً في قلعة دمشق بسببها ، الى قوانين مقتنة ماثرة اعجاب الناس

اجمعين؟؟ فليت الأعداء والخرفين من أعداء الاسلام الصحيح يأخذون

درساً من هذا الحادث ، فلا يقاومون في هذا العصر ، المصلحين الذين

يدعون الى وجوب الرجوع الى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ولو

خالف الأئمة الأربعة - رضي الله عنهم - لأن ذلك وفق رغباتهم ، فقد

أجمعوا على لزوم الأخذ بالحديث ولو خالف المذهب !

المطلقة

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة « المطلقة » للشاعر الكبير
معروف الرصافي في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه ابن تيمية عليهما الرحمة
والبرضوان . وقد نشرت في آخر « اغائة اللفان في حكم طلاق الفضبان »
ومطلعها :

بدت كالشمس يحضنها الغروب فتاة راع نضرتها الشحوب
منزهة عن الفحشاء خود من الحفرات آنسة عروب
ومنها :

ففاضب زوجها الخلاء يوماً بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم ميئاً وتلك أليّة خطأ وحوب
وطلقها على جهل ثلاثاً كذلك يحجل الرجل الغضوب
وافتنى بالطلاق طلاق بت ذوو فتيا تعصبهم عصب
فبانت منه لم تات الدنايا ولم يعلق بها الذام المعيب
فظلت وهي باكية تنادي بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يا نجيب صرمت جبلي ؟ وهل أذنبت عندك يا نجيب ؟
ومنها :

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى وقال ودمع عينيه سكوب
نجيبة اقصري عني فأني كفا في من لظى الندم اللهب
وما والله هجرك باختيارى ولكن هكذا جرت الخطوب
وقد ختمها بقوله :

الا قل في الطلاق لموقعيه بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتم غلوأ يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم من التعسير عندكم ضروب !

وقد حلت بأمّكم كروب
 وَهِيَ حبل الزواج ورق حتى
 كخيط من لعاب الشمس ادلت
 يمزقه من الأفواه نفت
 لكم فيمن لاهم الذنوب
 يكاد اذا نفتحت له يذوب
 به في الجو هاجرة حلوب
 ويقطعه من النسم المهبوب

فدى ابن القيم الفقهاء كم قد
 ففي اعلامه للناس رشد
 نحاف في ما أتاها طريق علم
 وبين حكم دين الله لكن
 لعل الله يحدث بعد أمراً
 دعاهم للصواب فلم يجيبوا
 ومزدجر لمن هو مستريب
 نحافا شيخه الخبر الأديب (١)
 من الغالين لم تعه القلوب
 لنا فيخيب منهم من يخيب

● ومن فتاوى ابن تيمية واختياراته عدم صرف الزكاة لأهل المعاصي حتى يتوبوا . وقد قال شيخ الاسلام : « انه لا ينبغي أن تعطى الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله تعالى ، فإنه سبحانه فرضها معونة على طاعته لمن يحتاج اليها من المؤمنين كالفقراء والغارمين ، أو لمن يعاون المؤمنين ، فمن لا يصلي من أهل الحاجات لا يعطى شيئاً حتى يتوب ، ويلتزم الصلاة (٢) » .

وقد خالف الاستاذ محمد أبو زهرة (٣) ابن تيمية في هذا لثلاث أسباب نلخصها فيما يلي :

(أولها) عموم نصوص القرآن في مصارف الزكاة من غير تخصيص

(١) هو الامام ابن تيمية

(٢) الاختيارات العلمية ص ٦١ طبع الكردي .

(٣) كتاب ابن تيمية لأبي زهرة رضي الله عنه

بين مطيع وعاص ، وليس لأحد أن يخصص لمجرد استحسانه من غير نص مخصص .

(ثانيا) أن الزكاة معونة على الحياة ، فهي تعطي للحي لتقوم حياته وتوفر له الضروري من حاجاته .

(ثالثا) أن النبي ﷺ كان يعين المشركين في ضررائهم وذكري مساعدة الرسول لأهل مكة بعد صلح الحديبية بسبب جائحة أصابهم . ونقول في الرد عليه أما حجة الأولى ، فتدفع إذا علمنا أن الاسلام أمر ندفعها للمؤلفة قلوبهم من المشركين الذين يكون في اسلامهم مصلحة في تقوية مسلمين ، وليس للمشركين عامة !

وأما حجة الثانية ، فتدفع أيضاً بأن دفعها للعصاة يؤدي الى معاونتهم على المعصية وعنادهم فيها ، ولا يخفى أن حل المعاصي بحاجة الى مال ، فلو لم يكن هذا المال متوفراً لديهم لما ارتكبوها .

وأما حجة الثالثة ، فتدفع كذلك بأن مساعدة ﷺ لأهل مكة قبل الفتح ربما كان يقصد من ورائه غايتين اثنتين : الأولى : تأليف قلوبهم .

الثانية : مساعدة المؤمنين الذين كانوا يكتمون ايمانهم خشية من مجرمي المشركين ، فلا بد أن يصيبهم شيء من هذا المال الذي ارسله النبي ﷺ .

واننا نرى رأياً وسطاً بين حجة الاسلام ابن تيمية ، وبين محمد أبي زهرة ، فإذا كنا نشعر ببيل من العصاة على الطاعة والعودة الى احضان الفضيلة بسبب نصحننا أو نصحن غيرنا لهم ، فلا مانع من اعطائهم من الزكاة

رحمة بهم وتأليفاً لقلوبهم ، وأما أن نحس عنادهم ونطبق رأي أبي زهرة على إطلاقه وندخل على العصاة (المصرين) في المواقير والحانات ونوادي القمار ، فنُدفع لهم الزكاة فيها ، أو بعد خروجهم منها ، فكلام لا يقبل به عاقل ! لا سيما ونحن نعلم أن الفقراء كثيرون ، فأيهم نفضل في دفع الزكاة والصدقة : الفقير التقى الصابر ، أم العاصي الفاجر (١) ؟!

ألا يذكر الأستاذ أبو زهرة قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي !! »

إن الترغيب والترهيب من أهم مناهج الإسلام وتطبيقه الجماعات والأفراد في أعمالهم ، فيكافون المحسنين ويمهلون أو يعاقبون المسيئين تشجيعاً للأولين وحضاً للآخرين على تحسين سلوكهم ، وفي ذلك بلاغ لمن ينادي بمجتمع أفضل وتحقيق المدينة الفاضلة .

سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق

وفي اليوم الثاني والعشرين من رجب من سنة عشرين وسبعمائة ، عقد مجلس بدار السعادة حضره الذائب والقضاة ، وجماعة من المفتين ، وحضره الشيخ (٢) ، وعاودره في الافتاء بمسألة الطلاق ، وعاتبوه على ذلك ، وحبسوه بالقلعة ، فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً . ثم ورد مرسوم السلطان بإخراجه ، فأخرج منها يوم عاشوراء ، من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ، وتوجه إلى داره .

(١) ليست هذه أولى أخطاء الأستاذ أبي زهرة في هذا الموضوع فهو يبيح دفع مال الزكاة ليس للعصاة فحسب ، بل لغير المسلمين من الكفرة والمشركين رحمة بهم كما أعلن رأيه هذا في إحدى الحلقات الاجتماعية . وهكذا زاد في الرقة ...

(٢) هو شيخ الإسلام ابن تيمية .

ولم يزل الشيخ بعد ذلك يعلم الناس ويلقي الدرس بالحنبلية أحياناً ،
ويقرأ عليه في مدرسته بالقصاصين ، في أنواع من العلم .

الكلام على شد الرحال الى القبور

فلما كان في سنة ست وعشرين وسبعمائة وقع الكلام في مسألة شد
الرحال ، وأعمال المطى الى قبور الأنبياء والصالحين ، وظفروا للشيخ
بجواب سؤال في ذلك ، كان قد كتبه من سنين كثيرة ، يتضمن حكاية
قولين في المسألة ، وحجة كل قول منها .

وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدم أقدم من الجواب المذكور
بكثير . ذكره في كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » وغيره . وفيه ما
هو أبلغ من هذا الجواب الذي ظفروا به .

وكثر الكلام ، والقليل والقال ، بسبب العثور على الجواب المذكور
وعظم التشنيع على الشيخ ، وحُرف عليه ، ونُقل عنه ما لم يقله .
وحصل فتنة طار شررها في الآفاق ، واشتد الأمر ، وخيف على الشيخ
من كَيْدَ القائلين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية ، وكثر الدعاء
والتضرع والابتهال الى الله تعالى ، وضعف من أصحاب الشيخ من كان
عنده قوة ، وجبُن منهم من كانت له همة .

وأما الشيخ - رحمه الله - فكان ثابت الجأش ، قوي القلب .
وظهر صدق توكله واعتماده على ربه .

ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ
فقال أحدهم : ينفي . فنفي القائل .

وقال آخر : يقطع لسانه ، فقطع لسان القائل .

وقال آخر : يُعزَّر ، فعزَّر القائل .

وقال آخر : يُحبَس ، فحبس القائل .

واجتمع جماعة آخرون بصر ، وقاموا في هذه القضية قياماً عظيماً ،
 واجتمعوا بالسلطان ، وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ . فلم يوافقهم السلطان
 على ذلك .

أمر السلطان بحبس الشيخ بقلعة دمشق

ولما كان يوم الاثنين بعد العصر ، السادس من شعبان من السنة
 المذكورة ، حضر الى الشيخ من جهة نائب السلطنة بدمشق مشد
 الأوقاف ، وابن خضير ، أحد الحجاب . وأخبراه : أن مرسوم السلطان
 ورد بأن يكون في القلعة ، وأحضرا معها مركوباً . فأظهر الشيخ
 السرور بذلك ، وقال : أنا كنت منتظراً ذلك . وهذا فيه خير عظيم .
 وركبوا جميعاً من داره الى باب القلعة ، وأخلت له قاعة حسنة ،
 واجري اليها الماء ، ورسم له بالاقامة فيها . وأقام معه أخوه زين الدين
 يخدمه بأذن السلطان ورسم له بما يقوم بكفائته .

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرى بجامع دمشق الكتاب
 السلطاني الوارد بذلك ، ومنعه من الفتيا .

وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر القاضي الشافعي بحبس جماعة
 من أصحاب الشيخ بسجن الحكم ، وذلك برسوم النائب واذن له في
 فعل ما يقتضيه الشرع في أمرهم .

واوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ،
 ونودي عليهم ، ثم أطلقوا ، سوى الامام شمس الدين محمد بن أبي بكر
 امام الجوزية ، فانه حبس بالقلعة . وسكنت القضية .

ملخص صورة الفتيا

وهذا ملخص صورة الفتيا وموافقة البغادة له وغيرهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على محمد وآله .
أما بعد ، فهذه فتيا أفتى بها الشيخ الأمام تقي الدين أبو العباس
أحمد بن تيمية رضي الله عنه .
ما يقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، نفع الله بهم المسلمين ، في
رجل نوى السفر الى زيارة قبور الانبياء والصالحين ، مثل نبيينا محمد ﷺ
وغيره ، فهل يجوز له في سفره أن يقصر الصلاة ؟ وهل الزيارة شرعية
أم لا ؟ ؟

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال « من حج ولم يزرني فقد جفاني »
« من زارني بعد موتي ، كمن زارني في حياتي » وقد روي عنه ﷺ
أيضاً أنه قال « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ،
ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » .
أفتونا مأجورين رحمكم الله .

خلاصة الجواب

الحمد لله رب العالمين .

أما السفر الى بقعة غير المساجد الثلاثة ، فلم يوجب أحد من العلماء
السفر اليه اذا ندره ، حتى نص العلماء على أنه لا يسافر الى مسجد قباء ،
لأنه ليس من المساجد الثلاثة ، مع أن مسجد قباء يستحب زيارته لمن كان
في المدينة . لان ذلك ليس بشد رحل . كما جاء في الحديث الصحيح :
« من تطهر في بيته ، ثم أتى مسجد قباء ، لا يريد الا الصلاة فيه ، كان
كعمرة » .

قالوا : ولأن السفر الى زيارة قبور الانبياء والصالحين ، لم يفعلها

أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أمر بها رسول الله ﷺ ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة ، وفعله ، فهو مخالف للسنة والاجماع الأئمة !

وهذا مما ذكره أبو عبد الله بن بطه في الابانة الصغرى من البدع المخالفة للسنة والاجماع .

وبهذا يظهر بطلان حجة أبي محمد المقدسي ، لأن زيارة النبي ﷺ لمسجد قباء لم تكن بشد رحل ، ولأن السفر اليه لا يجب بالندر .
وقوله : بأن الحديث الذي مضمونه « لا تشد الرحال » : بحمول على نفي الاستحباب ، يحاب عنه بوجهين :

أحدهما - أن هذا - ان سلم : فيه أن هذا السفر ليس بعمل صالح ، ولا قربة ، ولا طاعة ، ولا هو من الحسنات . فإذا من اعتقد أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين قربة وعبادة وطاعة ، فقد خالف الاجماع . وإذا سافر لاعتقاد أن ذلك طاعة ، كان ذلك محرماً باجماع المسلمين ، فصار التحريم من جهة اتخاذ قربة ، ومعلوم أن أحداً لا يسافر اليها الا لذلك .

وأما اذا نذر الرجل أن يسافر اليها لغرض مباح ، فهذا جائز ، وليس من هذا الباب .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث يقتضي النهي ، والنهي يقتضي التحريم . وما ذكره من الأحاديث في زيارة قبر النبي ﷺ فكلها ضعيفة ، باتفاق أهل العلم بالحديث ، بل هي موضوعة !! لم يرو أحد من أهل السنن المعتمدة شيئاً منها ، ولم يحتج أحد من الأئمة بشيء منها ، بل مالك - أمام أهل المدينة النبوية الذين هم أعلم الناس بحكم هذه المسألة - كره أن يقول الرجل : زرت قبر النبي ﷺ ، ولو كان هذا اللفظ

معروفاً عندهم ، أو مشروعاً ، أو مأثوراً عن النبي ﷺ لم يكرهه عالم
أهل المدينة !!

والامام أحمد أعلم الناس في زمانه بالسنة ، لما سئل عن ذلك ، لم
يكن عنده ما يعتمد عليه في ذلك من الأحاديث ، الا حديث أبي هريرة
أن رسول الله ﷺ قال « ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحه
حتى أرد عليه السلام » .

وعلى هذا اعتمد أبو داود في سننه .

وكذلك مالك في الموطأ ، روي عن عبد الله بن عمر « أنه كان
إذا دخل المسجد قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا
بكر ، السلام عليك يا أبت ، ثم ينصرف » .

وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبوري
عيداً ، وصلوا علي ، فان صلاتكم تبليغي حينما كنتم » .

وفي سنن سعيد بن منصور « ان عبد الله بن حسن بن علي
ابن أبي طالب ، رأى رجلاً يختلف الى قبر النبي ﷺ فقال له : ان رسول
الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبوري عيداً ، وصلوا علي ، فان صلاتكم حينما
كنتم تبليغي » فما أنت ورجل بالاندلس منه الا سواء ؟

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته
« لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا ،
ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكنه كره أن يتخذ مسجداً .

وهم دفنوه ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها ، خلاف ما اعتادوه
من الدفن في الصحراء . لئلا يصلي أحد عند قبره ويتخذ مسجداً ، فيتخذ
قبره وثناً .

وكان الصحابة والتابعون — لما كانت الحجرة النبوية منفصلة عن

المسجد ، الى زمن الوليد بن عبد الملك - لا يدخل أحد اليه ، لا لصلاة هناك ، ولا لمسح بالقبر ، ولا دعاء هناك . بل هذا جميعه انما كانوا يفعلونه في المسجد .

وكان السلف من الصحابة والتابعين اذا ساءوا على النبي ﷺ وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة ، ولم يستقبلوا القبر !

وأما الوقوف للسلام عليه ، صلوات الله عليه وسلامه ، فقال أبو حنيفة : يستقبل القبلة أيضاً ، ولا يستقبل القبر !

وقال أكثر الأئمة : يستقبل القبر عند الدعاء .

وليس في ذلك الا حكاية مكذوبة ، تروى عن مالك ، ومذهبه بخلافها .

واتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر النبي ﷺ ولا يقبله .

وهذا كله محافظة على التوحيد ، فان من اصول الشرك بالله : اتخاذ القبور مساجد ، كما قال طائفة من السلف في قوله تعالى : « وقالوا لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا وداً ، ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً » قالوا « هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا على صورهم تماثيل ، ثم طال عليهم الامد فعبدها » . وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا المعنى عن ابن عباس .

وذكره محمد بن جرير الطبري وغيره في التفسير عن غير واحد من السلف وذكره وثيمة^(١) وغيره في قصص الانبياء ، من عدة طرق .

وقد بسطت الكلام على اصول هذه المسائل في غير هذا الموضع^(٢) .

(١) بفتح الواو وكسر التاء واسكان الباء وفتح الميم .

(٢) في قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ، وفي الرد على الإخنائي والبكري ، وفي اقتضاء الصراط المستقيم ، وفي منهاج السنة . وغير ذلك كثير .

وأول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور: أهل البدع ، من الرافضة ونحوهم ، الذين يعطون المساجد ، ويعظمون المشاهد ، يدعون بيوت الله التي أمر أن يذكر فيها اسمه ، ويعبد وحده لا شريك له ، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها ويكذب ، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً ، فإن الكتاب والسنة ، إنما فيها ذكر المساجد ، دون المشاهد ، كما قال تعالى « قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين » .

وقال تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » .

وقال تعالى : « ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد » .

وقال تعالى : « وإن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً » .

وقال تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه

وسعى في خرابها ؟ »

وقد ثبت عنه عليه السلام في الصحيح : أنه كان يقول « ان من كان

قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني

أنها كم عن ذلك » .



هذا آخر ما أجاب به شيخ الإسلام ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وله من الكلام في مثل هذا كثير ، كما أشار إليه في الجواب .

ولما ظفروا في دمشق بهذا الجواب كتبوه ، وبعثوا به إلى الديار

المصرية وكتب عليه قاضي الشافعية :

قابلت الجواب عن هذا السؤال ، المكتوب على خط ابن تيمية .

فصح - إلى أن قال : وإنما المحرف جعله : زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبور

الأنبياء صلوات الله عليهم معصية بالاجماع مقطوع بها .

هذا كلامه . فانظر الى هذا التحريف على شيخ الاسلام ، والجواب
ليس فيه المنع من زيارة قبور الانبياء والصالحين ، وانما ذكر فيه قولين
في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور . وزيارة القبور من غير شد
رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة اخرى .
والشيخ لا يمنع الزيارة الحالية عن شد رحل ، بل يستحبها ، ويندب
اليها . وكتبه ومناسكه تشهد بذلك . ولم يتعرض الشيخ الى هذه الزيارة
في الفتيا ، ولا قال : انها معصية ، ولا حكى الاجماع على المنع منها .
والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية .



ولما وصل خط القاضي المذكور الى الديار المصرية ، كثر الكلام
وعظمت الفتنة ، وطلب القضاة بها ، فاجتمعوا ، وتكلموا ، وأشار بعضهم
بحبس الشيخ ، فرسم السلطان به (١) .

قال الاستاذ محمد ابو زهرة معلقاً على هذه القضية :

هذه احدى القضايا التي اثار غبارها ابن تيمية في قوة وعنف ،
وقرع بها مشاعر معاصريه قرعاً شديداً وأزعجهم بها ازعاجاً شديداً .
والاساس الذي بنى عليه ابن تيمية قوله ، هو افراد الله وحده
بالعبادة ، والبعد عن الوثنية وكل ذرائعها ، ثم حمل نصوص النهي عن
الوثنية على زيارة القبور ، وخصوصاً قبر الرسول .

ونحن قد نميل الى قوله في زيارة قبور الصالحين ، اما زيارة قبر
النبي ﷺ فانما نخالفه فيه مخالفة تامة ، وذلك لان الاساس
الذي بنى عليه قوله هو الوثنية ، فان كان يريد ان زيارة القبر الشريف
هو في ذاته نوع من الوثنية فهو غريب ، فانك كما تفسره بأنه وثنية يصح
ان تفسره بأنه وحدانية ومبالغ فيها ، لان زيارة قبر نبي الوحدانية

(١) العقود الدرية ص ٣٢٦ باختصار

استشعار حقيقتها ، وتقديس لمعناها ، فان التقديس الذي يتصل بالرسول
 انما هو من فكرتهم ، وهدايتهم ، فالتقديس لمحمد تقديس للمعاني التي
 دعا اليها وحث عليها ، وكيف يتصور من مؤمن يعرف حقيقة الدعوة
 المحمدية انه يكون مستشعراً لأي معنى من معاني الوثنية ، وهو
 يستعبر العبر ، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة ؟
 واذا كان خوف ابن تيمية من ان يؤدي ذلك الى الوثنية بضمي
 الاعصار والدهور ، فانه خوف في غير مخاف ، لان الناس كانوا يزورون
 قبر الرسول الى اول القرن الثامن ، ثم بتوالي العصور من بعده الى يومنا
 هذا . ومع ذلك لم ينظر احد اليه نظرة عبادة ، او وثنية ، نعم تفرط
 من العامة عبارات كالتوسل بجاهه ، او الاستشفاع بشفاعته وهي عبارات
 لا وثنية فيها ، بل تؤول بأقرب تأويلاتها ، ويفهم الجاهلون ، ولا تمنع
 تلك الذكريات العطرة لاجل عبارات من العوام يحسن ارشادهم لا
 منعهم من الزيارة ، وتفهمهم لا تكفيرهم ، وان الله سبحانه قد صان
 التوحيد الى يوم القيامة ، وقد ذكر ذلك محمد ﷺ في آخر
 حياته ، ويشرب به المؤمنين ، وهو ان الشيطان قد يش ان يعبد في ارض
 العرب ، فليس لابن تيمية ان يخاف على التوحيد من بعد .

وان الآثار عن السلف الصالح تثبت انهم - رضي الله عنهم -
 كانوا يتبركون بزيارة قبره الشريف ، ولم يجحدوا فيه وثنية ولا ما
 يشبهها . ألم يكن الشيخان الجليلان ابو بكر وعمر حريصين على ان يدفنا
 بجوار جثمانه الكريم ﷺ ولم يريا في ذلك وثنية او ما يشبه الوثنية .
 ولقد روى ابن تيمية - رضي الله عنه - ان السلف الصالح -
 رضوان الله تبارك وتعالى عليهم - كانوا يسمون على النبي ﷺ كلما
 مروا على الروضة الشريفة ، قال نافع كان ابن عمر يسم على القبر -
 رأيت مائة مرة او اكثر يحییء الى القبر ، فيقول السلام على النبي ﷺ ،

السلام على ابي بكر ، السلام على أبي ، ورؤي واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه .

ولقد قال ابن وهب ان الامام مالكا - رضي الله عنه - قال : « لا بأس لمن قدم من سفر او خرج الى سفر ان يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ، قيل : فان اناساً من اهل المدينة لا يقدمون من سفر ، ولا يريدونه يفعلون ذلك اليوم مرة او اكثر ، وربما وقفوا في الجمعة او الايام المرة او المرتين او اكثر عند القبر ، فيسألون ويدعون ساعة ، فقال مالك لم يبلغني ذلك عن اهل الفقه ببغداد وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح بها اولها ، ولم يبلغني عن اول هذه الأمة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك ويكرهه الا لمن جاء من سفر او أراد » (١) .

ولقد حكى ابن تيمية عن اكثر الائمة انهم يرون ان يستقبل القبر الشريف عند الدعاء (٢) .

هذه النقول وغيرها مما جرى على قلم ابن تيمية - رضي الله عنه - تدل على جواز زيارة قبر الرسول ﷺ ، وقد دل من هذه الاخبار :

(١) كثرة زيارتهم لقبره عليه السلام ، حتى ان ابن عمر زاره اكثر من مائة ، وان نافعاً تلميذه رآه يضع يده على مقعد رسول الله ﷺ على منبره ثم يضعها على وجهه .

(٢) تجوز بعض الائمة ان يدعو الزائر للقبر متجهاً الى القبر ، وعلى ذلك اكثر الائمة .

(٣) وان مالكا - رضي الله عنه - بحث على زيارة القبر عند السفر ، وعند العزم عليه .. وهكذا مما نقل تقي الدين .

(١) « قاعدة جلية في التوصل والوسيلة » ص ٥٥

(٢) « العقود الدرية » ص ٣٢٨

واذا لم يكن هذا مسوغاً للزيارة والتذكر بالقرب من الروضة الشريفة فماذا يكون المسوغ ؟ وان الحديث الصحيح « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد » هر دليل على شرف البقعة التي حل فيها محمد ﷺ حياً ، ودفن فيها ميتاً ، فقد كان شرف الكعبة انها بيت الله واول بيت وضع للناس ، وشرف المسجد الاقصى ، لانه مسجد الانبياء السابقين وموضع الامراء ، ومثله كان المعراج ، فماذا يكون شرف المسجد الحمدي ؟ انما شرفه من اقامة الرسول ﷺ فيه ، وانه كان مكان النور الحمدي ، والهدى الاسلامي . وان شد الرحال اليه ليورى الرائي موطن الوحي ، ومنازل النبوة ، وان تلك الذكريات كما تتحقق في المسجد الشريف تتحقق في الروضة الشريفة ، بيد ان هذا يصلى فيه ، وتلك لا يصلى فيها ، لموضع النهي من ان يتخذ القبر مسجداً ، فيقتصر على مورد النهي .

يسأل ابن تيمية لماذا اختار النبي ﷺ ان يكون مدفنه في مسكنه وهو حجرة عائشة - رضي الله عنها - ؟ ويختار الجواب ، وهو ألا يتخذ قبره مسجداً ، ولا يكون موضع عبادة ، وقد يكون ذلك جواباً سليماً ، او هو جزء من جواب صحيح ، والجزء الثاني ان يكون قبره قريباً من مسجده ، وان يكون قبره معروفاً غير مجهول ، فانه لو دفن بالبييع في الصحراء فقد يجهل موضعه ، ويكون بعيداً عن مسجده ، اما اذا دفن في حجرة عائشة - رضي الله عنها - ، فانه يكون قريباً من مهبط الوحي ، ومبعث الدعوة ، ومكان التنزيل .

وبعد فانا نختلف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول والمناجاة عنده ، وعدم النذب اليها ، وان التبرك الذي نريده ليس هو

العبادة أو التقرب إلى الله بالمكان ، وإنما التبرك هو التذكر والاعتبار والاستبصار ، أي امرئ مسلم علم حياة النبي ﷺ وسيرته وهديته ، وغزواته وجهاده ، ثم يذهب إلى المدينة ، ولا يحس بأن في هذا المكان كان يسير الرسول ، ويدعو ، ويعمل ويدبر ويجاهد ، أو لا يعتبر ولا يستبصر ، أو لا يحس بروحانية الاسلام ، وعبقريته النبي الأمين أو لا تهز اعطافه محبة الله ورسوله ، والأخذ بما أمر الله به ، والانتفاء عما نهى عنه ، إلا من أعرض عن ذكر الله ، ولم يكن من أولي الابصار . ان الزيارة إلى قبر الرسول هي الذكرى والاعتبار ، والهدى والاستبصار . والدعاء عند القبر ، دعاء والقلب خاشع ، والعقل خاضع ، والنفس مخلص ، والوجدان مستيقظ ، وان ذلك أبرك الدعاء (١) .

ونستطيع ان نلخص رد الاستاذ محمد أبي زهرة السابق على حجة الاسلام ابن تيمية بالنقاط التالية :

(اولها) ان شيخ الاسلام يقول بتحريم زيارة قبر صالح بعينه . ويميل ابو زهرة إلى تأييده في ذلك ، ويخالفه في زيارة قبر النبي ﷺ .

ان هذا الكلام جهل بقصد ابن تيمية ، طالما كرره الاستاذ ابو زهرة في كتابه ، وفي محاضراته التي القاها في مهرجان الامام ابن تيمية في دمشق ، انه لم يميز بين نهى شيخ الاسلام عن شد الرجال إلى زيارة قبور الصالحين ، وبين زيارتهم ، فان زيارتهم مندوبة ! وشتان بين الزيارة وبين شد الرجال للزيارة المنهي عنها في الحديث المشهور ، لما فيها من الغلو في الدين ، وهو محرم ، لقوله ﷺ : « لا تجعلوا قبوري عبداً ، صلوا علي أنا شتم » ..

(١) عن كتاب ابن تيمية للاستاذ أبي زهرة ص ٣٣٥ - ٣٣٨ .

والغريب ان يوافق ابو زهرة حجة الاسلام ابن تيمية - على حد
رأيه - في زيارة قبور الاشخاص العاديين ويخالفه في زيارة قبور غيرهم
من الانبياء والاولياء ، مع ان الفتنة أشد !!

(ثانيها) ان زيارة قبر الرسول تستشعر العبر ، ولا تحصل فيها
وثنية .

كيف يقول الاستاذ ابو زهرة ذلك ، وقد ضج المخلصون العارفون
بما يحصل عند قبر النبي ﷺ وقبور غيره من الانبياء
والاولياء من مظاهر الشرك كالاستغاثة بهم والدعاء والندر لهم والتمسح
بقبورهم ؟!

(ثالثها) فال الاستاذ ابو زهرة : ان الله سبحانه صان التوحيد الى
يوم القيامة بقوله عليه الصلاة والسلام « الشيطان يئس ان يعبد في ارض
العرب » فليس لابن تيمية ان يخاف على التوحيد من بعد !

غريب ان يصدر مثل هذا الكلام عن الاستاذ أبي زهرة ، انه
جهل بمعنى هذا الحديث المقصود منه اليأس من عبادة الشيطان عبادة
عامة ، فتقلب الامة الى امة وثنية مشركة ، اما ان تنقلب طائفة او
اكثر منها ، فتعبد الانبياء والاولياء ، فذلك واقع ، بل قد وقع فعلا ،
وقد أنبأ الله - سبحانه - نبيه بذلك في حديث : « لتتبعن سنن من
قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب
لدخلتموه ! » ومن سنن من كان قبلنا هذه الشراكيات التي ظهرت في
كثير من المسلمين قديماً وحديثاً . ولولا خشية الشرك لما نهى الرسول
ﷺ عن رفع القبور والبناء عليها ، واتخاذ الصور . ولولا
خشية الشرك لما قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا تجعل قبري وثناً

يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد ! « ولولا خشية الشرك لما سارع الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الى قطع شجرة الرضوان لما رأى صلاة الناس عندها ، فلماذا فعل امير المؤمنين ذلك ؟ لماذا لا يضع يديه في الماء البارد بناء على الحديث الذي ذكره الاستاذ ابو زهرة ؟

حقاً انه استحتاج غريب !
ويحسن بنا اتماما للبحث وتثبيتاً لما قلناه ان نسوق للشيخ ابي زهرة الحديث الصحيح الآتي ، لعله يرجع عن رأيه قال النبي ﷺ :
« لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألبات نساء دوس (قبيلة عربية) حول صنم لها يقال له ذو الخليفة » !

وهل نسي ابو زهرة الحديث القائل : الشرك في امتي أخفى من ديب النمل ؟
(رابعها) قوله : رأي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ، ثم وضعها على وجهه .

ان هذا ، ان صح ، فليس بحجة ، فان ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - ليس مشرعاً ، لا سيما وقد روى عنه - كما ذكر الاستاذ - كثرة الزيارات لقبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو من الغلو كما قال الامام مالك في الكلام الذي نقله الاستاذ ابو زهرة .

قال : قال ابن وهب ان الامام مالكا - رضي الله تعالى عنه - قال : « لا بأس لمن قدم من سفر او خرج الى سفر ان يقف على قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيصلي عليه ويدعو لأبي بكر وعمر ، قيل فان ناساً من اهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه ، يفعلون ذلك اليوم مرة او اكثر ، وربما وقفوا في الجمعة او الايام المرة او المرتين ، او اكثر عند القبر ، فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال مالك : لم يبلغني ذلك

عن اهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ! ولا يصلح آخر هذه الامة الا بما
صلح به اولها ! ولم يبلغني عن اول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون
ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر او اراده (١) .

(خامسها) ومن قوله : والحديث الصحيح « لا تشد الرحال الا
الى ثلاثة مساجد » هو دليل على شرف البقعة التي حل فيها محمد ﷺ
ودفن فيها ميتا .

لقد نسي الاستاذ ان النبي ﷺ لم يدفن في المسجد ، انما
دفن في حجرة عائشة ، ثم ادخلت فيه - وبالأسف - زمن الوليد
ابن عبد الملك .

كيف يمكن ان يدفن صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد ،
والصحابا يعلمون انكاره ذلك في مثل قوله : « اشتد غضب الله على
قوم جعلوا قبور أنبيائهم مساجد » !

(سادسها) وقوله : ويسأل ابن تيمية لماذا اختار النبي ﷺ
ان يكون مدفنه في مسكنه ، وهو حجرة عائشة رضي الله عنها .
ان اني اختار ذلك هو الله تعالى لا النبي ﷺ ،
بقوله عليه الصلاة والسلام : « ما من نبي مات او يموت الا دفن في الموضع
الذي مات فيه ! » وقد ذكر ابو بكر الصديق الصحابة بهذا الحديث لما
اختلفوا في موضع دفنه !

(سابعها) وقوله : وعبقريه النبي الامين ..
ان كلمة عبقريه تقال للابطال والعظماء ، وقياس الانبياء عليهم فيه
ايهام بأن النبوة هي عنصر كسبي لا فطري ، ومن مواهب البشر ،
واذا صدرت امثال هذه التعابير من الاستاذ عباس محمود العقاد فله بعض

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٥٥ .

الْعذر اما ان يصدر ذلك من استاذ كلية الشريعة ، فأمر غير مقبول .
 (ثامنها) وقوله : وبعد فإننا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة
 قبر الرسول ﷺ والمناجاة عنده وعدم النذب اليها ..
 يظهر ان الشيخ أبا زهرة أغلق عليه فهم كلام الامام ابن تيمية
 حتى راح يقول : إنا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر النبي
 ﷺ .

نقول : حاشا شيخ الاسلام ابن تيمية ان يقول بمنع زيارة قبر النبي
 ﷺ (١) مما لا يتصور ان يقول به مؤمن ! وخلاصة قول حجة الاسلام
 انه يذكر بما نهى عنه الرسول ﷺ عن شد الرحال للزيارة . أما
 من شد الرحال الى مسجده ﷺ ، فيترتب عليه زيارة قبره والدعاء له ،
 ومن لم يفعل ذلك كان ملاماً ؟

قال الامام مالك رحمه الله ، لسائل سأله : انسه نذر ان يأتي قبر
 النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « ان كان أراد مسجد النبي
 ﷺ ، فليأته ، وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ،
 للحديث الذي جاء « لا تعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد » (٢) .

(١) لقد أعاد الشيخ ابو زهرة مثل هذه العبارة في كتابه المذاهب الإسلامية
 (ص ٣١٧) عن السلفين اتباع ابن تيمية فقال « ويمتقدون ان زيارة الروضة
 الشريفة مستقبلاً لها منافع للوحداية » وهو غير صحيح الفاية منه اثاره العوام والغواص
 على السلفين وهم اكثر المسلمين احتراماً للرسول - صلى الله عليه وسلم - واتباعاً له .
 والسلفيون يمنعون استقبال القبر في الدعاء ، لا مجرد استقباله ! وذلك ، لان الدعاء عبادة ،
 والعبادة لا يستقبل بها القبر ؟

(٢) المقود الدرية ص ٣٥٤

صدي سجنه في العالم الاسلامي

وبعد فانه لما قرع اسماع اهل البلاد الشرقية والضواحي العراقية التضييق على شيخ الاسلام ابن تيمية ، عظم ذلك على المسلمين ، وشق على ذوي الدين ، وارتفعت رؤوس الملحدين ، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ، ولما رأى علماء أهل هذه الناحية ، عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء ، بأكابر الافاضل وأئمة العلماء ، أنهموا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع ، الى الحضرة الشريفة السلطانية ، ... وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ في فتاواه ، وذكروا من علمه وفضله ، بعض ما هو فيه ، وحملوا ذلك الى بين يدي ملك الأمراء ، غير أنهم على هذا الدين ، ونصيحة للاسلام وأمراء المؤمنين .

فقد أرسل كبار علماء بغداد ودمشق من الشافعية والمالكية والحنابلة رسائل كثيرة الى السلطان ينتصرون فيها لشيخ الاسلام ابن تيمية ويؤيدونه في مسألة شد الرحال للقبور بالادلة القاطعة والحجج الدامغة ، وقد ذكرت هذه الأجوبة مفصلة في كتاب العقود الدرية (١) .

وقد عقد العلامة محمد كرد علي رحمه الله في كتابه « كنوز الأجداد » فصلاً عن ابن تيمية قال فيه بمناسبة حادثة شد الرحال :

« ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين ، وفي غير ذلك من البدع التي أقروها ، والشريعة تنكرها أفكاراً ظاهراً كما يفهم من أي الكتاب العزيز وهدي ﷺ والصحابة والتابعين والعلماء العاملين واعتياظهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة ، كان من نتائجها

مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الامة على إقرار الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة^(١) !
وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الاصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار الابد ، ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ، وهولم يأت بدع ، وهم سلموا بكل البدع ، فكان العالم العامل حقاً وكانوا عبدة أوهام وضلالات ، أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم قد تساوت عندهم النقاوة والنفاية ، لانهم يقصدون من مناقشتهم الظهور ، وكسب قلوب الغوغاء . على كل حال لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الاسلامية ، ولكنها عنده حارة ، وعند غيره فاترة ، لسم هذا الدين من تخريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الدنيا والاسلام يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى بالتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخيال والحبال .»

حال الامام في السجن

ذكر صاحب الكواكب الدراري :

ولما ورد أمر بسجن شيخ الاسلام ابن تيمية بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك وقال : اني كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم . ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه ، في كتابه «الكلم الطيب والعمل الصالح» انه قال :

ما يصنع أعدائي بي ؟

أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحى في معي لا تفارقني !

(١) ما عدا الديار السعودية بفضل خلف ابن تيمية الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

أنا حبسي خلوة !

وقتلي شهادة !

وإخراجي من بلدي سياحة !

وكان يقول في مجلسه في القلعة :

لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ، ما عدل عندي شكر هذه النعمة .
او قال :

ما جزيتهم على ما تسببوا الي فيه من الخير .. ونحو هذا .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس :

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ماشاء الله !

وقال لي مرة :

المحبوس من حبس قلبه عن ربه !

والمأسور من أمره هو اه !

ولما دخل ووصل القلعة وصار داخل سورها نظر اليه وقال :

« فضرّب بينهم بسور لهاب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله

العذاب ! »

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيّب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من

ضيّق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من

الحبس والتهديد والارجاف ، وهو مع ذلك أطيّب الناس عيشاً ، وأمرهم

صدرأً ، وأقواهم قلباً ، وأمرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا اذا اشتد بنا الخوف ، وساءت بنا الظنون ، وضائق بنا الارض ،

أتيناها فما هو الا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، فينقلب

انشرحاً وقوة ويقينا وطمأنينة .

فسيحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم ابوابها في دار
العمل ، فأناهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها
والمسابقة اليها .

وكان بعض العارفين يقول :

لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجدونا عليه بالسيوف .» اهـ

صنيع الامام في سجنه

لم يحل السجن بين الامام ابن تيمية وبين فكرته الاصلاحية ، ولم
تفتقر له همة طوال مدة سجنه ، فقد انصرف الى التأليف والتصنيف والرد
على خصوم الاسلام ، وعلى المبتدعين ، وكتب في تفسير القرآن العظيم
معان لطيفة ونفائس دقيقة ، وبين ذلك في مواضع كثيرة .^(١)

وقد كان عمله المفيد هذا ، يفضب خصومه من المقلدين والمبتدعين ،
ببدل أن يسرهم ، فكانوا يسعون لدى الدولة لنقله من سجن الى آخر
ليصرفوا عنه حتى السجناء ، ولكنه كان يزداد شهرة وتألقاً . وأخيراً
شكوا أمره الى السلطان وطالبوا بقتله مراراً ! غير أن السلطان لم يصغ
لكلامهم واكتفى بأن أصدر مرسوماً باخراج ما عند الامام من الكتب ،

(١) ولما كان في سجنه في مصر خصم للمساجين قسماً من وقته : « فقد
وجدتم مشتغلين بأنواع اللب يتلهون بها عما هم فيه فالشطرنج والنرد ونحو ذلك من
تضييع الصلوات ، فافكر الشيخ عليهم ذلك اشد الانكار ، وأمرهم ببلزمة الصلاة
والتوجه الى الله تعالى في الاعمال الصالحة ، والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من
السنة ما يحتاجون اليه ، ورغبهم في اعمال الخير ، وحضهم على ذلك ، حتى صار
الجبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والربط والخوانق والمدارس
وصار خلق من المحابيس اذا اطلقوا يختارون الإقامة عنده ، وكثر المترددون اليه
حتى كان السجن يمتلئ بهم » العقود الدرية ص ٢٦٩

ولم يبق عنده ولا ورقة ولا محبرة ولا قلم ! فكان بعد ذلك اذا كتب شيئاً الى أصحابه وتلامذته ، كتبه بفحم ! وقد وجدت رسائل مكتوبة بالفحم ، وفيما يلي نذكر احدى هذه الرسائل ، وهي أن دلت على شيء ، فانما تدل على جميل صبره ، ورضاه بقدر الله سبحانه ، وعلى مبلغ خبث خصومه وعدائهم للعلم والاسلام الصحيح !

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة ، متوفرة ، وجميع مايفعله الله ، فيه نصر الاسلام ، وهومن نعم الله العظام . و « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . فان الشيطان استعمل حزبه في افساد دين الله ، الذي بعث به رسله ، وأنزل كتبه .

ومن سنة الله : أنه اذا أراد اظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدفعه ، فاذا هو زاهق !

والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده ، بل مخالفة لدين جميع المرسلين ابراهيم ، وموسى ، والمسيح ومحمد خاتم النبيين - صلى الله عليهم أجمعين - (١)

وقد أشار ابن تيمية - رضي الله عنه - في هذه الرسالة الى حادثة اخراج كتبه وتصانيفه من السجن ، فقال :

وكانوا (أي المقلدة والخرافيون) قد سمعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور الاخنائية (٢)

(١) ويقصد بذلك شد الرحال الى القبور والامتناع بها والندرها والخوف منها ، مما يخالف ايسر مبادئ التوحيد ، وفي بعضه كفر ، المياذ بالله !

(٢) رسالة في الرد على ابن الاخنائي قاضي المالكية بجمهر . وقد طبعت بجمهر في المكتبة السلفية .

فاستعجلهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم ، وألزمهم
بمقتبشه ومطالعته ، ومقصودهم اظهار عيوبه ، وما يحتجون به ، فلم يجدوا فيه
الاما هو حجة عليهم ، وظهر لهم جهلهم ، وكذبهم وعجزهم ، وشاع هذا
في الارض ، وأن هذا مما لا يقدر عليه الا الله ، ولم يمكنهم أن يظهر واعلينا
فيه عيباً في الشرع والدين ، بل غاية ما عندهم : أنه خولف مرسوم بعض
المخلوقين ، والمخلوق كائن من كان ، اذا خالف أمر الله تعالى ورسوله ، لم
يجب ، بل ولا يجوز طاعته ، في مخالفة أمر الله ورسوله بانفاق المسلمين !
وقول القائل (عني) : أنه يظهر البدع ، كلام يظهر فساد له لكل
مستبصر ، ويعلم أن الأمر بالعكس ، فان الذي يظهر البدعة ، اما أن
يكون لعدم علمه بسنة الرسول ، أو لكونه له غرض وهوى يخالف ذلك !
وهو أولى بالجهل بسنة رسول الله ، واتباعه هو اهم بغير هدى من الله (ومن
أضل ممن اتبع هواه بغير هدى الله) ، ممن هو أعلم بسنة الرسول منهم ،
وأبعد عن الهوى والفرض في مخالفتها (ثم جعلناك على شريعة من الأمر ،
فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . انهم لم يغنوا عنك من الله شيئاً ،
وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين) .

وهذه قضية كبيرة لها شأن عظيم « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

(ثم ذكر ابن تيمية في الورقة كلاماً لا يمكن قراءته جميعه بسبب
انطماسه بالفتح جزى الله الخرافين عنه بما يستحقون !!)
وبعد ذلك وصف شيخ الاسلام عمله في ميدان الاصلاح الديني وضد
المتبدعة فقال :

بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان ، والجبليية ، والجهمية ،
والاتحادية (حينما قاتلهم مع السلطات الحكومية) وامثال ذلك ، وهذا

من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون !
وقد اعتبر شيخ الاسلام ابن تيمية اخراج الكتب والاوراق من
عنده من أعظم النكبات بسبب ضياع كثير مما كان يحول في نفسه ، ويود
نشره على الناس !

وأقبل الامام بعد ذلك على العبادة وتلاوة القرآن والذكر والتهجد
حتى وافته منيته . وختم القرآن مدة اقامته بالقلعة ثمانين أو احدى وثمانين
ختمة ، انتهى في نهاية ختمة الى آخر سورة اقتربت الساعة (ان المتقين في
جنت ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

وكان كل يوم يقرأ ثلاثة اجزاء ، يختم في عشرة أيام ، هكذا أخبر
أخوه زين الدين ، وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً ، ومدة سجنه الأخير
في قلعة دمشق سنتان وثلاثة أشهر وأياماً ، لم يقبل خلاها - ولا قبلها
لما سجن في مصر - شيئاً من الكسوة السلطانية ، ولا من الادرار
السلطاني ، ولا تدنس بشيء بين ذلك . كما أخبر بذلك نائب السلطنة
بدمشق (١) .

ابتهالات

وقد أنشد شيخ الاسلام في سجنه هذه الايات التي وجدت بخطه
في القلعة :

أنا المسكين في مجموع حالاتي	أنا الفقير الى رب السموات
والخير ، إن جاءنا ، من عنده يأتي	أنا الظلوم لنفسي ، وهي ظالمتي
ولا عن النفس في دفع المضرات	لا أستطيع لنفسي جلب منفعة

(١) المقود الدرية باختصار .

وليس لي دونه مولى يدبرني
ولست أملك شيئاً دونه أبداً
ولاظمي له كيما أعاونه
والفقري وصف ذات لازم أبداً
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم
فمن بغى مطلباً من دون خالقه
والحمد لله ملء الكون أجمعه
ثم الصلاة على المختار من مضر
ولا شفيع إلى رب البريات
ولا شريك أنافي بعض ذراتي
كما يكون لا رباب الولايات
كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وكلهم عنده عبد له آتي
فهو الجہول الظلوم المشرك العاتي
ما كان منه ، وما من بعده يأتي
خير البرية من ماض ومن آتي

وفاة شيخ الاسلام رحمه الله بالقلعة

بقي الشيخ رحمه الله تعالى مقبلاً بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأياماً ، ثم
توفي إلى رحمة الله ورضوانه ، وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة
والتلاوة ، وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ...

وقد رثاه الشيخ الامام زين الدين ، أبو حفص ، عمر بن محمد بن أبي
الفوارس ، بن علي بن الوردي ، الشافعي - رضي الله عنه - بقصيدة
قال فيها :

عتا في عرضه قوم سلاط
تقي الدين أحمد خير حبر
توفي وهو مسجون فريد
ولو حضروه حين قضى لافوا
لهم من نثر جواهره النقاط
خروق المضلات به نخط
وليس له إلى الدنيا انبساط
ملائكة النعيم به أحاطوا

قضى نجباً وليس له قرين
فتى في علمه أضحى فريداً
وكان الى التقى يدعو البرايا
فيا لله ما قد ضم لحد
هو حدوده ، لما لم ينالوا
وكانوا عن طرائفه كسالى
وحبس الدر في الاصدا فخر
بال الهاشمي له اقتداء
بنو تيمية كانوا ، فبانوا
ولكن يا ندامة حابسيه
ألم يك فيكمو رجل رشيد
امام لا ولاية كان يرجو
ولا جارا كمو في كسب مال
فقيم سجنتموه وغضتموه
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي
أما والله لولا كتم سري
و كنت أقول ما عندي ولكن
فما أحد الى الانصاف يدعو
سيظهر قصدكم يا حابسيه
فها هو مات عنكم ، واسترحم
وحلوا واعقدوا من غير رد

ولا لنظيره لف القماط
وحل المشكلات به يناط
بوعظ للقلوب هو السياط
ويا لله ما غطي البلاط
مناقبه فقد فسقوا وشاطوا
ولكن في اذاه لهم نشاط
وعند الشيخ بالسجن اغتباط
فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
نجوم العلم ادر كها انهباط
فشك الشريك كان به يناط
يرى سجن الامام فيستشاط
ولا وقف عليه ولا رباط
ولم يعهد له بكم اختلاط
أما لجزا أذيته اشتراط؟
ففيه لقدر مثلكم انحطاط
وخوف الشر لانحل الرباط
باهل العلم ما حسن اشتطاط
وكل في هواه له انخرط
ونيتكم اذا نصب الصراط
فعاطوا ما اردتم ان تعاطوا
عليكم وانطوى ذاك البساط^(١)

(١) وهناك عشرات الشعراء من العلماء الذين رثوه وبكوه بقصائد عاطفية تدمي القلوب وتفتت الجلود ، ذكرها صاحب المقود الدرية في آخر كتابه.

الاحتفال الكبير بالصلاة على شيخ الاسلام

دخلت جنازة الامام جامع بني أمية ، وصلى عليه عقب صلاة الظهر ، ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه الا حضر لذلك حتى غلقت الاسواق بدمشق ، وعطلت معاشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم .

وخرج الامراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والاجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام . قال بعض من حضر : لم يتخلف فيما أعلم الا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته ، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس !!

واتفق جماعة من حضر وشاهد الناس والمصلين عليه أنهم يزيدون على نحو من خمسمئة الف ، وحضرها نساء كثير بحيث حزنن بخمسة عشر الفا .

قال أهل التاريخ : لم نسمع بجنازة تمثل هذا الجمع الا جنازة الامام احمد بن حنبل ، قال الدارقطني : سمعت ابا سهل زياد القطان يقول : سمعت عبد الله بن احمد بن حنبل يقول : سمعت ابي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز !

ثم حملت جنازة الشيخ الى قبره فوضع . وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ، ولم يكن حاضراً قبل ذلك ، وصلى عليه أيضاً ، ومن معه من الامراء والكبراء ، ومن شاء من الناس . ثم دفن وقت العصر الى جانب أخيه الشيخ جمال الاسلام شرف الدين . اهـ

هكذا انتهت حياة العظيم!

وهكذا انتهت حياة شيخ الاسلام ابن تيمية موتاً في السجن بعد فضال مرير في ميادين العلم وساحات الجهاد ، فترة من الزمن تزيد على نصف قرن ، لاقى خلالها أنواع الاضطهاد ، فلم تكن له عزيمته ، ولم تضعف له ارادة .

ولو علمت السلطات الحكومية ما في حر كته الاصلاحية الدينية من فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية لكان لها منه موقف آخر ، ولكن خفافيش العلم وادعياء الدين اخفوا عليها الحقيقة وقلبوا لها المفاهيم ، وغرروها وخدعوها خشية على دجلهم من أن ينكشف ، وعلى امتيازاتهم من ان تضع ، فعملوا لعنة الابد وخيانة الدهر وجريمة التاريخ !!

ان الاصلاح الديني أول شيء في الاصلاح ، وكل اصلاح يقوم بدوره ، لايشمر أبداً ! وما بعثة سيد الخلق النبي محمد ﷺ الا اصلاح ديني سرعان ما ازدهر وأثر وأتى أكمله في جميع النواحي العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ووجد العرب وأخى بينهم بمعجزة وسرعة مدهشة ، وانطلق بهم في آفاق العلم والنصر مما يبرهن على عظمة تأثير الدين الصحيح في اصلاح النفوس « لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم !! » .

وهذا العرب نفسه كان في جهل سحيق وظلام دامس ، ولم ينبج من انحطاطه الا يوم أعلن الاصلاح الديني فألغى امتيازات رجال الدين ، وأطلق العقل في آفاق العلم والبحث التي حرّمها عليه من قبل هؤلاء الانتهازيون وسعى لمعرفة الهه بنفسه واللجوء اليه دون وساطة رجال الكنيسة ،

مقتبساً كل هذه الانطلاقات مما شاهده في المسلمين خلال حروبه وتجارته ..
فكانت هذه النهضة الاوربية التي انتشرت بسرعة البرق وأنقذت الغرب
من ظلام القرون الوسطى على الرغم مما فيها من انحرافات !

ما كاد الامام ابن تيمية رضي الله عنه - يتفقه في الدين ، حتى
شاهد العالم الاسلامي ينخطفه الاعداء من الداخل والخارج : من داخله
الفرق الدينية على اختلاف أسماؤها تنخر فيه نخر السوس في الشجرة
الباسقة ، وتبعده عن اسلامه الصحيح دون أن يشعر ، عن طريق الآراء
والفلسفات الوثنية من يونانية وهندية ، والمؤامرات السياسية من باطنية
وصوفية وشعوبية وغيرها تهد كيانه .

ومن الخارج التتار يهدم مدينة الاسلام ويحرق كتبه ويقتل أهله .
والغريب أن هؤلاء التتار دخلوا الاسلام فيما بعد على زعمهم . ولكن أي
اسلام هذا ؟ اسلام الباطنية الذي لا يحمل من الاسلام الا اسمه ، ويكون
لجماعته كل عداة ! ويسعى لهدم الاسلام باسم الاسلام كما هدمه ابن العلقمي
ونصير الدين الطوسي في بغداد ايام الخليفة المستعصم !!

هكذا كان العالم الاسلامي في عهد ابن تيمية ، في خطر يهدده من
الداخل والخارج . وكان من واجب شيخ الاسلام ازاء كل ذلك أن
يسارع ليجمع شمله ويوحد خططه ويعالج مشكلاته . ويحارب خصومه
داخلاً وخارجاً .

ولكن انى له ذلك ؟

فقد كانت المذهبية على أشد الخلاف فيما بينها ، وقد كان يقع بين
اصحاب المذاهب مع الفتن والدسائس والمكايد وتكفير بعضهم بعضاً أحياناً
ما تفتت له قلب كل مسلم مخلص . وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أن
كثيراً من المدن قد تحرب بسبب النزاع بين اصحاب هذه المذاهب .

وعلاوة على هذه الخلافات المذهبية فقد انتشرت بين المسلمين
الفلسفات الكلامية حول المقام الالهي ، أبعدت المسلمين عن عقيدتهم
السلفية المقتبسة من القرآن والسنة ، وأخذت عقيدة الجبر تعمل هدماً
وتخريباً بين المسلمين فأضعفت الارادات وشلت العزائم وادخلت الوسوس
والشكوك في العدل الالهي ودفعت بهم الى التكاثر والتواكل .

وقد هبط كثير من المسلمين في مهاوي الوثنية ، فكانوا يشدون
الرحال الى قبور الصالحين ويتمسحون بها ويستغيثون بأصحابها وينذرون
لهم ويدعونهم في الشدائد بما يتنافى مع أبسط مبادئ التوحيد .

حتى الاسرة الاسلامية لم تنج من الخطر ، فقد كانت مهددة بسلاح
الطلاق البدعي ، فكان مجرد لفظ الرجل بكلمة الطلاق ثلاثاً دفعة واحدة
كفيل بتشريد اطفال الاسرة والتفريق بين الزوجين تفريقاً لالقاء
بعده ! كما كان مجرد الحلف بالطلاق خليف بأن يؤدي الى المصير المشؤوم !
انتشر التصوف اليوناني والهندي بين المسلمين وعمت نظرية وحدة
الوجود بين الناس ، وهي نظرية الحادية هدامة تذيب الاله في نفوس
مخلوقاته ، وبلغت الطرق الصوفية أشد درجاتها من الشهوة والدجل
وابتذاع الاوراد المبتدعة والرقص في الذكر مقروناً بصوات الطبول
المزعجة ، وكان من يمتثل لدخول النار واستخدام الافاعي والثعابين على
نحو ما يفعله مجوس الهنود .

هذه صورة فاضحة للمسلمين في عهد ابن تيمية رضي الله عنه ،
ولا غرابة بعد كل ذلك ان نرى هذا الشيخ العظيم بما عرفه عنه من
اخلاص وشجاعة يعلن الثورة على هذه الاوضاع ، ثورة منتجة قوية
أعلن المبدأ الاسلامي الذي يرضي جميع المسلمين المخلصين ويوحد

بين صفوفهم على اختلاف فرقهم ومذاهبهم وينقذهم من الضلال والنزاع وهو مبدأ الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه وترك ما يخالفهما من الاراء الفلسفية وسنن أهل الكتاب، ومن أقوال رجال غير معصومين، عملاً بقوله تعالى « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وقوله سبحانه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ! » اخذ ابن تيمية يؤلف الكتب في الرد على علماء الكلام وعلى الباطنية والمبتدعة والمقلدة بأسلوب غاية في القوة والابداع وسمو الحجة والبرهان، وينشر الرسائل في سبيل توحيد المسلمين في مذهب محمد ﷺ تلبية للنداء الالهي : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ! » وقد أعلن القرآن : « لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً !! » فقامت قيادة الباطنيين ، وثار الخرافيون والجامدون ضده ووشوا به الى السلطات الحاكمة ، فكان ما كان مما جاء تفصيله في هذا الكتاب . وقسموا لو استجاب المسلمون لدعوة ابن تيمية الإصلاحية ، لكان لهم اليوم شأن عظيم ، ولا مدمهم الله بنصره !

ولكن هذه النتيجة المؤسفة لهذا الرجل العظيم واخفاء مبادئه وحرق كتبه والعودة بالأمة الى احضان التقليد الامى دون معرفة بالدليل ، ويحمل وزرها ووزر من عمل بها ، هؤلاء الادعياء الضالون المضلون ، الى يوم القيامة !!

وفي اليوم الذي يثوبون الى ربهم ، ويعلمون مافي جهودهم ومحاربتهم للمصلحين والمجاهدين من خطر يهدد المسلمين جميعاً بافدح الاخطار ، ويخدم اعداء الاسلام وحدهم .

أجل في هذا اليوم يرجع للمسلمين مجدهم ويتحقق وعد الله لهم

وتفتح لهم ابواب النجاحات والعظمت ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله !
 ان المسلمين مدعوون اليوم للتفكير من جديد بدعوة حجة الاسلام ابن
 تيمية فان هذا العصر لا يقل عن عصر شيخ الاسلام حاجة الى صيحة الحق
 هذه ، خاصة وان دعوة هذا الشيخ الجليل لم يخجو ناراها منذ سبعة قرون
 الى يومنا هذا ، فقد حملها من بعده الى الناس تلميذه ابن القيم الجوزية ،
 ولا تزال حية تنتقل من عصر الى عصر حتى جاء الشيخ محمد بن عبد
 الوهاب ، فنهج خطة ابن تيمية في محاربة البدع والضلالات وحطم القباب
 وقطع الاشجار التي كان الناس يتباركون بها وينذرون لها ، ومنع الاستعانة
 بغير الله ، وقد لاقى العنت من الدجاجة والمبتدعين ، ولكن الدعوة
 السلفية انتشرت انتشار النار في الهشيم فانتقلت من نجد والحجاز الى مصر
 وسورية والهند والمغرب على الرغم من اعتراض المعارضين ووشاية الواسين
 الذين تضاعل نفوذهم ، وخمدت نارهم !!

لقد كان فضل الامام ابن تيمية على العالم الاسلامي عظيماً وقد
 رأينا فيما سبق في شيء من التفصيل مبلغ جهوده في ميادين الحروب ضد
 التتار وضد الباطنيين مما كان له أعظم الاثر في تثبيت دعائم الامة العربية
 والاسلامية ووحدها .

كما اوضح المسلمين معالم الاسلام الصحيح وحارب البدع والتصوف
 وسعى كما قلنا سابقا في توحيد المسلمين في مذهب الرسول ﷺ واصحابه
 من بعده عن طريق حض المسلمين للرجوع الى الكتاب والسنة وهجر
 المذهبية التعسفية التي كانت من أهم عوامل تمزيق المسلمين الى شيع
 و فرق يكيد ويكفر بعضهم بعضاً ، وكثيراً ما تناقشوا (١) نتيجة الخلافات

(١) جاء في كتاب « ابن تيمية السلفي » للدكتور محمد خليل هراس ص ١٤

وما بعدها :

المذهبية . فكان يرمي ابن تيمية - كما قال الدكتور محمد خليل هرس

- وزاد الامر سوءاً ما كان يقع من الفتن والمنازعات بين ارباب المذاهب والمقاتلات، وما كان من تمييز الدولة لفريق دون آخر .

فالعزيز صاحب مصر وهو ابن صلاح الدين ، كان قد عزم في السنة التي توفي فيها، وهي سنة ٥٩٥ هجرية ، على اخراج الحنابلة من بلاده ، وان يكتب الى بقية اخوانه باخراجهم من البلاد!!

وفي هذه السنة نفسها، وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان . وسببها ان فخر الدين الرازي، وهو من كبار الاساعرة وفد الى «غيث الدين الغوري» ملك غزنة، فآكرمه وبنى له مدرسة في «هراة»، وكان اكثر الفورنة كرامة فابغضوا الرازي واحبوا ابعاده عن الملك، فجمعوا له جماعة من الفقهاء، وحضر ابن القدوة، وكان شيخا معظما في الناس، وكان على مذهب ابن كرام، فتناظر هو والرازي وخرجا من المناظرة الى السب والشتم، فلما كان الغد اجتمع الناس في المسجد الجامع وقام واعظ فتكلم وقال هي خطبته:

«أيها الناس، انا لا نقول الا ما صح عند رسول الله، واما علم ارسطو طاليس، وكفریات ابن سينا، وفلسفة الفارابي، وما تلبس به الرازي، قانا لا نعلمها ولا نقول بها ، وانما هو كتاب الله وسنة رسوله .

«ولا ي شيء يشتم بالامس شيخ من شيوخ المسلمين يذب عن دين الله وسنة رسوله على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل»

فبكى الناس وضجوا وبكت الكرامية واستغاثوا ، وأعاضهم على ذلك قوم من خواص الناس ، وانهم الى الملك صورة ما وقع ، فامر باخراج الرازي من بلاده .

وفي هذه السنة ايضا وقعت فتنة بدمشق بسبب عبد المغني القدسي ، وذلك انه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الاموي ، فذكر يوما شيئا من العقائد المتعلقة بمسألة الاستواء على العرش والنزول الى سماء الدنيا والحرف والصوت ونحو ذلك ، فعقده الامير حسام الدين «برغش» مجلسا وجمع الفقهاء لمناظرته ، فالزموه بالزامات شيعية لم يلزمها ، واستمر على ما يقول لم يرجع عنه . فقال له «برغش» : كل هؤلاء على الضلالة وانت وحدك على الحق قال : نعم ! فغضب الامير وامر بنفيه من البلد ، وأرسل الاسارى من القلعة فكسروا منبر الحنابلة . وتعطلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة .

فهذه الحكايات وامثالها ترينا مقدار ما بلغه التعصب المذهبي من نفوس المسلمين في ذلك العصر ، وهو أمر لا يشتد ويبلغ اقصى مداه الا في حالات الضعف والجمود العلمي .

في كتابه « ابن تيمية السلفي » - الى القضاء على تلك العصبية المذهبية التي كانت قد تمكنت من نفوس العلماء حتى حملتهم على مساواة بعضهم بعضاً وتكفير بعضهم بعضاً والتي كانت سبباً في ما ابتلى الله به المسلمين من الضعف والخذلان وتسلب الاعداء جزاء وفاقاً لما تركوا من كتاب الله وسنة رسوله !! »

يقول الامام ابن تيمية في رسالة الفرقان :

« فاذا ترك الناس بعض ما انزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، اذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه ، مما أخبر به ومأمر به ، وأما ما ابتدعه فكله ضلالة (١) ! »

ومن الحق أن نقول في هذه المكاتبة أن هذه المذهبية التعصبية هي التي كانت سبباً في ابتعاد الحكام والمسؤولين في العالم الاسلامي عن الشريعة فيالها من جنابة لا توصف لشناعتها وسوء أثرها ! قال الاستاذ مصطفى الزرقا رئيس قسم القانون المدني بجامعة دمشق (٢) :

(١) مجموعة الرسالة الكبرى ص ١٧٧ رسالة الفرقان

ومما يؤسف ان اكثر علماء المسلمين لم يشعروا بضرورة العودة الى الكتاب والسنة وترك ما جاوزها والشعور بان ما اصابهم من محن هو نتيجة هذا البعد والافتراق. وقد جاء جولدزيهر يشار كنا هذا الرأي فقال نقلا عن الأستاذ مصطفى عبدالرزاق : « كانت الدولة الاسلامية في هم مما اصابها من اثر الخراب المغولي ، فاصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب الى اصلاح الاسلام مما دخل فيه بالعودة الى السنة التي كان الخروج منها مدعاة لغضب الله !! »

(٢) مجلة حضارة الاسلام ج ١ و ٢ العام الاول .

وكانت النتيجة أن أصبح الحكام الزمونيون في العالم الاسلامي منذ أواخر العهد العثماني يرون أن الشريعة وفقهها لا يستطيعان امداد البلاد بالتقنيات اللازمة لتنظيم الحاجات العصرية الآخذة بالتطور والتجدد السريع فالتجأوا الى أخذ القوانين الاجنبية التي أدت أخيراً الى دفن الفقه الاسلامي في مكتباته علماً وعملاً .

ويظهر أن طلائع هذه النتيجة كانت باقية منذ عصر ابن القيم ، فان له في هذا الموضوع نفسه كلاماً نفسياً مخلصاً سجله في كتابه «الطرق الحكيمة» وفي «اعلام الموقعين» ايضاً ، نص فيه واستنكر على اتباع المذاهب جمودهم وتضييقهم لمنابع الشريعة وافاقها حتى اضطروا الحاكمين من ملوك وامراء الى اصدار قوانين زمنية تسد الحاجة لعدم كفاية الاحكام الفقهية بينما الضيق ليس في الشريعة السمحة بل في عقول اتباع المذاهب .

يتراءى بعد هذا للنظر المتأمل أن اغلاق باب الاجتهاد كان كارثة عظيمة نزلت بالشريعة الاسلامية وفقهها الجليل .

والواقع أن الاجتهاد لا يملك أحد اغلاقه مادامت خصائص الاسلام تستلزمه حتماً حتى أن التأخرين اللامعين من اتباع المذاهب الاربعة يصرحون في كتبهم بأنه إذا وجد من بلغ رتبة الاجتهاد في علمه وتوافرت شرائطه ومؤهلاته فيه لا يجوز له أن يقلد مذهباً من المذاهب . ولكنهم عملياً لا يسمون لاحد ببلوغ هذه الرتبة فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح في نظرهم بل هو مفقود المقتاح !!

ويقول العلامة عز الدين بن عبد السلام ، وهو من أكابر فقهاء الشافعية في القرن السابع الهجري :

« اختلفوا هل انسد باب الاجتهاد ؟ على أقوال
... وكلها أقوال فاسدة فانه ان وقعت حادثة غير منصوصة ، أو

فيها خلاف بين السلف فلا بد فيها من الاجتهاد من كتاب او سنة . وما يقول سوى هذا الا صاحب هذيان (١) !

واني أعتقد أن الامام ابن تيمية هو المعلم الثاني الذي جاء يجدد تراث المعلم الاول الرسول ﷺ ويعيد المسلمين الى منابع دينهم الاولى وينقذهم من خطر الضلال الذي كانوا فيه عقائدياً وفقهياً .

يقول « الاستاذ مصطفى عبد الرزاق في كتابه التمهيد :

« اننا لانستطيع أن نقدر هذا المذهب (مذهب السلف) ، وما قدمه الى المجتمع الاسلامي من خير الا اذا صورنا لانفسنا ما كان يعايناه المساهون في ذلك العصر الذي ظهر فيه ابن تيمية من فوضى بالغة في العقيدة .

فقد كثرت فيه الفرق والمقالات كثرة لاحد لها وكانت هذه الفرق تتناحر وتتقاتل فيما بينها . وكل فرقة تدعي أنها على الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وتتلاعب بالنصوص فتوولها بما يتفق مع مذهبها وان خالف ذلك أبسط قواعد اللغة وأوضاعها واسلوب أهلها في التخاطب !!

وكان الناس لا يرجعون في شيء من أمر العقيدة ، لا الى كتاب ولا سنة ، بل كانوا يأخذون عقائدهم من كتب هؤلاء المتكلمين المتنازعين ، وهي كتب جافة محشوة بالجدليات والمناقضات ومسائل الخلافات ، ليس فيها مايروي غليلاً ، ولا يشفي غليلاً ، ولا يكسب القلب ايماناً وطمأنينة ! فضعف بذلك سلطان العقيدة ، وزالت قدسيتهما من النفوس ، وأصبحت مجالا للأخذ والرد واجترأ الناس على الكلام في الله وصفاته بما لم يأذن به ، فخبأ نور الايمان ، وانطفأ سراج اليقين ، وضعف الوازع الديني

(١) انظر رسالة « الاجتهاد والتقليد » للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص ١٦

وأين هذا مما اعلنه به محمد ابو زهرة في جامع التوبة بدمشق بأن اغلاق باب الاجتهاد كان نعمة من نعم الله على الاسلام ؟! كما اعلن ايضاً انه قد تراجع عن رأيه فيما اعلنه في بعض كتبه من لزوم فتح باب هذا الاجتهاد.

في نفوس المسلمين . واستغل أصحاب الخاريق الصوفية هذه الحالة ، وما
الناس فيه من اضطراب وحيرة . فأخذوا يدعونهم الى سلوك طرقهم ،
ويزعمون لهم أن فيها الهدى والشفاء ، وما كان التصوف في هذا العصر
الا سر الداء واصل البلاء ، فزادوهم مرضاً على مرض !!

وهكذا صار الاسلام غير الاسلام والمسلمين غير المسلمين .

جاء ابن تيمية فهاله الأمر ، وما وصلت اليه حال المسلمين من سوء
فوقف حياته كلها على معالجة هذه الحالة بشتى الطرق ومختلف الوسائل .
فأعلن حرباً لا هوادة فيها على هذه الطوائف كلها ، وأخذ يظهر
زيغها وبطلانها وبعدها عن منهج الكتاب والسنة ، ويدعوها الى طريقة
السلف الأول من الصحابة والتابعين ، معتقداً أنه لا يصلح آخر هذه الأمة
الا بما صلح به أولها .

ويدعوها كذلك الى البعد عن أساليب الجدل المقوتة ، والتلاعب
بالألفاظ في جانب معرفة الله تعالى وصفاته ، وترك هذه الحزبية المذهبية
التي فرقت بين المسلمين وجعلتهم شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون !! .
كان ابن تيمية يرى من وراء دعوته الناس للرجوع الى الكتاب
والسنة الى تطهير العقيدة الاسلامية مما داخلها من الزيغ والانحراف ،
وتخليصها مما لحق بها من أضرار الفلسفة الدخيلة ، وألوان الجدل العقيمة ،
التي لاتسمن ولا تغني من جوع .

وكان يرى كذلك ، الى القضاء على تلك العصبية المذهبية ، التي
كانت قد تمكنت من نفوس العلماء ، حتى حملتهم على معاداة بعضهم بعضاً ،
وتكفير بعضهم بعضاً . والتي كانت سبباً في ما ابتلى الله به المسلمين ، من
الضعف والخزلان وتسلط الأعداء جزاء وفاقاً ، لما تركوا من كتاب الله
وسنة رسوله ! اهـ



هذا وصف موجز لاعمال ابن تيمية . وقد جاءت كما يحىء الغيث
للارض العطشى . وأرى أن الله سبحانه لو لم يبعث ابن
تيمية - المعلم الثاني - لكان الاسلام في خطر ! فقد أنقذ قافلة المسلمين
الضالة والخائرة الى الصراط المستقيم !

وقد كان إصلاح ابن تيمية فتحاً جديداً في عالم المصلحين ، فهو لم
يقتصر على احياء الاسلام الصحيح الذي كان مدفوناً في الكتب ، بل راح
يدرس الفلسفة والمنطق ليورد على العقليين والمعارضين رداً نزيهاً علمياً
خلواً من المهارات والجدل بالباطل ، بأسلوبهم نفسه ، مثبتاً مصادقة صريح العقل
لصحيح النقل وعدم تعارضهما الا لدى العقول السقيمة والنفوس المريضة ، وهكذا
رد للنصوص اعتبارها ، بعد ما كادت تفقد حقيقة من كثرة تأويلها
لنوافق آراء فلاسفة اليونان والفرس الذين لا يستقرون على حال ، من
القلق . وقد أثبت ابن تيمية بجهده العظيم حماقتهم وضلالهم !

قد يقول قائل : لقد سبق الغزالي ابن تيمية في هذا الصدد حين
تصدى للفلسفة والمناطقة فاجيب صحيح ذلك ، ولكن الغزالي دخل
الفلسفة - كما قال أبو بكر الرازي - ولكن لم يستطع أن يخرج منها
فارتى في أحضان التصوف معتقداً انه الطريق الوحيد الموصل الى الله .
كما جاء في كتابه « المنقذ من الضلال » بعكس الحال عند الامام ابن
تيمية الذي درس المذاهب الفلسفية وخرج بعدها مثبتاً ضلالها !

واني أرى القوانين الالهية كالقوانين الطبيعية التي أوجدها الخالق
العظيم ، فكما انه يجب الخضوع لهذه القوانين للأفادة من الطبيعة فكذلك
يجب الخضوع للقوانين الالهية الاسلامية التي تتمثل في كتاب الله تعالى
وسنة نبيه ﷺ لتحقيق السعادة والعدالة في الحياة !

وكما أن مخالفة القوانين الطبيعية الالهية يحرم الناس الافادة منها ،
فكذلك القوانين الالهية التشريعية. وهذا ما اصاب به المسلمون لما تركوا
اسلامهم وحاولوا العبث به بالتأويل وغيره ليبرضوا به عقولهم المريضة
فحرموا نصر الله سبحانه الذي جعله حقاً عليه للمؤمنين !! والى هذا المعنى
يشير الامام ابن تيمية بقوله في رسالة الفرقان :

« فلما ظهر النفاق والبدع والفجور الخالف الدين الرسول ﷺ
سلطت عليهم الاعداء ، فخرجت الى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذوا
الثغور الشامية شيئاً بعد شيء الى أن أخذوا بيت المقدس في اواخر المئة
الرابعة ، وبعد هذا مدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال
بين الكفار والمنافقين والملاحدة (١) »

وعلاوة على خسارة نصر الله سبحانه بسبب تحريف وتأويل النصوص ،
فانها تؤدي الى خطر توزيع المسلمين وتمزيق شملهم وتمزيق كلمتهم ،
ووقوعهم في الفوضى وتعريضهم للغزو الخارجي نتيجة هذا الاختلاف
والتفرق !

فتوحيد المسلمين في مذهب واحد ، هو مذهب محمد ﷺ وصحبه ،
وفي فرقة واحدة (الفرقة الناجية) هي خير سبيل لجمع صفوفهم
سياسياً واجتماعياً ونجاتهم في الحياة الاخرى. قال النبي ﷺ ستفترق امتي
الى ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي
ما كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي !

ان انقسام المسلمين الى سنة وشيعة أدى بهم جميعاً الى نكبات كثيرة
كانت سبباً لغزو التتار منذ هولاكو الى تيمورلنك وقازان بما أضعف
الامة الاسلامية وعرضها للاستعمار الغربي في العصور الحديثة !

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٣٨

وقد شعر الامام ابن تيمية - رضي الله عنه - بخطر الاختلاف
وما ادى اليه من فوضى وفساد وانحراف ، فرأى بثاقب رأيه ضرورة
توحيد المسلمين في اطار الثقافة الاسلامية الموحدة البناءة الايجابية التي
تجمع شملهم وتبعد عنهم عوامل الفرقة والاختلاف ، وتجعلهم صفاً واحداً
وكتلة قوية على أن يكون أساس هذه الثقافة ومنازلها كتاب الله وسنة
نبيه وهما المصدران اللذان يتفق عليهما جميع الفرق والمذاهب الاسلامية ،
ولن يتم بينها تفاهم وتعاون الا عن طريقهما ، فعلى الساسة والمسؤولين أن
يبدركوا هذه الحقيقة فهي السبيل القويم والوحيد للوحدة الصحيحة.

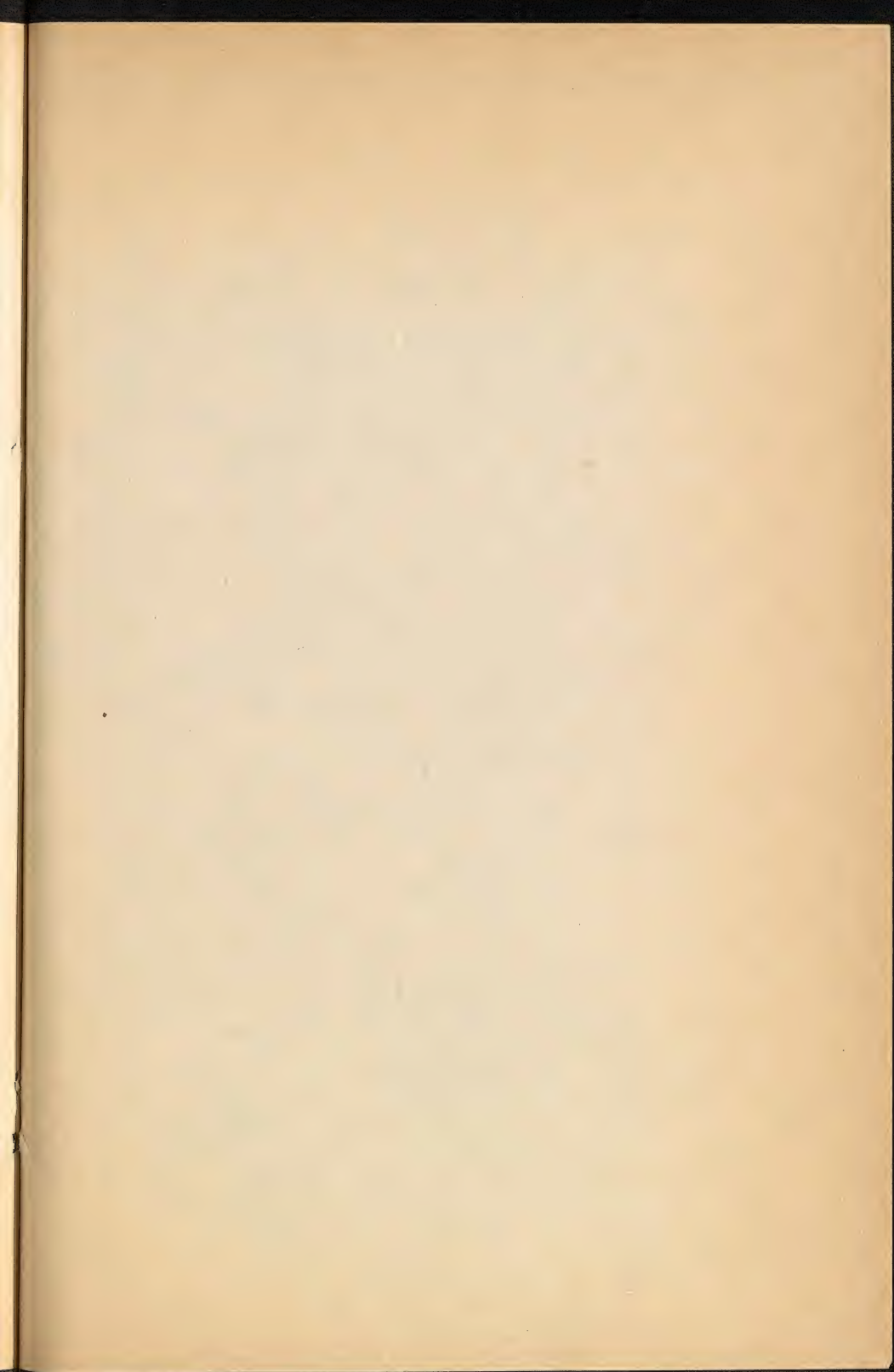
وقبل الانتهاء من هذه الصرخة اهيب بالجامعة الازهرية في القاهرة ،
وبكلية الشريعة بدمشق ، ووزارات الثقافة والارشاد القومي ، ووزارات
التربية والتعليم في البلدان العربية والاسلامية ، أدعو هؤلاء جميعاً إلى
احياء تراث شيخ الاسلام ابن تيمية - رضي الله تعالى عنه - والاقبال
على دراستها وعرضها على الناس عرضاً جميلاً وتبسيطها للرأي العام بطبعات
شعبية بديعة.

كما اهيب بهذه المؤسسات العلمية أن تتذرع بالجرأة فلا تحجم خشية
الحاقدين والادعياء والمبتدعين أعداء كل إصلاح من دراسة تراث هذا
المصلح والمجدد العظيم الذي لم يعرف له مثيل في تاريخ النهضة الاسلامية
الحديثة ، فهو لاشك باعثها ومحميها .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
اهداء	٣ — ١
مدخل	١٠ — ٣
نشأته وطلبه للعلم	١٢ — ١٠
ثناء العلماء عليه	١٤ — ١٢
مخالفته لعلماء عصره وحسد الادعياء له	١٤ — ١٤
ما يخص مناظرة الشيخ للعلماء	٢٣ — ١٤
رسالة من الامام الى أصحابه وتلاميذه	٣٠ — ٢٥
اخر اوجه من سجن الاسكندرية	٣٢ — ٣٠
خروج الشيخ الى الشام مع الجيش المصري	٣٢ — ٣٢
من محراب العلم الى ميدان القتال	٤٢ — ٣٢
شجاعة الشيخ وبأسه عند القتال	٤٣ — ٤٢
محاربة شيخ الاسلام للباطنيين	٤٥ — ٤٣
رسالة الشيخ الى السلطان الملك الناصر	٥٥ — ٤٥
شيخ الاسلام والصوفية	٦٧ — ٥٥
منهج ابن تيمية في معرفة العقيدة	٧٧ — ٦٧
فقه الامام ابن تيمية	٧٧ — ٧٧

الموضوع	رقم الصفحة
قامع البدع والاهوام	٩٦ - ١١
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح	١٠١ - ١١٩
الحكمة و التعليل والقدر	١١٩ - ١٢٩
الغزالي وابن تيمية	١٢٩ - ١٤٤
النصير الطوسي وابن العلقمي وابن تيمية	١٤٤ - ١٥٥
سبب موت الحسن وشهادة الحسين	١٥٥ - ١٥٨
القضاء والقدر	١٥٨ - ١٦٨
من مظاهر الشرك	١٦٨ - ١٩٢
ابن تيمية والحيل الشرعية	١٩٢ - ١٩٩
فتاوى شيخ الاسلام	١٩٩ - ٢٠٦
سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق	٢٠٦ - ٢٠٧
الكلام على شد الرحال الى القبور	٢٠٧ - ٢٠٨
امر السلطان مجبس الشيخ بقلعة دمشق	٢٠٨ - ٢٢٣
صدى سجنه في العالم الاسلامي	٢٢٣ - ٢٢٤
حال الامام في السجن	٢٢٤ - ٢٢٦
صنيع الامام في سجنه	٢٢٦ - ٢٣٩
ابتهالات	٢٢٩ - ٢٣٠
وفاة شيخ الاسلام رحمه الله بالقلعة	٢٣٠ - ٢٣٢
الاحتفال الكبير بالصلاة على شيخ الاسلام	٢٣٢ - ٢٣٣
هكذا انتهت حياة العظيم	٢٣٣ - ٢٤٥
القهرس	٢٤٤ - ٢٤٧



تصويب

لقد اكتنفت السرعة طبع هذا الكتاب ، وكان المؤلف مسافراً حين طبع بعض ملازمه ، فوقعت أخطاء ذكرنا بعضها فيما يلي والبعض الآخر لا يخفى على القارئ ! فعدرة .

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٦	انبشكم بالآخرين	ننبشكم بالآخرين
٥	١٠	اصحابي	اصحابي
٥	١٣	ستار	سمنار
٥	٢٠	عاهم	دعاهم
٥	٢١	الطروء	والطرق
٥	٢٢	الترمزي	الترمذي
٢٢	١٨	رجال الدين	علماء الدين
٢٧	٣٢	احدهما	احدهما
٢٩	٢	كبر	كبره
٣٣	١	البساء	البأساء
٣٥	١٤	الدينه	الدينه
٣٥	١٥	رجلة	رجلها
٣٨	٣	وانى	أو انى

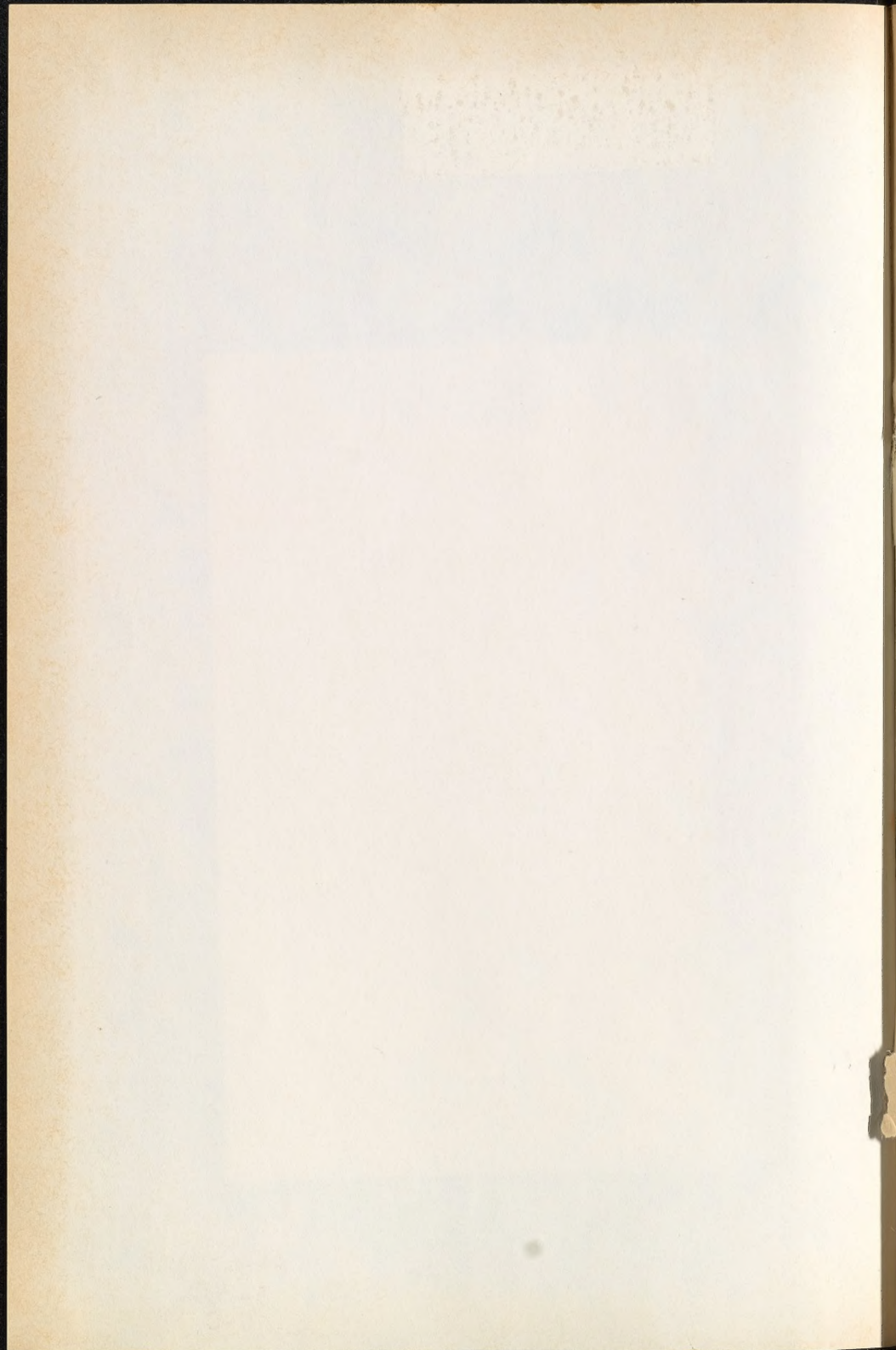
رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٨	٥	اينفذ	ينفذ
٣٨	٩	واستناهم	واستناهم
٤٢	٦	شاكيا	شاكيا
٤٤	٢	غزاة	غزوة
٤٦	١	وأوعز	وأعز
٤٩	٢١	في	في
٥٠	١٥	مالم يكن كانوا	مالم يكن
٥٥	٣	سينخ	سينخ
٥٥	٨	الخالق	الخالق
٥٥	١٢	الملاح	الحلاج
٥٥	٢٢	وبعث الاوثن	وبعث لأوثن
٥٥	٢٣	فالدين فالحب	
٥٦	٧	الكندي	السكندري
٦٢	٢١	دوانه	دونه
٨٠	١٧	سنته	سنة
٨٨	١٣	العالم	لعالم
٩٤	٢٠	اي	اي
٩٧	١٦	انبشكم	ننبشكم
١٠٠	١٠	يستحجر	يستحجر
١٠٠	١١	استحجروا	استحجروا
١٠٤	١٨	شطأة	شطأة
١٠٤	١٩	شطـآه	شطأة

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٥	٦	بنبوة	بنبوة محمد ﷺ
١٢٥	١	يفرد	يفرد
١٣٠	١	افضل	افضل ماقلت انا والنبيون من قبلي لا اله الا الله وحده.. الحديث
١٥٤	١٢	غالبا	غالبا
١٥٨	٨	من القسطينية	من القسطينية
١٦٠	١٥	نعملون	تعملون
١٦٥	١٧	ماسعى	الا ماسعى
١٦١	٢٢	صورة	سورة
١٦١		بعض الايات الواردة	بعض الايات الواردة تراجع من المصحف الكهف
		مفلوطة	آية ١٧ الاعراف آية ١٧٦
١٦٢	١١	بعض	ببعض
١٦٧	٣	نأكلون	نأكلوا
١٧٠	٥	مفسد	مفسدة
١٧٠	١٤	والبدعة	والبدعية
١٧٥	١٣	والميت	أو الميت
١٧٥	١٣	بشرك	يشرك
١٧٧	٢١	نستغيث	نستغث (حديث ضعيف)
١٧٨	١٥	الانبياء أحياء في قبورهم	الانبياء أحياء في قبورهم الانبياء أحياء في قبورهم وحيهم
١٧٩	١٢	ان يردني	ان يردن
١٧٩	١٢	لاتقن	لاتقني

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٩	٢٥	نشفع	نشفع
١٨٠	١٦	رسوله	ورسوله
١٨٠	٢١	الله	اله
١٨٢	١	لادعية البدعية	الادعية البدعية
١٨٣	١٧	تراجعهم	تنازعهم
١٨٤	١١	مرند	مرثد
١٨٧	١٠	لله	الله
١٨٨	٢٢	قرب	قريب
٢٠١	٩	عبد الكريم	عبد الله
٢١٢	٨	وقال اكثر الأئمة:	
		يستقبل القبر	

عند الدعاء وسقط تعليقنا الآتي على
 على هذه الجملة: « الغريب ان الاستاذ ابا زهرة نقل هذه
 العبارة عن ابن تيمية في كتابه عن هذا الامام (٣٣٧) دون
 أن يضيف اليها تتمتها عن شيخ الاسلام التي ذكرناها، وفيها
 يكذب هذا الزعم. فكيف نفسر عمل أبي زهرة ؟!

٢١٩	١٨	صد	ضب
٢٢٠	٩	الباب	أليات
٢٢٤	١١	والاسلام	والاسلامية
٢٢٧	١٣	فيدفعه	فيدمغه
٢٢٦	٨	ويحمل	يحمل
٢٢٧	٥	القيم	قيم
٢٣٩	٢	مساواة	معاداة



BOBST LIBRARY

3 1142 01373 9837

[illegible]

Demco 38-297



NYU - BOBST



31142 01373 9837

BP160.I3 .I7

Ibn Taymiy

منشورات



٢٥٠٧١ : ☎

٢٧٩٤ : ✉